

من الشرق والغرب

فصول مقارنة

بين أدبي الشرق والغرب

للدكتور جمال الدين الرمادي

مقدمة

هذه دراسات مقارنة بين أدبي الشرق والغرب ، وفصول منها فى هذا الكتاب الذى ارجو أن يلقى قبولا حسنا لدى القراء ، اذ انه لون جديد من البحث والمقارنة حتى نستطيع ان نتبين مكانة ادبنا بين الآداب الغربية، ونقارن بين المذاهب المختلفة التى طرقها الأدباء والشعراء فى الشرق والغرب ، كما تناولت فيه جهود علماء الغرب فى الشرق ، واثر علماء الشرق فى الغرب .

والكتاب يضم فصولا فى الاجتماع فضلا عن فصول الأدب ، غير ان الاطار الذى تتراءى فيه هذه الفصول هو اطار المقارنة بين الشرق والغرب ، حتى يمكن تحديد مكانة العرب فى المجتمع البشرى كله .

ولقد كان النقاد يعتقدون ولا يزالون يعتقدون حتى الآن ان انجح الوسائل لتوضيح مكانة الادب هى مقارنته بالآداب الأخرى ، وحينئذ تتجلى قيمته ، وتتضح لنا مكانته .

هذا هو هدفى من هذا الكتاب ، لهذا جعلته زاخرا بالمقارنات ، حافلا بالمساجلات لنعرف مالنا وما علينا .

وقد قامت الجامعات فى اوربا بتخصيص كراسى الأستاذية للأدب المقارن ونهض كليمان وفيلاريت شاسل ، وبنلو ، وتكست بتدريس هذا الأدب فى فرنسا وانجلترا ، كما قام دى سانكيتس بتدريسه فى نابلى وارتوروجراف بتدريسه فى تورين ومارك مونيه بتدريسه فى جنيف ، وكانت الدروس الافتتاحية لهذه المحاضرات لا تقتصر على الجامعات فحسب ، بل كانت تنشر فى الصحف والمجلات ، وظهرت عقب ذلك — الدراسات التفصيلية والقوائم الاجمالية والكتب الوافية ورسائل الدكتوراه فى هذا الأدب .

ولم تكن هناك دراسة اجتماعية تخلو من هذا اللون من المقارنات.

والدراسة المقارنة تدرس فى الغالب عن طريق علاقات ثنائية اى علاقات بين عنصرين فحسب سواء كان هذان العنصران كتابين أو كاتبين أو طائفتين من الكتب او الكتاب او ادبين كاملين او وضعين اجتماعيين متشابهين .

والله أسأل أن يجعل هذا الكتاب يحقق هدفه وعلى الله التوفيق.

حديث فى الشتاء
بين الشرق والغرب

نظم الشعراء العرب الشعر فى الفصول جميعا ، ولكنهم وجهوا جل اهتمامهم الى الربيع ولم يفز الخريف ولا الشتاء الا بقسط ضئيل ... ولكننا سنحاول فى هذا الحديث أن نعرض لما ذكره العرب فى الشتاء فقد قيل : انه فى يوم ٢١ من ديسمبر تكون اشعة الشمس عمودية على درجة عرض ٢٣½ جنوب خط الاستواء او على مدار الجدى بتعبير ادق ، فيحدث الانقلاب الشتوى ، وفى الشتاء يشتد البرد ، ويخشن الهواء ، وتتساقط أوراق الشجر ، وتدخل الحيوانات الى الجحور ، ويظلم الجو وتصير الدنيا كأنها عجوز هرمة قد دنا منها الموت .

والشتاء كما تعرف موسم النشاط والحركة والعمل المتصل الذى لا يعرف التوانى ولا الكسل ، ففيه ينفذ اغلب المشروعات واكثر الرغبات وهو يختلف بين قطر وقطر وبين أرض وارض ، ولكنه عند الاوربيين يتخذ طابعا جميلا ، فالصقيع يتساقط ، والجليد يغمر الارض كانه مرآة ناصعة ، والطبيعة ساحرة فاتنة برغم عبوسها وظلمتها وبرغم انالشمس لا تشرق على تلك الاماكن الا لماما ، وان الشتاء يعقل الاحباء فى ديارهم، ويمنع الأحباب من مزارهم فى بعض الأحيان ، ويدفعهم الى ترك المغانى التى كانوا يأنسون بها ، ويتجمعون فيها ، ويسكنون اليها .

وقد كان شعور العرب منذ العصر الجاهلى نحو الشتاء شعورا حسنا جميلا ، فهو الذى كان يجمعهم حول النار يتجاذبون اطراف الحديث ويتطارحون فنون الكلام ، وهو الذى يجعلهم يغنون ويرقصون ويهرجون ويطربون حول هذه النار . وهو الذى يدفعهم الى السخاء والكرم والجود ، وفى هذا يقول شاعرهم :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى ... لا ترى الآدب فينا ينتقر

فهم يدعون فى الشتاء الناس الى موائدهم ومجالسهم ، وهم ينتهزون هذه الفرصة ليظهروا كرمهم وسخاءهم وجودهم ، ولقد ظل هذا الشعور نحو الشتاء ماثلا فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى والعصر الاسلامى حتى العصر الحديث .

ففصل الشتاء اذن عند العرب فصل الجود والكرم وفصل السخاء والوفاء وقد وصف بعض شعرائهم برودته وزمهريره ، وقال بعض

الأدباء : ان له برودة تغير الالوان وتقشف الأبدان وتجفف الريق فى الاشـداق والدمع فى الآماق ، وهو الذى يحول بين الـكلب وهريره والأسد وزئيره والطير وصفيره والماء وخريره وقال ابن المعتز :

قد منع المـاء من اللمس وامكن الجمر من المس
فليس تلقى غير ذى رعدة ومسلم يسجد للشمس

والواقع اننا اذا ما اردنا ان نتلمس بعض الصور الفنية والأدبيـة التى قيلت فى الشتاء وجدناها صورا طريفة حقا غريبة حقا :

فهذا شاعر يدعو شاعرا ان يحرك عودا ويحرق عودا ، يحرك عودا لسماع أشجى الانغام واعذب الالحان ، ويحرق عودا ليستمتع بالدفء وينعم بالهناء ....

وهذا شاعر غيره وهو ابو سعيد المخزومى يعرض علينا صورا عن الشتاء اكبر الظن اننا لمسناها فى حياتنا العامة كثيرا ، وتمثلت أمام عيوننا جميعا فيقول :

اذا كنت فى بلدة نازلا وحل الشتاء حلول المقيم
فلا تبرزن الى ان ترى من الصحو يوما صحيح الاديم
فكم زلقة فى حواشى الطريق ترد الثياب بخـزى عظيم

وهكذا وجدنا الشعراء العرب يعتبرون الشتاء فصل الجود والكرم كما يعتبرونه فصل البرد القارس والزمهرير الشديد والذى تاخذ فيه الطبيعة صورا جديدة لم يالفها العرب من قبل .

والشتاء فى بلاد العرب فصل قصير الأمد واحساس شعراء العرب بالحر ورمضاء الصحراء أكثر من شعورهم ببرد الشتاء .

ونحن اذا ما اردنا أن نقارن بين موقف الشعراء العـرب وموقف شعراء الفرنجة استطعنا ان نقول : ان شعراء الفرنجة كانوا أشد احساسا واعمق شعورا من الشعراء العرب بالنسبة للشتاء للأسباب الجغرافية المعروفة : فالشتاء عند الفرنجة فصل طويل الأمد ، والشمس لا تشرق فيه الا لماما ، والشمس زائرة فى الغرب على عكس الحال فى الشرق ، فهى محرقة شديدة الوقدة .

لماماً

والشعراء الفرنجة يجتمعون فى الشتاء على النحو الذى يفعله الشعراء العرب الا أنهم يكثرون من الحديث عن المدفاة مثل الشـاعر الانجليزى شيللى والشاعر الفرنسى فرانسوا كوبيه الذى قال : فى المساء فى حمى المدفاة .

فكرت عدة مرات فى صوت عصفور
كان يغرد بين الفاف الغابة فى ايام الشتاء
ذات الأوقات الناعسة والروح الخاملة
وكانت الأعشاب المهجورة

تميل بهاماتها فى عرض الفناء

تحت القبة الساكنة للسماء

اواه ! كم تتمنى العصافير ان يبقى الشتاء .

فالشاعر الفرنسى فرانسوا كوبيه فى هذه القطعة يصور جلسته فى حمى المدفاة فى الشتاء ويصور مشاعر الطيور الشاردة فى الفضاء ، وكذلك كان يفعل الشاعر الانجليزى المشهور وليم شكسبير من قبل ، اذ صور شكسبير فى احدى مقطوعاته موقفه مع صاحبته حين قال :

ما اشبه فراقى عنك بفصل الشتاء

ولت مسراتى مع سنتى الهاربة

فكم لطمات قارسة احس بها

واى جدب لديسمبر العتيد فى كل مكان ....

وهكذا كان الشتاء ملهما لشعراء العرب والفرنجة ، ولم يكن الالهام مقصورا على فصل الربيع وهو فصل الخضرة والنضرة والبهاء ، انما كان ممتدا الى الفصول جميعا ، ولكنه ظهر فى كل فصل بطابعه الخاص وسماته المميزة .

فاذا كان الربيع تحدث الشعراء عن الأزهار اليانعة والاوراق المورقة والاطيار الصادحة والطبيعة الباسمة والآمال المتفتحة ومغانى الحب والهوى ومواطن الجمال وتباريح الود والجوى .

واذا كان الخريف تحدث الشعراء عن الاوراق الذابلة والازهار المصوحة والآمال الناثبة والأحلام الضائعة .

واذا كان الصيف تحدث الشعراء عن الحر اللافح والقيظ الشديد والبحر والشاطىء والغيد الحسان والكواعب الملاح ، وتحدث الشعراء عن المدفاة والنار والدخان والأحلام والآمال المكبوتة والأمانى المكتومة والنفس المحترقة وقد قال ابو تمام :

ضربت الشتاء فى اخدعيه ضربا غادرته عودا ركوبا

وكان ابن المعتز يعيب على ابى تمام هذه الصورة ويقول فى كتابه « البديع » انها من الاستعارات الرديئة التى استخدمها أبو تمام .

وقد تأثر الشاعر الانجليزى المعروف بيرس شيللى بالشتاء فنظم قصيدة من درر قصائده فى الشتاء جاء فيها :

جثم الطائر ينتحب على حبيبه الراحل
فوق فنن رطيب
وكانت الريح الباردة تزحف فى الأعالى
والجدول المتجمد يرسخ فى الوادى
ولم تكن هنالك ورقة فى الغابة العارية

ولا زهرة منثورة فوق الاديم
ولم تكن هناك حركة للهواء
الا جعجعة عجلة الطاحون تدوى فى الفضاء

فهذه صورة طريفة من الادب الغربى يمكن ان نقارنها بصـورة اخرى شرقية كقول الشاعر العربى :

حتى اذا ما اقبـل الشـتاء
جاءتك منـــه غمة عميـــاء

لو انه روح لـــكان فـــدما
او انه شـــخص لكان جهما

يأتيـــك فى ايامه ريـــاح
ليس على لاعنهـــا جُنـــاح

حـــراكها ليس الا ســـكونا
تضرب الأســماع والعيـــونا

يحـــدث من افعالهـــا الزكام
هـــذا اذا مافاتك الصـــدام

ثم يأتيـــك مطـــر مداوم
كانه خصـــم لنـــا ملازم

هذه صور جميلة من الشتاء فى الآداب وهى صور باهرة مجلوة فى معارض الجمال والخيال بديعة المناظر حلوة الاطارات .

وهكذا كانت فصول الطبيعة دائما وابدا وحيا موحيا والهاما ملهما للادباء والشعراء والفنانين على مر العصور وتوالى الايام .

الخريف

فى الأدب الانجليزى

قسم كثيرمن نقاد الأدبالانجليزى وغيره منالآداب الاجنبيةالطبيعة قسمين : طبيعة هامدة وطبيعة حية ، والطبيعة الهامدة كل ما فى السماء والارض مما ليس له روح وليس له قلب يخفق وعرق ينبض . فزهرة السوسن طبيعة هامدة .... وشجرة اللبلاب ودوحة البلوط طبيعة هامدة والبحر والنهر والغدير طبيعة هامدة ...... والربيع والخريف والصيف والشتاء طبيعة هامدة .... اما الطبيعة الحية فتشمل الحيوان المستانس والطير الأليف وغير الأليف ... وكل موجود ذى روح سواء كان مما يعيش على الارض ويطعم من رزقها ... ويأكل من حشائشها او كان من نسج الخيال ، ووهم الاساطير ...

فنظرة الشعراء الى الخريف اذن كانت على انه اثر من آثار الطبيعة الهامدة ومظهر من مظاهر الحياة الطبيعية وقد اختلف الشعراء فى احساسهم به :

فمنهم من يحس الطبيعة احساسا عميقا جارفا يخالط دمه ويمازج روحه ... ويسرى فى اعصابه فاذا بحواسه متنبهة ، واذا بمشاعره متيقظة ... فلا تفوته حركة عصفور ولا هديل حمام ولاتغريد طائر ، ولا يفوته مذاق تفاحة ، ولا عبير زهرة ، ولا نامة ولا نهمة ولا حركة ، ولا سكنة ...

ومنهم من يمزج العواطف بنفسه ويسكب على الطبيعة افراحه ومزاحه .. واشجانه .. واتراحه ...

ومنهم من يصور الناس بين اكناف الطبيعة متنعمين بخيراتها .. متمتعين بافضالها بين جدول جار ، ونهر عذب سلسال ، ويخرج من ذلك بحكمة الهية ... ونزعة صوفية تمتلك نفسه امتلاكا وتستحوذ على روحه استحواذا ...

بهذه العواطف المتباينة وبهذه المشاعر المتفاوتة يستقبل الشعراء والكتاب فى الأدب الانجليزى الخريف ولا يزالون يستقبلونه حتىاليوم .... فهو مبعث الهام كثير منهم ومهبط وحيهم ... ومنبع افكارهم ... وملاذ خواطرهم .

وقد رمز بعض الشعراء الى الخريف بالشيخوخة كما رمزوا الى الربيع بعنفوان العمر وشرخ الشباب ، ورمزوا الى الأمل بالخضرة والى الحب بالوردة والى العفة والطهر باللون الابيض الجميل .

ولقد استهوت صفرة الشمس فى الخريف وقلة الضـوء وخفوت النور ... وذبول الزهر ونضوج العشب وتساقط الاوراق الجافة على الارض ... واوبة الأطيار الى الأوكار .. والضوارى الى الأوجار ... والناس الى الديار ... استهوى ذلك كله فى الخـريف انظار الكتاب والشعراء فاذا بآمالهم تصفر وتشحب . . . ويخيم عليها ظلام مقبت وكآبة موجعـة ... واذا باحـلامهم تذبل وتذوى وتتبعثر على الارض وتذروها يد الريح فى وجه الفضاء ... واذا بهم ينظمون القصـائد الرقيقة والمقطوعات العذبة الجميلة التى تنضح رقة وجمالا ... وتقطر لوعة ودموعا على العمر الذاهب ، والشباب الغائب ، والخريف المنصرم الذى لا يحمل شيئا ولا يبقى على شىء .

وكان شعر الشعراء فى الخريف فى العصر الكلاسيكى تقليدا ... وتمثيلا لشعراء اليونان والرومان مثل ثيوقريطس اليونانى احـد ادباء الاسكندرية القدماء ومن الذين وضعوا اساس الشعر الريفى ، وفرجيل الرومانى الذى نظم اغانى الرعاة فكتب لها الخلود ... وترنم بهـا ثغر الزمان ...

والملاحظ فى ادب الخـريف وغيره من شـعر الفصول فى العصر الكلاسيكى انه ممزوج بذكر آلهة الطبيعة وارباب الخصب والجمـال واساطير الاغريق والرومان : فعروس الجمال (اكو) بارعة الجمال تغرم بشاب وسيم الطلعة جميـل الشكل يسمى (نارسيس) او النرجس فتغازله وتشرع فى ملاطفته ولكنها لا تستطيع من ذلك شيئا ولا تجد الى ذلك سبيلا لانها فقدت المرونة فى الكلام والقدرة على التعبير ، وأتى عليها الخريف فذوت كما تذوى الزهرة ولم يبق لها الا الصوت الذى لقنتها اياه آلهة القمر .

وقد كتب ادمند سبنسر فى القرن السادس عشر تقويم الراعى وهو قصيدة طويلة تشتمل على شهور السنة جميعا . وقد خص شهور الخريف بكثير من روائع وصفه وبدائع قصصـه ، فدعم بذلك الأدب الريفى فى انجلترا الذى ازدهر فى ايطاليا على يد (بترارك) وفى فرنسا على يد (دوديه) .

وتستهل قصيدة تقويم الراعى بنشـيد حزين او اغنيـة متأوهة ينشدها كولن كلوت فى شهر يناير ليشكو حبيبتـه روزالند ، ثم يتلو شهر يناير شـهر فبراير حيث يقص علينا سبنسر قصـة السنديانة والعوسج حتى اذا ما وصل الى شهر اغسطس تحدث سبنسر عن الغناء والطرب والايقاع والابداع ، وشكا فى سبتمبر نوم القساوسة فى الكنيسة الرومانية حتى اذا ما وصل سبنسر الى شهر اكتوبر عاد الى اناشيد الرعاة ، وظل بين انغامها حتى يتم الحول وينتهى العام . ومثله فى ذلك كله ــ كما يقول وليم وردزورث ــ مثل القمر يشق طريقه فى السـماء الغائمة فى ثقة وخطوات وئيدة .

ومن الشعراء الذين مجدوا الخريف الشاعر الانجليزى الكسندربوب فى نهاية القرن السابع عشر ومستهل القرن الثامن عشر .

وقد انشد قصائده عن الخريف والربيع والصيف والشتاء وهو فى العشرين من عمره بعد ما انشد وهو فى الخامسة عشرة من عمره ملحمة شعرية ضمنها كثيرا من خواطره وافكاره واحلامه واوهامه فى هذه السن ولم يلبث ان مزقها وقدمها غذاء للنار .

والواقع ان شعر بوب فى الخريف لايخلو من روعة وجمال وقد كتبه على نسق الشاعر الرومانى فرجيل ، غير ان الصنعة ظهرت فى اسلوبه فى كثير من المواضع ظهورا واضحا .. متعمدا ، فهو يهتم بمتانة التراكيب ، وبانتقاء الالفاظ .. واختيار التعابير كما يهتم بالانغام والانسجام .. والاصباغ والالوان . وهذا الاهتمام قد يقلقه ويؤرقه فى بعض الاحيان .. فاذا باسلوبه باهت شاحب لا أثر عليه من جمال .. ولا مظهر عليه من حسن . واذا ببوب نفسه لايذوق من اجل ذلك النوم الا غرارا .. واذا هو يجلس فى بستانه .. أو يسير بين المروج او على ضفة جدول أو غدير . ينظم قلائد اسلوبه .. ويحوك طراز شعره .. لايكاد يدرك او يعى ماحوله .. ومن حوله من الاحياء والاشياء ..

وكتب جيمس تومسون James Thomson قصيدته فى الخريف وهو فى الرابعة والستين من عمره فى القرن الثامن وتشيع بين قصيدة تومسون برغم مابها من وصف دقيق لمظاهر الطبيعة رنة حزن عميقة وصدى شجن دفين ، ولعل هذا يرجع الى ان تومسون كان ميالا الى الحزن والتشاؤم مسرفا فى اليأس والقنوط .. فقد حبيبته أنضر ماتكون شبابا وأروع ماتكون جمالا واخلب ماتكون فتنة وهو يحمل لها بين جوانحه الحب العميق .. والهيام الشديد .. وفقد اخاه الذى كان صفيه ومعينه على صروف الزمان .

وبرغم هذا الحزن وهذا الالم الذى يشيع فى شعر تومسون نجد فى قصيدة الخريف نزعة جارفة نحو الطبيعة ووداعا صادقا حارا للتعلق باهدابها ولوعة مفرطة خالصة على تغيرها وامحالها ، وقد نفى تومسون بهذه القصيدة مازعمه الكسندر بوب من قبل وهو ان مايجب أن يدرسه الانسان هو الانسان ! ..

والخريف المثقل بالثمرات الشهية والخيرات الناضجة أشبه شيء فى عين تومسون بالرجل الذى اثقلته الخبرة وحنكته التجارب وربته الحياة ، اسمعه يقول :

عندما ينشر الخريف اشعته المتفرقة
التى ينذرها مقدم الشتاء
تمرح الخيرات فى آفاق رحيبة
وتلتف بين جنبات السماء الساكنة
وينساب تيار الماء هادئا رقيقا
قبل ان يحين الشتاء ..
وتشيع الجلبة والضوضاء فى الضفة الآمنة
ايه أيتها الطبيعة التى تزخر بكل شيء !

امنحينى بعضا من اسرارك الخفية
واجذبينى الى السماء .. الى هذا العالم اللانهائى
ودعينى ارقد بجوار الجدول الخفيض واناغى احلامى
فمنك تبدأ وفيك تعيش واليك تنتهى انغامى !
ثم تأمله مرة ثانية وهو يخاطب الخريف :
يافصلا يجثم فيه الضباب وينضج الثمر
ياصديقا حميما للشمس التى تهب الازهار والحياة والاشراق
كأنما دبرت مع الشمس مصير الكروم التى تغطى السقوف
واتفقت معها لتغمرها بالثمر والخير والبركات
كما اتفقتما ان تثقلا بالتفاح اشجار الكوخ
التى يغشى جذوعها نبات الطحلب
وتحمل النضج الى لباب الفاكهة الجميلة
من ذا الذى لم يرك ياخريف بين خزائن محصولاتك
وشعرك تعبث به الريح حتى اوشكت ان تذروه
اين انغام الربيع ... اين ؟
دع عنك انغام الربيع فلك ياخريف انغامك !

وعندما قامت الحركة الرومانتيكية فى انجلترا ، وقدمت الاثر الرومانتيكي أو الفن الذى يحدث اكبر متعة ممكنة للشعوب على حد تعبير ستندال Stendhal لم يغفل الشعراء ولا الكتاب الاصول القديمة فى الادب الريفى ، ولكنهم اصبحوا افرادا يعبرون عن ذواتهم بأدق معانى هذا اللفظ ولم يسجل الشاعر منهم الا تجربته الفردية.. ومشاعره الذاتية .. وخلجات حسه ونبضات شعوره دون أن يعبأ بالمجتمع ولا بأوضاع المجتمع .. ودون أن يرى الا قلبه على حد تعبير ماثيو ارنولد ولا ينعكس الا على « الأنا » كما يقول علماء النفس وهى التى تحركه كيفما هوت وحيثما شاءت .

واذا كان جيمس تومسون رجلا متشائما حزينا فان لورد بيرون كان كما يقول اميل فاجيه Emil Faguet أقوى من ساهم فى وضع نموذج للرجل الرومانتيكى او « الرجل المكتئب الجبرى » اسمعه يقول : —

لقد طفقت يد الحاصد
تحصد النبت الرمادى الناضج ..
ولكن صوت النامى ..
أخذ ينتحب على الشباب الذاهب ..
واقبل الخريف فى اندفاع
يحمل بين طياته الاوراق الجفاف ..

ولكن زهرة حبنا لاتزال يانعة الاشراق
برغم دنو شبح الجفاف الذريع ..
وكقطرة الانداء فوق الجبل ..
وكزبدة الامواج بين البحر ..
وكانبثاقة الماء بين المعين الدفاق ..
ولى شبابى الى الأبد ..

والى جانب لورد بيرون يقف الشاعر الحالم بيرس شيللى وقصيدته الحالمة « زكا » التى استهلها بقوله :

« مات الصيف واخلولق الخريف يتنفس » وفى فقرة اخرى يقول : « مات الصيف وعشت انا لأبكى واغرق فى بلبلة من النحيب »

والى جانب هؤلاء جميعا يقف شاعر الحب والجمال جون كيتس John Keats الذى بهرته مجالى الطبيعة واستهوته مفاتن الخريف فكتب بعض القصائد العذبة يتغنى بوجهه الجميل وطلعته الساحرة .

الصيف

فى الأدب الانجليزى

الفرق فى الحديث بين الربيع والصيف كالفرق بين الطبيعة المزخرفة ذات الزهر المتفتح والورد المتألق والمروج الخضراء وبين الطبيعة السافرة المجلوة التى تتبدى كما خلقها الخلاق العظيم .

فصل الصيف فصل الحرية والانطلاق ، وسماء الصيف ناصعة لايعكرها سحاب ولا يطمسها ضباب ، وارض الصيف واضحة لايغرقها مطر ولا يعرقلها ثلج ولا برد، ووجوه الصيف فرحة مستبشرة تستقبل النور والضياء، وتستمتع برخى الهواء لايكبلها قيد ولا يسترها حجاب.

واذا كان الجغرافيون والفلكيون يقولون ان الفصول اربعة : الصيف والخريف والشتاء والربيع ، فاننا لانكاد نميز هذه الفصول فى مصر تمييزا ظاهرا ، انما نجدها تختلط اختلاطا وتمتزج امتزاجا ليس بينها الا فروق ضئيلة تزداد كلما دنونا من الصيف أو قربنا من الشتاء .

اما فى اوربا بوجه عام وفى انجلترا بوجه خاص فان الامر يختلف عن مصر كثيرا : فالفصول واضحة ظاهرة ، والشتاء شديد البرودة ممتد الجليد غزير المطر ، والصيف معتدل جميل ، ولذلك كان احتفال الشعراء والادباء من الانجليز بالصيف عظيما كما كان احتفالهم بالشتاء عظيما كذلك .

وقد اخرجت الدكتورة اديث ستيول كتابا سمته كتاب الشتاء جمعت فيه القصائد التى قيلت فى الشتاء ونظمها شعراء كثيرون من مختلفى البلاد سواء فى الأدب الانجليزى او الأدب الفرنسى ، وعرجت على الادب الصينى واليابانى فذكرت لنا مجموعة من القصائد العذبة والمقطوعات الرقيقة .

اما الصيف فقد عده الانجليز فصل المتعة والحرية والانطلاق فلا يكاد يقبل الصيف حتى يدع الناس البيوت ليذهبوا الى سواحل البحار أو سفوح الجبال ، وتكون ربة البيت الانجليزى فى هذه الفترة كما يقول « لى ستامب » قد فرغت من تنظيف بيتها من بقايا الفحم فى الشتاء ، فغدا منعشا مبهجا يبعث على الراحة والاطمئنان .

وهناك من يقضون الصيف على سواحل البحار بين مرح ولهو ولعب وقصف ، ويتهادون متباطئين متئدين يخطرون فى مختلف الملابس والازياء ، وهناك من يقضونه على سفوح الجبال بين صعود وهبوط

محتذين احذيتهم السميكة ، سائرين فى شعاب الجبال المتعرجة ، او ممسكين بالامراس القوية والحبال المتينة المتدلية .

وقد سجل كثير من الشعراء هذه المظاهر الجميلة والمباهج اللطيفة فى أشعارهم ، وامتاز الادب الانجليزى بتلك القصص الموسيقية القصيرة المسماة « بالاد » Ballads ، وهى التى تناقلها الخلف عن السلف ، وسرت عبر السنين من افواه الشيوخ الى افواه الشبان ، وتضمنت بعض هذه الاقاصيص الموسيقية أو « البالاد » مغامرات كثيرة حدثت فى الصيف مثل بالاد ابنة ايرل مار The daughter of Earl Mar وهى قصة فتاة خرجت ذات يوم فى الصيف تتنزه بين المروج الخضراء والزهور المائسة فالفت طائرا جميلا يغرد على فنن ، فدعته الى ان يعيش معها ويرتع بين اكناف قصرها والفاف حديقتها ، ولكن ما ان جن الليل وهبط الظلام حتى غدا هذا الطائر الجميل شابا وسيم المظهر حلو القسمات فى شرخ العمر وعنفوان الشباب ، فاشتدت دهشتها وازدادت حيرتها ، غير أنه لم يلبث الشاب الوسيم ان انقلب الى طائر مفرد كما كان ، وانطلق الى قفصه الذهبى .

وتقدم الخاطبون الى الملك يطلبون يد ابنته الفتاة ، ولكنها كانت تردهم واحدا تلو الآخر ، وتأبى عليهم ذلك اباء شديدا ، قانعة بصحبة هذا الطير الجميل الذى تأنس بجواره ، فأقسم الاب قسما غليظا ان يقتل ذلك الطائر ، وان ينتقم منه شر انتقام ، غير ان الطائر علم بما اعتزم عليه الملك فذهب الى مهبط راسه ، واحضر بغاث الطير وخلصوا العروس من الخاطبين .

وهـذه « البالاد » Ballad او القصة الموسيقية خرافة مافى هذا شك ، ولكنها تعطينا صورة واضحة عن ذلك اللون من القصص فى الادب الانجليزى الذى طار صيته فى الآفاق ، وتنـدر به الموسيقيون الجوالون فى شتى البلاد ، كما تصور هـذه القصة الموسيقية احـدى مغامرات الصيف عندما تخلص الطبيعة من اغلال الشتاء وقيود الجليد .

ولم يكن احتفـال شكسبير بالصيف اقل من احتفـال غيره من الشعراء ، فقـد ضمن مقطوعاته المسـماة « السونات » Sonnets كثيرا من الاحلام التى تراوده والهواجس التى تنازع قلبه عندما يقبل الصيف كمـا كتب مسرحية « حلم ليـلة فى منتصف الصيف » وهى مسرحية ابداعية من نوع الملهاة يغمرها ضوء الشمس وينسكب فوقها ضوء القمر تجيش بالعواطف الرقيقة والاحاسيس الجميلة والاشجان الانسانية ، وضمن بعض مسرحياته الاخرى اشعارا رقيقة عن جمـال الطبيعة فى الصيف فوق شطآن فينسيا .

وقد صور شعراء البحيرة فى الادب الانجليزى مثل كوليردج ووليم وردزورث بهجة الطبيعة فى الصيف واصطفاق الموج مع الشاطىء فى صخب وجلبة او فى خفوت وهمس كما صـوروا الزبد وهو يتنـاثر كالقطن المندوف ويترامى تحت اقدام الصخور الشامخة .

حتى اذا ما ادبر الصيف وحل الخريف ثارت فى نفوس الشعراء عواطف جديدة واحاسيس اخرى كالشاعر الرومانتيكى لورد بيرون أو الشاعر الحالم بيرس شيللى الذى قال :

مات الصيف وعشت أنا لابكى
واغرق فى بلبلة من النحيب
ان العالم يغرق فى دنيا الرؤى
وكم أنا تعب مكدود
لانى اجول من غيرك
كانت لدى فرحة دائمة
فى صوتك الحنون وبسمتك الضحوك
ولكنها تولت الى الابد وساذهب فى اثرها !

الربيع

فى الأدب الانجليزى

ليس الاعجاب بالطبيعة وقفا على شعب من الشعوب ولا لغة من اللغات ولا أدب من الآداب ، وليس الاعجاب بالطبيعة مقصورا على زمن دون زمن ولا عصر دون عصر ، ولكن الاعجاب بالطبيعة وجد منذ وجد الانسان ووجدت الطبيعة ، فألهمت الشعراء والكتاب والفنانين ، وستظل تلهم الشعراء والكتاب والفنانين حتى يرث الله الارض ومن عليها وما عليها ....

ومن مظاهر الطبيعة فصل الربيع حيث يعتدل الجو ، ويرق النسيم ، وتصفو السماء، وينضر الزرع، وتتفتح أكمام الأزهار ، وتترنم الاطيار بأعذب الاغاريد واشجى الانغام .

واذا كان الادب الانجليزى يعتمد فى أصول كثيرة على الادب الاغريقى والادب الرومانى فينبغى أن نقرر حقيقة لامحيص عنها ولا مفر منها وهى أن الادب الكلاسيكى القديم حافل بوصف مظاهر الطبيعة ، وبوصف الربيع .

وقد ذكر جوته ان الطبيعة عند اليونان قد بلغت أوج الجمال فى شعرهم وأبعد مراحل الفتنة والبهاء .. وقد أسس ثيوقريطس فى القرن الثالث قبل الميلاد مدرسة فى الشعر الريفى ووصف المروج والمراعى واعياد الربيع .

وهذا فرجيل حذا حذو ثيوقريطس فألف أغانى الرعاة .

وهكذا نما الادب الريفى والشعر الريفى أو مايطلق عليه الانجليز روورال بويترى Rurol Poetry

وأخذ أدب الطبيعة ينمو فى عصور الادب الانجليزى المختلفة حتى جاء شكسبير فى القرن السادس عشر فصور مجالى الطبيعة وفتنتها وصور صخب الطبيعة وقسوتها فى أدبه الذاتى وأدبه الموضوعى .

وان من يقرأ مقطوعات شكسبير وأغاريده يجد وصفا رائعا للربيع بين ثناياها، وقد أهدى شكسبير المقطوعات الاولى الى نبيل مجهول الاسم اختطف منه معشوقته وحرمه جمال الطبيعة ورونق الربيع وبهجة الصيف وفتنة الخريف ، واهدى المقطوعات الباقية الى فتاته وهى ذات شعر أسود واهاب أسمر ، فخالف بذلك عادة الشعراء الذين كانوا يرون عرائس أحلامهم وملهمات فنهم فتيات ذوات شعور شقراء وبشرة بيضاء ...

وحوت مقطوعات شكسبير جملة من أوصاف الطبيعة ومباهج الربيع وفرق شكسبير بين الطبيعة والحب فكتب جنون الحب ويأس الحب والهوى والشباب حتى أن الشعراء الرومانتيكيين استمدوا أصول فهم ومقومات مذهبهم من هذه المقطوعات الرائعة التي دبجتها براعة شكسبير ·

اسمعه يقول :

تعالى واحيى معى وكونى حبيبة فؤادى ···

فسوف تنبت لنا مسرات الحياة ···

ان التلال والوديان والمروج ···

والجبال الشماء تبدى لنا الرضوخ ···

هنالك سوف نجلس فى الربيع فوق الصخور ···

حيث يتراءى الرعيان يطعمون الاغنام ···

وتتجلى الاطيار الصوادح فوق الغدران ···

تترنم سكرى باعذب الالحان ···

هنالك سأصنع لك سريرا من ورود ···

ومن نوار آلاف الازاهير

سأصنع لك قبعة وثوبا ··

موشى باوراق من الزهر بيضاء ...

وقد الف الشاعر الانجليزى جون دن John Downe فى نهاية القرن السادس عشر ومستهل القرن السابع عشر مدرسة شعرية كانت تهتم كل الاهتمام بالناحية الميتافيزيقية فى الشعر وكلفت بما بعد الطبيعة كلفا شديدا ، وقد شاع مذهبها فى جميع اغراض الشعر حتى شمل الغزل والحب ووصف الربيع فقال جورج هربرت George Herbert من أتباع هذه المدرسة :

أيها النهار الصبوح الذى لانسمع فيه ركزا ···

وغمره الاشراق ورخى النسيم ...

كأنك يوم عرس للسموات والارض

ان الظل سيحزن عليك عندما يهبط المساء ···

لانك ستلفظ أنفاسك الاخيرة ···

ايها الربيع الطيب الباسم اليوم المتفتح الورود ...

كأنك الصندوق امتلأ بصنوف الحلوى الشهية ...

ان الحانى تخبرنى أن لأيامك نهاية محدودة ..

ولابد لكل شيء حينئذ أن يموت ...

فجورج هربرت ينظر الى الربيع على أنه جمال زائل وحسن لايدوم ، ويخرج من ذلك الى حقيقة لا خلاص منها ولا محيص عنها وهى أن كل شيء ماخلا الله باطل لايدوم ....

وقد سبقت المدرسة الرومانتيكية فئة من الشعراء تغنوا بوصف الطبيعة والريف كان منهم كوبر الذى قضى الجزء الاكبر من حياته فى بلده على ضفاف أحد الانهار وفى حمى الاشجار المتشابكة المتدلية والمراعى المتدة الفسيحة فأرانا الشمس وهى تشرق على الغابة ، وأسمعنا هديل الحمامة وهى تهدل فى عشها ، وصوت جناح اليمامة وهى ترفرف فى الاجواء ، وجعلنا نستنشق أريج الزهر وهو يفوح فيعبق الارجاء .

كذلك فعل وليم كولنز Collins وبليك Blake الذى وصف الربيع وصور مفاتنه ولكن تصويره ممزوج بالم دفين وحزن عميق يعصف بقلبه عصفا ويهز أركان نفسه هزا .

وكتب الشاعر الانجليزى جيمس تومسون James Thomson فى القرن الثامن عشر قصيدة بعنوان « الفصول » تعد من روائع شعره ، فمهد شعره لمدرسة الحديقة فى الادب الانجليزى أو مدرسة الحالمين الذين يحبون الطبيعة لما تمثل فيها من جمال وتجلى على وجهها من أمارات الفتنة والسحر والرواء ...

ومن الشعراء الذين وصفوا الربيع وتفننوا فى وصفه الشاعر الاسكتلندى وليم دنبار رب القوافى فى اسكتلندة كما يقول الانجليز . اسمعه يقول فى قصيدته :

عندما أدبر شهر مارس بعواصفه الهوجاء

وأقبل أبريل مفضض الانداء ...

وطلع على الطبيعة الهادئة ..

بريح عاتية آتية من الشرق ...

وأعقبه شهر مايو مشرق الازاهير

طفق الطير يغرد ...

بين الورود العبقة البيضاء والحمراء والسمراء ...

فقد وقع أنغامها متعة للسامعين ...

كنت هاجعا فى مخدعى حتى تبلج الصباح ...

فخلت فلق النور يطل بأعين من بلور ...

وخلت مايو الصبوح يمثل حيال مخدعى ...
فى ثياب مزخرفة الألوان ...
هادئا رزينا ينبض بالحياة والنشاط
ويتدثر بدثار ناصع متآلف من الازهار اليانعة ..
ذوات الالوان الرائعة بيضاء حمراء سمراء زرقاء ...
يعلوها الظل وتفضضها أشعة الشمس الذهبية ...

واهتم القصاص فى انجلترا بوصف جمال الربيع والمشاعر التى تنتاب أبطال قصصهم فى الربيع من حب ، كما اهتم الشعراء الرومانتيكيون فى انجلترا اهتماما بالغا بوصف الربيع وذلك لان الرومانتيكية كان من مذهبها الرجوع الى الطبيعة أو المعيشة داخل الكل كما يقول الفيلسوف الالمانى جيته. ان الرومانتيكية حب للاسفار وترنم بالاشعار والاحاسيس الجياشة والمشاعر الدفاقة .

وكان من اعلام هذه المدرسة الشاعر وليم وردزورث وجون كيتس والشاعر الحالم شيللى ولورد بيرون ، قد حوت دواوين هؤلاء الشعراء شعرا عن الربيع ومباهجه والأحاسيس التى تنتاب الشاعر فى ابانه وغضونه ، فهم يصورون نضرة الطبيعة فى الربيع وتفتح الزهر واخضرار الزرع وتغريد الطير وهم يتخيلون للربيع وجودا معنويا ويخاطبونه مخاطبة حسية ويتحدثون اليه حديث القلب الى القلب ونجوى النفس الى النفس ، ويتفنن الشعراء فى ذلك ماوسعهم التفنن ، فاسمعونا قلب الربيع وخلجات نفسه كما صوروا الابداع الالهى دون زخرفة ولا بهرجة بين الفاف الغاب ومجرى العيون والينابيع ، وقمة الصخور ، واعماق الوديان .

ولم يتمسكوا كل التمسك بالمناسبات الدقيقة بين المشبه والمشبه به على نحو ما نجد فى الشعر العربى انما غدا شعرهم مشاعر دفاقة واحاسيس جياشة تنساب فى سهولة وبساطة كما ينساب الجدول الهادر ، والغدير الرقراق ..

وقد ظهرت نزعة تصوفية فى وصف الربيع كتلك التى نجدها عند الشاعر الانجليزى كوفنترى باتمور Patmore والشاعر الانجليزى فوجهان . فليس «فوجهان» شاعرا رومانتيكيا يحب الازهار ويعشق الورود فى الربيع، وليست الازهار تتجلى حيال عينى «فوجهان» كحسناء ذات فتنة أو ربة من ربات الجمال نصفها انسية ونصفها زهرة ، ولكن «فوجهان» يخرج من الربيع ليلقى ربه ، ويخاطب خالق هذا الجمال الساحر الخلاب ، فاذا كان كولريدج يتحدث عن الزهرة من جذرها الى كأسها ، ويصور فتنة الروض ، فان «فوجهان» يصور قدرة الخلاق سائرة بين البساتين ، مارة عبر المروج ...

وفى الادب الانجليزى الحديث نجد وصفا للربيع عند د . هـ . لورنس ، وت . س . اليوت واوسكار وايلد وغيرهم برغم أن أكثر الادباء الانجليز فى العصر الحديث يمكن أن نطلق عليهم أدباء الكارثة لعبوسهم وسخطهم وفقدهم الامل فى مظاهر الحضارة الحديثة .

بين الربيع والخريف

أوشك الصيف أن يدبر بحره اللافح ، وقيظه الشديد ، وأخذ الخريف يتقدم فى اختيال شيئا فشيئا حاملا نسائمه الرخية الناعمة الوادعة الى الدنيا ساكبا روحا حلوة لطيفة فى النفوس ، والخريف ككل فصل من فصول السنة له طابعه وسماته وله صبغته ومميزاته ، وان من يتصفح دواوين الشعر العربى يجد أن الشعراء العرب قد تحدثوا كثيرا عن الفصول ، فتحدثوا عن الربيع وتحدثوا عن الخريف وتحدثوا عن الصيف وتحدثوا عن الشتاء ووصفوا مفاتنها ومظاهرها ومجاليها ، ولكنهم وجهوا جل اهتمامهم الى الربيع منذ العصر الجاهلى حتى العصر الحديث وتفننوا فى ذلك ماوسعهم الافتنان ، وابتدعوا فى ذلك من المعانى ماوسعهم الابتداع، فالربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد يتكلم ، والدنيا معاش للورى حتى اذا اقبل الربيع فهى منظر ، وتبدو أوراق الشجر حيال الشاعر فى الربيع عذارى ، والنضارة ضحكا ، واهتزاز الغصون مغازلة ، ويبدو ثغر الريح يلثم خد الزهور ، ويبدو الروض حيال الشاعر فى الربيع عرسا جمع أنواع السرور ، وما الى ذلك من تأملات رقيقة وتصورات طريفة وخيالات جميلة ٠

وان الباحث فى شعر الربيع يجده فى سهولة ويسر ، ولكن الباحث فى شعر الخريف يصادف مشقات كثيرة وعقبات أكبر ، ولكنه بعد هذا كله وبرغم هذا كله ينتهى الى أن الشعراء العرب قالوا فى الخريف شعرا طريفا مافى هذا شك ٠

فالطبيعة معلمة المعلمين جميعا كما يقول ليونارد دفنشى والطبيعة ملهمة الفنون ٠ وقد يحب الشاعر الطبيعة ، ويحب الفن بعدها على حد تعبير الشاعر الانجليزى وليام كولنز ٠

وقد قال العرب فى الخريف : انه ربيع النفس ، كما أن الربيع ربيع العين فطبعه بارد يابس، فيه يبرد الهواء ، ويتغير الزمان، وتنضج الثمار ويغير وجه الأرض ويصفر ورق الشجر ، وتهزل البهائم ، وتموت الهوام وتنحجز الحشرات ٠

وقد ربط كثير من الادباء والشعراء بين الربيع والخريف فقال احدهم كل مايظهر فى الربيع نوار ، وفى الخريف نجنى ثماره فهو الحاجب أمامه والمطرق قدامه ٠

وقد افتخر شاعر بالخريف على الربيع فقال :

محاسن للخريف بهن فخر ... على زمن الربيع وأى فخر
به صار الزمان أمام برد ... يراقب نزحه وعقيب حر

قلت ان أحد الأدباء قد وصف الخريف بانه ربيع النفس كما أن الربيع ربيع العين ، وقد حاول بعض شعراء العرب التحدث عن خلجات نفوسهم ونبضات شعورهم وخطوات عقولهم أكثر مما يتحدثون عن مباهجه ومفاتنه ان كانت له مباهج أو مفاتن ٠

وقد كان شعور شعراء العرب بالطبيعة على أشده وبالفصول في أوجه ، فمنطقة البحر الابيض المتوسط لما تمتاز به من مناخ معتدل وتربة خصبة وسهول خضر كان شعور شعراء الشام ومصر والاندلس فيها بالطبيعة والفصول جليا واضحا ، وامتاز شعر الاندلس بوجه خاص بهذا اللون من الادب على يد ابن خفاجة وابن هانيء وابن زيدون ، وكان بعض الشعراء العرب يشاركون الطبيعة في حليها وعطلها وفي كسائها وعريها ، كما كانت الطبيعة تشاركهم في أفراحهم وأتراحهم وفي غنائهم وبكائهم كتلك المشاركة الوجدانية التي نجدها في الأدب الأوربي والتي عبر عنها الشاعر الفرنسي بول فاليري في قوله :

« انى أعرف هذه الطبيعة وتعرفني ولم يبق لدى منها شيء مستور فهي تخفق في كل نبضة من نبضات قلبي ٠٠٠ »

وقد عبر عبد الله بن المعتز عن هذه المشاركة بين الطبيعة والشاعر في قصيدة له عن أيلول أو عن الخريف بمعنى آخر ولكن مشاركة ابن المعتز للطبيعة لم تكن الا لنساقي الراح غداقا وتعاطي كئوس الخمر دهاقا ، ولم تكن الا مشاركة محدودة مختصرة ٠

طاب شرب الصبوح فى أيلول
برد الظل فى الضحى والاصيل
وخبت جمرة الهواجر عنا
واسترحنا من النهار الطويل
وخرجنا من السموم لبرد
ونسيم وطيب ظل ظليل
وشمال تبشر الارض بالقطر
كذيل الغلالة المبلول
فكأنما تزداد قربا الى الجنة
فى كل شارق واصيل
ووجوه البقاع تنتظر الغيث
انتظار المحب رد الرسول

وان من يقرأ هذه الابيات يجد فيها مشاركة بين الشاعر والطبيعة ، ولكنه يجد بعد هذا كله وصفا للطبيعة والخريف ولا تطلعنا هذه الابيات على نفسية الشاعر اطلاعا ينقع غلتنا ويروى صدانا ، ونحن يمكن أن نعرف ذلك كل المعرفة اذا قارناها بقصيدة للشاعر الانجليزى (تومسون) فى الخريف ، ذلك الشاعر الذى جمع قصائده فى الشتاء والربيع والصيف والخريف فى مجموعة بعنوان الفصول على النحو الذى فعله الشاعر الفرنسى سان لامبير Saint Lambert ويكفى أن أذكر نبذة من قصيدة لامارتين فى الخريف لنعرف الفرق بين الشاعرين :

سلام أيتها الغابة المتوجة ببقايا الخضرة ...

وبأيتها الأوراق المصفرة فوق الأعشاب المنثورة ...

سلام أيتها الأيام الجميلة الاخيرة فبعدك أحزان الطبيعة

لأنك توافقين حزني وتسرين نظري ...

أجل انى فى أيام الخريف هذه حيث الطبيعة تحتضر

أجد الجمال الذى أنشده فى نظراتها المتحجبة ...

فهى وداع الصديق وهى الابتسامة الاخيرة ...

من شفاه سوف يغلقها الموت اغلاقا أبديا ...

ان الوردة تسقط بعدما تعطى اريجها الهواء ...

وهنا جثم فى الشمس والحياة الوداع ...

أما أنا فسأموت ، وروحى وقت الغناء ...

سوف تردد صوتا حزينا رقيق الايقاع ...

فالشاعر الفرنسى لامارتين يصور أثر الخريف فى نفسه أكثر مما يصور أثر الخريف فى عينه كالشاعر العربى ، ويجارى فكرة الحزن التى كانت مسيطرة على الادب الرومانتيكى فى فرنسا وانجلترا ، ويعبر عن أله وشجنه على العكس من الشاعر العربى الذى تسيطر على نفسه مشاهد الطبيعة كقول الصنوبرى فى الخريف :

نحن منـــه على تلقى شـتاء	يوجب القصف أو وداع مصيف
فى قميص من الزمان رقيـــع	ورداء من الهواء خفيـــف
يرعد المـاء منه خوفا اذا ما	لمسته يد النسـيم الضعيف

ولكن الخريف معذلك لم يكن داعيا الى شعر الوصف فحسب ، بل كان داعيا الى شعر النصح كذلك ، وقد اكتسى ذلك النصح بأسلوب طريف رقيق كقول الشاعر :

خذ بالتوتر فى الخريف فانه	نصديقها ومن الصديق يخـاف
يجرى مع الايام جرى نفاقهـا	مستوبل ونسيمه خطـــاف

ومهما يكن من شىء فاننا ينبغى أن نعترف بأن نظرة الشاعر العربى للطبيعة كانت نظرة مكانية اكثر مما كانت نظرة زمانية ، ولم يكن شعور الشاعر العـربى بالزمان الا فى خطوات قليـــلة تتناثر كالأزاهير هنـا وهناك .

المسرح المصرى والمسرح الانجليزى
يلتقيان في حركات تطورهما

ان المتتبع لتاريخ المسرح المصرى يجـــده قد مر بتطور عظيم منذ نشأته حتى العصر الحديث يشابه الى حد بعيد ما مر به المسرح الانجليزى الا ان نهضته عندنا قد بدأت كليلة ضعيفة منذ الحملةالفرنسية علىمصر حتى نظم الخديو اسماعيل علاقاته بالغرب ، فارسل البعوث العلمية التى تثقفت بثقافات الغرب المختلفة، وتطبعت بطابع الحضارة المختلفةومتابعة العلوم والفنون كالمسرح والسينما والنحت والتصـــوير ، ولم يكن لمصر قبل عهد اسماعيل عهد بالتمثيل الا ماكان من ملاعب فى الاسواق والمواسم والحفلات الخاصة حتى شيد الخديو اسماعيل دار الأوبرا الخـديوية بمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس الذى حضره كمـــا نعلم ملوك العالم وأمراؤه وكبار رجاله فأحب الخديو اسماعيل أن يرفه عنهـم وأن يستقبلهم أحسن استقبال .

وكانت أول رواية اخرجت على مسرح الاوبرا رواية (عايدة) منعمل الموسيقى الايطالى الشهير جوزيف فردى ، اشترك فى وضـــع الرواية وتصوير مناظرها «ماريبت» نفسه ، ومثلت فى مساء ٢٤ من ديسمبر سنة ١٨٧١ بحضور كبار القوم واشترك بعض الجنود فى الظهور على المسرح

وهذه الرواية من الروايات التى طالما مثلها المرحوم الشيخ سلامة حجازى بعد أن ترجمهـا الى العربية الأديب المعروف سليم نقاش ، وقد اشتركت السـيدة منيرة المهدية فى بعض الروايات التى كانت تمثل فى ذلك الوقت فى بعض المسـارح المحلية وان كان اشتراك المرأة المصرية فى التمثيل محظورا ومقصورا على المرأة الاسرائيلية أو المسيحية السورية ·

وهكذا نشأ التمثيل فى مصر ضعيفا فاترا حتى جاء شوقى فألف مسرحياته الرائعة التى كانت ـ برغم ما يوجه اليها من نقد فنى في بعض الاحيان من ناحية المسر ح ـ حجرا راسخا فى بناء نهضة المسرحالمصرى وتشجيع الكتاب على الخوض فى غمار المسرح والاتيان بثمار قرائحهم والابداع فى حبك المسرحيات ولا نزال حتى الآن نتقدم فى سبيلالنهضة المسرحية ، ونرجو ان يستمر تقدمنا حتى نقف تيار السينما الجارف ونجعل الناس يؤمنون برسالة المسرح الخالدة .

وقد مر المسرح الانجليزى كذلك بتطور كبير حتى وصل الى حالته الراهنة، فقد شهد المسرحالانجليزى فى منشئه روايات الطلاسم والالغاز

وكانت تدور حول أشخاص الكتاب المقدس وأحداثه كمـــا شهد روايات المعجزات التى تعرض لما لا قاه القديسون الصالحون فى حياتهم من آلام وأوصاب .

وشهد المسرح في القرن الخامس عشر المسرحية الحلقية . وما جاء العهد الاليزابثى حتى كان المسرح يقـــام في جنوب التيمز حيث يزدحم بائعو الفواكه والجعة والجوز ، وكان المسرح نفسه بدائيـــا يختلف كل الاختلاف عن مظهره فى العصر الحديث فى بنائه وتقسيمه .

وقد مر المسرح الانجليزى بازمات عنيفة كل العنف فى فترات مختلفة من حياته الفنية ، فاغلق فترة طويلة من الزمان حتى أتيح له أن يفتح بعد ذلك وأن يدخل عليه كثير من التحسينات ســـواء كانت فى بنائه وتقسيمه أو كانت فىرواياته التىتعرض علىخشبته وقد تعددت وتنوعت المسرحيات وأصبحت ذات غرض اجتماعى أو غرض سياسى أو غاية عالية .

ونهضة المسرح الانجليزى فى العصر الحديث انما كانت بفضل أعلام كبار حاولوا أن يقتفوا اثر شكسبير ودريدن واضرابهما مثل أوسكار وايلد وبرناردشـــو ، وسومرست موم وجالزورثى الذى يعد من تلاميذ الكاتب المسرحى المعروف ابسن .

ان من سنة الحياة التطور ، ولقد تطور المسرح الانجليزى كما تطور المسرح المصرى حتى وصل الى حالته الراهنة .

وانا لنرجو أن يستمر هـذا التطور ، فلا نرجع بحركة الاحياء الى الوراء ، كما نحب أن يقتبس المسرح من المسرح الانجليزى بل من المسرح الغربى بوجه عام محاسنه وفضائله حتى يكون مسرحا عالميا بادق معانى هذه الكلمة .

كشف مسرحى عظيم

عن المسرح فى الشرق

اتفق نقاد المسرح او كادوا على أن العـــرب لم يعرفوا المسرح او المسرحيات فى عصورهم القديمة وانهم تقدموا بعض التقدم فى عصورهم الحديثة ، فعرفوا المسرح والمسرحيات ، وكانت معرفتهم بها قبل شوقى بامد وجيز ، ولكن أحداً منهم لم يحاول ان يبحث او يستقصى نصيب هذا القول من الصحة او الخطأ حتى قام احد المستشرقين ـ ولا اقول احد العرب المعنيين بشئون المسرح ـ فقدم للعالم تمثيليات عربية مثلت فى القرون الوسطى وضعها محمد بن دانيال الموصلى ايام الظاهر بيبرس فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وهذا المستشرق هو البروفسور باول كاولى وقد نقل بعض هذه المسرحيات عن أصلها العربى ، وقد فقد البعض الآخر ، فترجمها عن النص الانجليزى الدكتور محمد تقى الدين الهلالى الحسينى ، وعرف بهذه التمثيليات جميعا الدكتور فؤاد حسنين

وهذا العمل ان دل على شىء فانما يدل على كشف مسرحى عظيم وكســب تاريخى كبير ، وقد ذكر المستشرق الـكبير جورج جاكوب محتويات هذه التمثيليات فى كتابه تاريخ مسرح تمثيل الظل وقال : ان ابن دانيـــال أعظم شاعر ممتع فى العربية ، وقد نبه جاكوب الى هـــذه المسرحيات البروفسور مركوس جوزيف مولر فوجد هذه المسرحيات فى مكتبة « سكوريال » الاسبانية وقد فهم جاكوب نصوصها بمعاونة نولدكه وجولدزيهر ودى خوبى

واول هذه المسرحيات مسرحية (طيف الخيال) وهى تعطينا صورة رائعة للحالة السياسية والثقافية فى مصر فى عهـــد بيبرس ، والذى نلاحظه عليها انها ليست مسرحية متناسقة الاجزاء متناسبة الاطراف ، ولكنها تصور الحياة تصويرا فريدا ، اما الفاظ هذه المسرحية فهى رائعة ومعانيها رقيقة وشخصياتها متداولة طريفة « **كالامير وصال** » الذى زها على الناس بأعماله العظيمة وامجاده الكبيرة وقد رغب فى الزواج والمعيشة عيشة الاستقامة والهناء ، فطلب من الخاطبة اختيار نصف دينه وانتقاء شريكة حياته

اما ثانية هذه المسرحيات فهى مسرحية « عجيب وغريب » وتصور الحياة المصرية فى الأسواق تصويرا رائعا رائقـــا ، وتبين المهن المختلفة والصـــنائع المتعـــددة وتظهر فيها ضروب مختلفة الالوان من الاخلاق والطباع ، كفنى صانع المباضع ، وخويش الحـــاوى ، ومقـــدام الآسى ، وعجيب الواعظ ؛ ومبارك الفيال الذى يخرج على المسرح قائلا :

انظر الى الفيــل فى تهويل خلقته
واعجب لاتقان صنع الخالق البارى
كقبة بنيت عمدا على عمــد
وقيرت ظاهرا بالزفت والقــار
تخال من ورق القلقــاس قد نبتت
اذناه حين تراه عاديا « سارى »

وان من يسمع هذ الأبيات يرى انها رقيقة هزلية ، ويستطيع ان يستشف جو المسرحية فهو يدعو الى المرح والفكاهة .

أما المسرحية الثــالثة فهى « المتيم » وهى تتعلق بعشق المتيم لليتيم وفيها تحريش الديوك على الـكفاح والثيران بقصــد الفرجة والتسلية ، ونرى فى هــذه المسرحية الجزار « تعاشــير » والكبابجى « أبو جعران » ، ونرى الوليمة والخمر والعود والند والبـــخور ونرى المتيم فى آخر المسرحية يطلب التــوبة من الهــوى ، فيلتفت الى القبلة ويموت حيث يغسل ويدفن

واننا نسمع فى هذه المسرحية كثيرا من نغمات العشــق والهوى كهذه التى نسمعها فى مسرحيات مجنون ليلى وقيس لبنى وجميل بثينة فها هو ذا ابن دانيال يعرض لشخص تيمه الهوى فيقول :

أهل الغــرام تجمعوا وتوســـلوا وتضرعوا
موتوا تعيشــوا فى الهوى وتمــزقوا وتقطعــوا
وخــذوا حديث متيــم عمــن ســواه أودعوا

ولست اكتب هذا الفصل لأتحدث عن القيمة الفنية فى هــذه التمثيليات أو عن قوة الحوار وسلاسته أو عن جمال العرض ودقته ، وانما أكتب هذا الفصل لأبين قيمة اكتشاف هــذه المسرحيات من الوجهة التاريخية فى دراسة فن المسرح عند العرب فليس من شك فى أنها هدت الى تراث كان مجهولا والى حلقة كانت مفقودة فى دراسة المسرح .

وان كانت هنالك كلمة يمكن ان تقال فى ختام هذا الفصل فهى أننا ينبغى ان نبحث عن اصول المسرح عند العرب ، ولا نكتفى بهذه الأحكام النهائية التى يظن كثير من كتاب المسرح أنهم وصلوا اليها ، واننا ينبغى أن نجد فى بحثنا ونمعن فى دراستنا ، والا نقف مكتوفى الأيدى مشلولى الحركة منتظرين احد المستشرقين كالبروفسور باول كاولى ليقدم الينا هذه المسرحيات الثلاث التى الفت فى القرن الثالث عشر الميلادى . !

أمير الشعراء الانجليزى

في الأدب العربى الحديث

تصدر جامعة الدول العربية ترجمات جديدة لمسرحيات شكسبير ، ولسنا فى هذا المقام نحب أن نتعرض لهذا المشروع من حيث قيمته وخطره، فهذا قول قد فات اوانه ، واقدم المترجمون على الترجمة منذ سنوات ، وها هم اولاء قد انتهوا منها ، وها هو ذا الأستاذ عباس محمود العقاد قد انتهى من تاليف كتابه « التعريف بشكسبير » الذى يعد بمثابة التمهيد لسلسلة الترجمات التى ستطبع وقد صدرت من المجموعة عدة كتب .

لسنا نريد ان نتعرض لهذا كله ، انما نحب أن نقول : ان فضل شكسبير ليس وقفا على الأدب الانجليزى ، انما تعداه الى الآداب العالمية جميعا ، ومنها أدبنا العربى الحديث ، وأثر شكسبير على العربية يمكن ان نقسمه قسمين : القسم الأول متصل بالنثر وهو الترجمة ، والقسم الآخر يتصل بالتأثير فى الشعر العربى .

ومسرحيات شكسبير لا يجد فيها المتعة القارىء الانجليزى وحده ، بل يجد فيها هذه المتعة كل قارىء فى اى قطر او مصر ، لأنه يجد فى شخصياتها اناسا يشعرون مثل شعوره ويتحركون فى مثل اتجاهاته فى التفكير ، فهى موضوعات انسانية تمس النفس الانسانية مسا رفيقا رشيقا

وقامت جهود ادبية كبيرة منذ مطلع النهضة الأدبية الحديثة لترجمة هذه المسرحيات .

ومنذ نصف قرن تقريبا عنى الأستاذ ابراهيم زكى ، من كبار موظفى وزارة المالية بهذه الترجمة فاصدر كتيبا فى ١٢٠ صفحة صغيرة الحجم لخص فيها بعض مسرحيات شكسبير ، ولعله نقل هذه الترجمة عن كتاب « شارل ، ومارى لام » الذى تقوم دار الهلال بنشره ، ونشرت منه حتى الآن جزابن يضمان مسرحيات : الزوبعة وحلم ليلة صيف وقصة الشتاء وضجة بلا طائل و « كيفما تريد » وسيدان من فيرونا وتاجر البندقية وترويض النمرة وصاع بصاع والليلة الثانية عشرة ومتاحف أثينا وهاملت وعطيل وبركليس .

وبرغم ان اسماعيل عبد المنعم كان موجزا فى ترجمته لبعض مسرحيات شكسبير اكثر من ترجمة دار الهلال فقد وجد فى ترجمته المتعطشون الى الثقافة الاجنبية شيئا يزيدون به ثقافتهم ، ويلونون به تفكيرهم ، ولا سيما انهم كانوا يتوقون الى ابواب جديدة من المعرفة بدلا

من هـــذه الأساليب الأدبية العقيمة ، التى سيطرت على الفكر الغربى آن ذاك ، وبدلا من هذه الموضوعات السقيمة التى لا تسـاير الحياة ، ولا تجارى الزمن ، واسرف فيها الأدباء والمتادبون فى هذه الفترة .

لذلك كان من الجميل ان يقوم اسماعيل عبد المنعم بهذه الترجمة ، التى صدرها بمقدمة وصف فيها هذه الروايات فقـال : « وقد اخترنا من رواياته ذلك النوع المعروف بالمأساة لانه برع فيه وابدع ايما ابداع وكانه غاص فى سويداء القـلوب ، ووقف على اخـلاق الناس واظهر ما تكنه الضمائر وباح بما هو فى طى الـكتمان ، فسطرها من انفـاس العاشقين وعبرات البائسين ، وارانا فيهـا اشكالا متضاربة من الطبائع وصورا شتى من العادات ، فهذب النفوس وقوم الأخلاق وثل بها عروش الظلم وقوض دعائم الاستبداد » .

وترجم طانيوس عبده رواية هملت . وكان طانيوس شاعرا متأثرا متفننا فى كلتـا الصـناعتين جيد الملكة لطيف التخيل عصرى المعنى مستعذب اللفظ ، اكسبته رواياته شهرة بعيدة عنـد قراء العربية ، وانزله شعره منزلة كريمة بين أوائل الشعراء ، وامتاز سليمان افندى القرداحى والشيخ سلامة حجازى ومحمد بهجت بتمثيل دور هملت .

وكانت مسرحية « عطيل » اول رواية مثلت لشكسبير على المسارح العربية فى مصر ، وترجمت باشارة سليمان افندى القرداحى ومثل فيها سليمان أفندى دور البطل ، وقام بهـذا الدور بعـد ذلك احمد فهيم ومحمد بهجت ، كما قام جوق اسكندر فرح بتمثيل هذه المأساة ، فأحرز فى تمثيلها نجاحا منقطع النظير .

وترجم محمد عفت القاضى فى المحاكم الاهلية مسرحية « ماكبث » ، وكان يمتاز الى جانب عقليته القضائية الممتازة بذوق ادبى رقيق وحس فنى مرهف . فاقبل على ترجمة « ماكبث » بشغف ونهم ، وكان عفت يحسن قرض الشعر ، وله فيه قصائد جيدة فنظم ماكبث بالشعر ، وحاول أن يحافظ على روح النص محافظة دقيقة ، والملاحظ فى ترجمة محمد عفت انه لم يحذف منها شيئا الا اشارات بسيطة جدا كان لابد من حذفها فى النص العربى ، لانهـا لا تناسب ذوق القارىء فى البـلاد العربية .

ولمـا عاد الممثل الكبير جورج ابيض من الخـارج وتشبع بروح المسرح الأوربى واراد أن يقوم بنهضـــة مسرحيـة فى مصر ، طلب من الأستاذ خليل مطران ان يقوم بترجمة بعض روائع شكسبير . وفعـلا اقدم مطران على التــرجمة وقدم للمسرح المصرى « ماكبث وهمـلت وعطيل وتاجر البندقية والعاصفة وريشارد الثالث والملك ليريوليوس قيصر »

وجدير بالذكر ان « مطران » كان يترجم عن الفرنسية ، ولذلك وجدنا بعض الاختــلاف عن النص الانجليزى الاصلى ... كمـــا ان « مطران » حذف كثيرا من المشاهد والتفاصيل فى مسرحياته : ومثال

ذلك انه ادمج فصول هملت الخمسة فى اربعة وحذف مشهد الجنايات في الفصل الاول من مسرحية « ماكبث » ، وبرغم حذف بعض المشاهد وصل الى ذروة الادب الصاق الرفيع ، ولولا أن « مطران » ترجم عن الفرنسية لبلغت ترجمته اعلى درجات الكمال الفنى .

ومن الذين عكفوا على ترجمة مسرحيات شكسبير كذلك ، الأستاذ عوض محمد والأستاذ عوض ابراهيم والأستاذ ابراهيم رمزى والأستاذ محمد حمدى ، وترجم الأستاذ سامي الجريدينى المحامى روايتى يوليوس قيصر وهملت وصدر اولاهما بمقدمة جاء فيها :

« ولم اكن افكر قط فى الاقدام على ترجمة هذه الرواية لو لم يكن لى من « عطيل » أكبر مشجع ، ليس لأنى ممن يجرون فى مضمار خليل مطران » ولكن للتشبه بالكرام ، فخليل مطران على ما اعتقد اقدر عربى يستطيع ترجمة شكسبير ولعله اول من ترجمه ترجمة حقيقية .

ولم يكن اثر شكسبير مقصورا على الترجمة فحسب ، انما شاع فى شعر الشعراء ، واخيلتهم وتصويرهم الفنى بطريق مباشر وغير مباشر ، ولولا ان « شوقى » قد اطلع على انتاج شكسبير المسرحى وتشبع بفنه ما اقدم على تاليف مسرحياته الشعرية ، وما اخرج لنا الروائع من شعره مثل مجنون ليلى ومصرع كليوبترة وعنترة وقمبيز وأميرة الاندلس ، وغيرها ، بل انى لأذهب الى أبعد من هذا فاقول : ان «شوقى» فى «مصرع كليوبترة » حذا حذو شكسبير فى فنه المسرحى فى بعض أحداث الرواية ، وفى بعض المشاهد المسرحية وحاول ان يتسم انتاجه بالخصب والتشعب مثل شكسبير .

وقد نظم شوقى قصيدة من عيون شعره فى ذكرى شكسبير . والقصيدة همزية ، استهلها بالمجد الذى نالته انجلترا فى البحار وفوق الجزيرة واخذ يزهو بنظام الانجليز الدستوري ومشاعرهم بشكسبير . فما انجبت انجلترا شاعرا مثله ، وما تغنى طائر بأعذب من شعره . وبه وصل مجد الجزيرة الى النجوم الزهر فى السماء . اذ كشف الشاعر عن سرائر النفوس وكوامن القلوب ، وشعره ملهم يصدر عن نفس موحية ، ومعانيه أبكار عذارى » ومسرحياته ككتاب الدهر فيها شتى العبر ، وفيها الاضحاك والابكاء ، وفيها الأفراح والأتراح ، وفيها الآهات والبسمات تأمله فى قوله :

ما انجبت مثل « شاكسبير » حاضرة
ولا نمت من كريم الطير غناء

نالت به وحده انجلترا شرفا
ما لم تنل بالنجوم الكثر جوزاء

لم تكسف الشمس لولاه ولابليت
لها سرائر لا تحصى واهواء

شعر من النسق الأعلى يؤيده
من جانب الله الهام وايحاء

وكل معنى كعيسى في محاسنه
جاءت به من بنات الشعر عذراء
أو قصة ككتاب الدهر جامعة
كلاهما فيه اضحاك وابكاء

وقد ختم شوقي قصيدته بالدفاع عن شكسبير ، اذ رماه بعض النقاد بانه صور الانسان بصورة ذئب متعطش الى الدماء ، واجرى أنهار الدم في مسرحياته ، وملأها بحوادث الاغتيال والقتل . فقال : ان هذه الصور ليست الا صورا مستمدة من الحياة ومنتزعة من الواقع ، فانظروا الى العالم كيف تتقاتل الأمم وتتطاحن ، وكيف مشى لؤم الحياة في الناس كما مشى آدم فيها وحواء .

ودعا شكسبير الى أن ينهض من رقدته حتى يبيد بقلمه دولة الظلم ، ويحطم صرح الطغيان في أركان العالم ، وقد سطر لهؤلاء الباغين صفحة سوداء هي العزاء الوحيد والبلسم الشافي الذي يخفف الآلام ، ويمسح اتراح البائسين في خضم الحياة الرحيب .

ولم يكن اثر شكسبير مقصورا على شوقي فحسب ، انما امتد الى شعر حافظ ، ولكننا قبل أن نتعرض لهذا الأثر على شعر حافظ نحب ان نعرض لأثر شكسبير على شاعر آخر من الشعراء المجيدين ، وهو الشاعر محمد الهراوي ، الذي نشر منذ سنوات قصيدة عن خنجر « ماكبث » الذي رفعه للانتقام في مسرحيته الخالدة فقال :

ارى خنجرا يدلى الى بمقبض
انصلا ترى عيناى ام انا خائله ؟
فيأيها النصل الذي لاح في الدجى
وقد حال دون اللمس لا اللمح حائله
ترى انت نصل ام تخيل واهم
به خبل الحمى فخابت دلائله
نعم انت في عيني تمثلت مثلما
يجرد نصل هذبته صياقله
وقد جئت تهديني طريقا شرعتها
وتشبه نصلى في الذي انا فاعله
اكذب عيني ام اصدق ما رات
وهل صح حسى او دهى الحس خابله
والا فما بالى اراك وقد بدا
عليك كما لم يبد من قبل سائله

اما شاعر النيل ، حافظ ابراهيم ، فصور هذا الخنجر في احدى قصائده الرائعة المنشورة في ديوانه ، صوره وهو يتراءى امام بصره ، بعد أن نزعه من غمده في الليل البهيم ، فاخذ يتألق كاللهب اللامع ثم حمله والرهبة تملأ جوانحه ليجهز على ضيفه الملك « دنكان » ليمتلى عرشه ويحتفظ بالملك لنفسه ويخضع الرعية لامرته .

صور حافظ خنجر « ماكبث » تصويرا أدبيـــا خلاقا ، رقى بقصيدته الى مصاف الشعر الرفيع ، فهى حلوة اللفظ ، جيدة الصوغ ، رائعة الأسلوب ، واستخدم فيها حافظ كل ملكاته الفنية ليسمو بها الى فن شكسبير الأسلوبى !

غير أن شكسبير يمتاز على حافظ ابراهيم بالناحية النفسية فى التصوير ، اذ جاءت قصيدته مفعمة بالعواطف ، مصـورة للانفعالات النفسانية التى تساور بطل المسرحية ، وقد حاول حافظ ابراهيم ان يستخدم هذه الأداة الفنية فى شعره ما استطاع الى ذلك سبيلا فوفق حينا وفشل أحيانا ، وقد جاء فى قصيدته :

كأنى أرى فى الليل نصـلا مجردا	يطير بكلتــا صفحتيه شرار
تقلبه للعين كف خفيــة	ففيــه خفوق تارة وقـرار
يماثل نصــلى فى صفاء فرنده	ويحكيه منه رونق وغـرار
أراه فتدنينى اليه شراستى	فينــأى وفى نفسى اليه أوار

امارة الشعر

بين شوقى ودريدن

امير الشعر المصرى هو أحمد شوقى بلا منازع ، اما أمير الشعر الانجليزى فقد يظن ظان انه وليم شكسبير ، الذى ترنم بشعره الحادى ، وتغنى بذكره الركبان ولكنه فى الواقع ليس وليم شكسبير ، بل هو جون دريدن الذى منحه الملك شارل الثانى لقب « أمير الشعراء » .

وانا لا اذكر « شوقى » فى الأدب المصرى الا اذكر دريدن فى الأدب الانجليزى ، فقد تربى شوقى فى أكناف القصر الملكى كما تربى دريدن ، وقال عن نفسه : ان جدته أدخلته على الخديو اسماعيل وهو فى الثالثة من عمره ، وكان بصره لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه ، فطلب الخديو بدرة من الذهب ، ثم نثرها على البساط عند قدميه ، فوقع على الذهب يشتغل بجمعه واللعب به ، وقال الخديو لجدته : اصنعى معه مثل هذا ، فانه لا يلبث ان يعتاد النظر الى الارض ، فقالت : هذا دواء لا يخرج الا من صيدليتك يا مولاى ، قال : جيئى الى به متى شئت !

وهكذا تربى شوقى فى اكناف القصر ، ولد بباب اسماعيل ، واسترعت مواهبه الشعرية « الخديو توفيق » فأوفده الى اوربا ثم اتصل بعدئذ بالقصر .

وهكذا كان دريدن : انحدر من أسرة عريقة ، ومدح وهجا من أجل الملكية ونظم قصيدتى ابشالوم واكتيوفل Absalom and Achtiophel التى تعد من أروع قصائد الهجاء فى الأدب الانجليزى ، ضد شافتسبرى الذى اتهم بالخيانة العظمى للملكية ، وانتج كثيرا من المسرحيات التى نالت الرضا السامى كفتح غرناطة التى نال عليها لقب امير الشعراء .

وقد كتب شوقى للمسرح كما كتب دريدن ، والف الأول « مصرع كليوبترة » والف الأخير « فى سبيل الحب » وهاتان المسرحيتان تمثلان حياة كليوبترة ، الأولى تبرز ناحية المصرع والمأساة ، والأخيرة تبرز ناحيـــة الحب التى تطغى على كل شىء حتى على الواجب عنـد بعض الناس .

كان شوقى اميرا للشعراء ، وكان كما يقول خليل مطران « لا يكد فكره ولا يجهده فى معنى ولا مبنى » وقال عنه عبد العزيز البشرى : « انه كان من أمهر الصاغة فى هذا الزمان » ، ولكنه فى الواقع علا وهبط ، وابدع واسف ، واحيانا كان من هؤلاء الشعراء الذين يقول عنهم شللى : « ليس عليهم الا أن يهزوا بجذع الشجرة فتساقط عليهم ثمارا جنية .

ويغلب ان تنشأ الاشعار فى اذهانهم من تلقاء ذاتها ، ولا دخل لارادتهم فيها ، بل برغم ارادتهم » .

أما دريدن فقد كان اميرا للشعراء ، وزعيما للمسرح بلا منازع . ولد سنة ١٦٣١ ، وتعلم فى مدرسة وستمنستر ، ويقول بعض النقاد : ان دريدن فى سنيه الأولى قبل عهد الاصلاح لم يكن يملك اذنا موسيقية، ولا ذوقا شعريا لقرض الشعر ، ولعل هذا يرجع الى انه قد بدأ شعره متأثرا بالمدرسة الميتافيزيقية التى كان على رأسها الشاعر جون دن John Donne ، ويمتاز شعره بالغموض والابهام والمفارقات ، والاقتصاد فى استعمال الكلمات ، وكان من رجال هذه المدرسة جورج هربرت ورتشارد كراشو Richard Crashau ، ولكن دريدن لم يلبث أن جنح عن هذه المدرسة وهذا المذهب الشعرى .

وقد ساعدت عودة الملكية دريدن على الانتاج الخصب ، فألف عدة مسرحيات ـ حين امرت الملكة بفتح ابواب المسارح بعد اغلاقها ـ تعد من روائع المسرح الانجليزى ، ولقد تأثر دريدن بين جونسون أحد معاصرى شكسبير ، كما تأثر بشكسبير ، وقال: « انى أعجب ببن جونسون ولكنى أحب شكسبير ... »

وقد برع دريدن فى تأليف المأساة البطولية Heroic Play كما تابع تأليفه فى ملاهى السخرية Commedy of humour ومسرحيات دريدن متنوعة : ففيها مأساة البطولة ، وفيها ملهاة السخرية ، وفيها الجامعة بين المأساة والملهاة .

وملاهى دريدن قليلة ، ولكن أقوى مناصر لها وهو سكوت يقول : انها « ثقيلة » غير ان هازلت ، وهو احد المدافعين عن ملاهى عهد الاصلاح قد وجد فيها بعض وجوه الحسن ولكنه فى شيء من السرف أو القتامة !

ولقد سما بدريدن كثير من النقاد ، فذكر سير والتر راليه مبلغ نبوغه فى التهكم السياسى الذى جارى مختلف العصور . وقال كونجريف : « انى اجازف فأقول : انه لم يكتب احد فى لغتنا الانجليزية فى كثرة دريدن وتنوع فن دريدن ، ووصل الى جودته . ويقول ايضا : ان شعره يحوى بين ثناياه كثيرا من فنون الجمال بل لئن لم يكن له سوى أغنياته أو مقدماته لكفى أن يند بذلك على بنى جنسه .

ويقول سانتسبرى : ان دريدن قد بلغ ذروة الدراما ، أو كما يقول الفرنسيون La tête dramatique فى مسرحيات « فى سبيل الحب » و « الزوج والبدع وأورنج زيب » .

هذا عن دريدن أمير الشعراء الانجليزى ، أما شوقى أمير الشعراء المصرى فقد كتب للمسرح « مصرع كليوبترة » و « مجنون ليلى » ، و « أميرة الاندلس » ، وغير ذلك ، فأضاف الى الشعر فنا مسرحيا جديدا فاستحق لقب أمير الشعراء بلا مراء .

بين لورد بيرون وعمر بن أبى ربيعة

يجد كثير من النقاد مشابه شتى بين الشاعر العربى المعروف عمر ابن ابى ربيعة والشاعر الانجليزى الذائع الصيت اللورد بيرون ، وترجع تلك المشابه الى اسباب عدة وبواعث مختلفة .

فعمر بن أبى ربيعة انحدر من اصل طيب ومنبت كريم وعاش بين عامى ٢٣ ، ٩٣ هـ فى الحجاز ، وكلنا يعرف البيئة الحجازية فى ذلك الوقت ويعرف الشباب الحجازيين من أبناء الخلفاء والامراء ووجوه القوم الذين عاشوا فى بسطة من العيش وسعة من الرزق .

وقد عكف الشبان على قلوبهم يمتعونها غاية الامتاع ، فأيامهم قنص وطرد واقامة فى البادية أو لهو ومرح ومزاح فى الحضر أو اجتماع حول جدول من الجداول المنسابة أو غدير من الغدران الصافية ، أو فى ظل دوحة من الأدواح الفارهة أو مجرى ينبوع من الينابيع السائغة ، ولياليهم انس وبشر وغناء وطرب .

كان عمر بن ابى ربيعة شابا من أولئك الشبان السراة ، فارع الطول غض الأهاب ، مرح الشباب ، ظاهر الجمال ، وكان يطوف بالكعبة ينسب بالقوانى ويترنم بالأغانى ويتشبب بالجوارى ، ويترقب مواسم الحج ليتغزل بالرائحات والغاديات .

وكذلك كان لورد بيرون فهو ينحدر من اصل طيب ومنبت كريم عاش بين عامى ١٧٨٨ م ، ١٨٢٤ م ونشأ نبيلا من سلالة اللوردات ، ورث اللوردية وهو لم يزل طفلا ، ثم اضاف الى مجد الحسب طلعة جميلة لولا ما كان فيه من طلع يسير ، وعرف الحب وهو فى الثامنة من عمره ، فانه لما كان طالبا فى المدرسة الثانوية احب فتاة تكبره وتزوجت سواه ، فلم ينقطع تفكيره فيها وأخذ ينشد فيها الشعر .

وعاش بيرون متمتعا بحقوق النبالة الا انه لم يرعها حق الرعاية، وانطلق متحررا من الاوضاع الاجتماعية ، فطرد بقوة الراى العام من انجلترا . وهام فى أوروبا ، وتجرع من كل كأس قطرة ، وعاش فى اليونان وبين الجنود الاتراك ، وقطع البسفور سباحة ، وتحمس لاهل اليونان الذين يحاربون الاتراك فى سبيل حريتهم ، وقصد الى بلادهم يريد القتال فى صفوفهم ، فنالت منه حمى الملاريا هناك ومات فى أبريل عام ١٨٢٤ .

وكان لورد بيرون على حد تعبير ماتيوارنولد أقوى قوة دافعة فى الادب الانجليزى ، نظم الروائع من الشعر والبدائع من الملاحم مثل عرس أبيدوس وتشايلد هارولد وما نفرد وغيرها ، وكان الى جانب انتاجه الادبى الممتاز يمتاز بطلاقة وجهه وبشاشة محياه وأطلقت عليه

الناقدة الفرنسية المعروفة مدام دى ستيل « نيرون الحب » كان يغزو المجتمعات بقامته المديدة فاشتدت الغيرة بين النساء على حبه ، ودبت الشحناء وعمت البغضاء ، وتحطمت نفوس ، وتقطعت أنفاس .

وهو فى ذلك يشبه الشاعر عمر بن أبى ربيعة ، الذى كان يحب المغامرة والمخاطرة ، فلم يكن الرجل الذى يقف ويصف ويحوم ولا يرد كما يقول الزبير بن البكار انما كان رجلا بليغ القول بالغ العمل ، تارة ينسب بزينب وتارة ينسب بهند وحينا يتشبب بالرباب وحينا بالثريا وغير ذلك من الأسماء .

فقال فى الثريا :

قـال لى صـاحبى ليعلم ما بى ... اتحب القتـول اخت الربـاب ؟
قلت وجدى بها كوجدك بالعذ ... ب اذا منعت طيب الشراب
من رسـولى الى الثريا فـانى ... ضقت ذرعا بهجـرها والكتـاب

وقال فى هند :

ليت هنـدا انجزتنـا ما تعـد ... وشـفت انفسـنا مما نجـد
واسـتبدت مـرة واحـدة ... انمـا العـاجز من لا يسـتبد

وقال فى عبلة :

أحب لحب عبـلة كل صـهر ... علمت به لعبـلة أو صـديق
ولـولا أن تعنفنى قـريش ... وقول الناصح الأدنى الشـفيق
لقلت اذا التقينـــا قبلينى ... ولو كنـا على ظهـر الطـريق

وحدث قدامة بن موسى قال : خرجت باختى زينب الى العمرة ، فلما كنا نشرف على عشر ليال من مكة لقينى عمر بن ابى ربيعة على فرس، فسـلم على فقلت له : الى اين اراك متوجها يا أبا الخطاب ؟ فقـال : ذكرت لى امراة من قومى برزة الجمال ، فاردت الحديث معها ، ثم اخذ يصفها لى ويصف مكانها ، فقلت هل علمت أنهـا أختى ؟ فقال : لا واستحيا وثنى عنق فرسه راجعا الى مكة ! ...

وبينما عمر بن أبى ربيعـة منصرف من المزدلفة يريد منى اذ أبصر بامراة فى رحال ففتن بها وسمع عجوزا تناديها : يا نوار استترى لا يفضحك ابن ابى ربيعة ، فاتبعها عمر وقد شغلت قلبه حتى نزلت بمنى فى مضرب قد ضرب لها فنزل الى جنب المضرب ، ولم يزل يتلطف حتى جلس معها وحادثها ، واذا هى أحسن الناس وجها ومنطقا فزاد ذلك من اعجاب عمر بها ، ثم اراد معاودتها ، فتعذر ذلك عليه وكان ذلك آخر عهده بها ، فقال فيها :

علق النـوار فؤاده جهـلا ... وصبا فلم تترك له عقـلا

الى آخر الأبيات .

وكذلك كان لورد بيرون يتغزل بالنساء مثل مارى شوارت ومارى باركر وسارة صوفيا وكارولين لامب . ولعل اتعس امرأة وقعت فيحب بيرون هى الليدى كارولين لامب التى أحبته حبا ملك فؤادها وقد اهدت له خنجرا مرصعا بالاحجار الكريمة فقدم اليها الخنجر وقال : تفضلى ... !

وكما كان عمر بن أبى ربيعة جريئا فى معاملته للنساء كان لورد بيرون ، وقد تزوج عام ١٨١٥ وهو فى السابعة والعشرين من عمره فتاة كان ينتظر أن ترث ثروة طائلة ، ولكنه لم يقم على حياته الزوجية الا ريثما ولدت له بنته ، وبعدئذ ضاقت زوجته بالعيش معه وهجرته الى أهلها ، فلم يستطع بيرون الحياة فى انجلترا فازمع الرحيل الى سويسرا حيث التقى بالشاعر الرومانتيكى شيللى فى حمى الثلوج هناك .

وقد احب بيرون « أوجستا » فتاة وتزوجها وهى شابة ممتلئة الجسم جميلة الوجه هيفاء القد حلوة التقاسيم ، ثم تبين بعد الزواجانها اخته من ابيه . ويقول اندريه موروا انه نقب عن المستندات التى خلفها بيرون فعثر على بعض الرسائل التى كتبها الىأصدقائه واثبت فيها حبه وغرامه بأوجستا . وقد اثمر هذا الحب فتاة تدعى «ميدورا» .

وقد برع عمر بن أبى ربيعة فى الشعر الغنائى ، غير انه برز فى الاسلوب الشعرى القصصى الطريف الذى يختلب الالباب اختلابا وينتزع الاعجاب انتزاعا . فانت مضطر حين تقرأ قصيدة من قصائده ان تتابع القصيدة لتعرف نهاية قصته فيها ، بل انت مضطر حين تتصفح ديوانه ان تتلوه من أوله الى آخره ، لان عمر يمتاز بجاذبية عنيفة وقدرة على الاسر والاستهواء للقلوب والعقول جميعا .

وقد جاء فى الاغانى انعمر فاقنظراءه بسهولة الشعر وشدة الاسر وحسن الوصف ودقة المعنى وصواب المصدر واستنطاق الربع وانطلاق القلب وحسن العزاء ومخاطبة النساء وقال نصيب :

كان عمر أوصفنا لربات الجمال . وقال الفرزدق بعد سماع أبيات من شعره ؟ انت والله يا أبا الخطاب اغزل الناس وقال جرير : انكم ياأهل المدينة يعجبكم النسيب وان أنسب الناس المخزومى !

أما لورد بيرون فبرغم انه شاعر خرج على التقاليد ــ مدح النقاد اتجاهه الأدبى كالناقد المعروف ماثيو ارنولد الذى عده اقوى قوة دافعة فى الادب الانجليزى كما قلت آنفا . اسمعه وهو يقول لمارى شوارت التى تزوجت جون ماسترز :

حسنا انك ترفلين فى حلل السعادة

وكم اتمنى أن أذوق الهناء ...

فقلبى لا يزال يرنو الى الرفاهية معك كما داب على ذلك من قبل

***

بورك زوجك !فسوف يستقى الالام ... كي يكون على مرأى من حظه السعيد ولكن كم يحمل قلبي له من الشحناء ...

ان لم يحمل لك الحب الاكيد ...

وداعا يا ماري ... فحتم على الرحيل

فكلما كنت هائنة لا اعرف طعم الاشجان

ولكن قربك لا استطيع البقاء

خشية ان يهوى قلبي سريعا في هواك !

وقد امتاز بيرون الى جانب هذه الناحية الغزلية الرفيعةبوصف الطبيعة حتى أصبح زعيما من زعماء المدرسة الرومانتيكية في الادب الانجليزى ، تلك المدرسة التي قامت على ايدي بيرون وشللي وكيتس وورد زورث وغيرهم من شعراء الرعيل الاول في الادب الانجليزى ، وامتازت هذه المدرسة بمسحة رائعة من الجمال في وصف الطبيعة وتصوير الخلجات الانسانية في أسلوب عذب رقيق بديع .

ويقول الناقد و. ليك :

« ان انتصارات العباقرة ، لاعظم شرفا واجل فخرا من تلك الانتصارات التي تحرزها القوة الجسدية في المواقع الطاحنة فوق الارض والمعارك الضروس فوق اليم ! تتخرب من اثرها الممالك وتتدمر المدائن وتزهق حياة الجند وتنساب الدماء ! ولكن انتصارات العباقرة لاتسيل فيها قطرة من الدماء ، وانما تشير كآثار ضخام فوق الخرافات والاساطير وتهدى الأمم الى الكمال ... وان بيرون من هؤلاء العباقرة ... ياخذ سمته الى كل طريق يصل الى شغاف القلوب فالقلوب تقرع عند قراءاته بالافراح ... والعيون تنهل عند تلاوته.. بالدموع .. فربما كان لبيرون نقاد .. ولكن لم يكن له منافس ...! »

وكان عمر بن ابي ربيعة يستمد كثيرا في شعوره من وحى الاسلام ويضمن شعره بعض معاني القرآن الكريم ، وقد لقيته صاحبته في المسجد ينظر الى نساء وفي يدها خلوق طيب من خلوق المسجد ، فمسحت به ثوبه ومضت تضحك فقال :

ادخل الله رب موسى وعيسى	جنة الخلد من ملاني خلوقا
مسحته من كمها بقميصي	حين طافت بالبيت مسا رفيقا
غضبت ان نظرت نحو نساء	ليس يعرفنني مررن الطريقا
وأرى بينها وبين نساء	كنت اهذى بهن بونا سحيقا

وكذلك كان لورد بيرون يستمد بعض قصائده من الدين فكتب ملحمة بعنوان « قابيل » استمد بعض اصولها من الدين المسيحي ، صور فيها سخط قابيل على خطيئة ابيه آدم وعلى خروجه من الجنة في جو ديني رهيب تلعب فيه الأرواح والشياطين ، كما كتب ترانيم عبرية عذبة المعنى رائعة الخيال ، واستمد بعض صورها من الكتب المقدسة القديمة.

الليــل
بين الشرق والغرب

كان صاحبى أديبا رائق الحس مرهف الشعور ، صادق الوجدان لا يقر شيئا جميلا من الشعر أو النثر حتى أراه يسعى الى ويحدثنى عنه ، حديث المعجب المتذوق ، وكنا نتحدث عن بعض الكتب الأدبية التى ظهرت حديثا للفيف من الأدباء والشعراء وكنت أعجب بسعة اطلاعه ، ووفرة محصوله ، وتمكنه من الاحاطة بكل شىء جديد غير أنى فى هذه المرة وجدته ساكتا ساكنا ، وكنا نجلس فى حديقة غناء فى الهـواء الطلق والليل مرخ سدوله علينا غير أن النجوم كانت تلتمع فى السماء ، وتتالق على صفحتها كالزهر الأبيض المنثور · ولم يلبث صاحبى أن خفض بصره وقال : هذا الليل الساحر الأخاذ بنجومه المتالقة وكواكبه المتلألئة فى صفحة السـماء ، وهـذا القمر المختال على عرشه فى أجواز الفضاء ، هذا الليل بسكونه الرهيب ، وصمته المهيب ، وهمسه الرقيق كم الهم الشعراء ، وكم سكب ذوب السحر فى قلوب الفنانين ! قلت : أراك تتحدث بانفعال عن الليل ، تراك هل أمسيت محبـا واقعيـا ؟ فقال : كلا يا سيدى فانما الليل قد حظى فى الآداب العالمية باهمية كبيرة ومنزلة رفيعة ، وظل يلهم ارباب الشعر ورسل الفن منذ الأزل الى وقتنا هذا ، وأكبر الظن بل أكبر اليقين ، ان كان اليقين يصغر ويكبر ، أنه سيظل يلهم أرباب الشعر ورسل الفن حتى يرث الله الأرض ومن عليها وما عليها ، وجدير بك أن تتحدث الى قرائك هذه المرة عن الليل فانى أجد فى حديث الليل متعة ليست بعدها متعة وسعادة لا تعدلها سعادة · قلت :

كان الليل فى الشعر الجاهلى ملهما للشعراء الذين كانوا يضربون فى الصحراء ويهيمون فى الفلاة بين الرمال الصفر والسماء الزرقاء ، وقد ذكر امرؤ القيس الليل فى معلقته كما ذكره طرفة بن العبد ولبيد وغيرهم من شعراء المعلقات ، وترنم الأعشى صناجة العرب بسحره وفتنته، ولكن الشاعر الجاهلى لم يجد غير « ليل كموج البحر ارخى سدوله عليه بانواع الهموم ليبتلى » كما هو الحال عند امرىء القيس ، ولم يجد غير « ليل بطىء الكواكب » كما هو الحال عند النابغة ولم يجد غير ليل قد مضى عطف منه فرجع كما هو الحال عند سويد بن كاهل اليشكرى ، وغير ذلك من التشابيه والتصاوير التى يستمدها الشاعر الجاهلى من البيئة العربية والطبيعة الصحراوية وتسـاير نفسيته الحرة وتجارى خياله الطليق ، فالليل يتمطى بصلبه ويردف أعجـازا ، والليل لا يتقدم الا ليتأخر ، ونجومه كأنها دواب يسحبها الليل سحبا ويسوقها النهـار سوقا ، كأن بها تثاقلا من العرج وتباطؤا من الوجى ، فهى لا تتحرك الا بمقدار ، وهى لا تتقدم الا بمعيار ·

الليـــل
فى العصر الاسلامى

ولما انقضى العصر الجاهلي وجاء العصر الاسلامي وجدنا العـرب يتفننون فى وصف الليل تفننا ، ويتنوعون فى تصويره تنوعا ، فالليل قد انتصف عمره والليل قد استغرقنا شبابه ، والليل قد شاب راسه ، وشمطت ذوائبه ٠ وتقوس ظهره ، وتهدم عمره ٠ والليل تقوضت خيامه ، وخلع الأفق ثوب الدجى ، والليل قد تطرز قميصه بغرة الصبح وافتر الفجر عن نواجذه ٠ وما الى ذلك من خيالات جميلة وتأملات طريفة ٠

ومن الطبيعى أن يتعرض الشعراء لوصف النجوم عند حديثهم عن الليل ، ولعل أظرف ما وصفت به النجوم قول ابن الرومى :

رب ليـــل كأنه الدهـر طولا قد تنــاهى فليس فيـه مزيد
ذى نجوم كأنهن نجـوم الشيب ليســـت تزول لكن تزيـد

كما تعرض الشعراء لظلمة الليل ولطوله فى كثير من المناسبات ، ولكن الفرزدق ذكر العلة فى طول الليل حين قال :

يقولون طال الليل والليل لم يطل ولكن من يبكى من الشوق يسهر

وتابعه بشار فى هذا المعنى فقال :

لم يطل ليـلى ولـكن لم انم ونفى عنى الـكرى طيف الم
واذا قلت لها جودى لنـــا خرجت بالصمت عن لا ونعم
نفسى يا عبـــد عنى واعلمى اننى يا عبـــد من لحم ودم
ان فى بردى جسـما ناحلا لو توكأت عليـــه لانهـدم

وهكذا اكثر الشعراء من الشكوى من طول الليل وتفننوا فى ذلك ماوسعهم التفنن : فمنهم من استعدي محبوبه على وحشـة الليـل ، ومنهم من طال ليله حتى نسى النهار أو سمات النهار ، ومنهم من ظل ساهرا لان محبوبه ظعن عنه فاذا الكرى يفر عن عينيه فرارا ويزور عن جفنيه ازورارا . واذا السهد قد امتلكه امتلاكا فيه كثير من الشدة وفيه كثير من الظلم كذلك ٠ وفى هذا يقول العباس بن الاحنف شاعر العفة الاسلامى :

نام من اهــدى لى الارقا مستريحـا سامنى قلقـا
قـد يبيت النـاس كلهم وسهادى يبض الحـدقا
أنا لم أرزق مودتـكم إنمـا للعبـد ما رزقا
كان لى قلب اعيش بـه فاصطلى فى الحب فاحترقا

شعراء الحرب

وكما ان الليل كان ملهما للعشاق من شعراء الحب كان الليل ملهما لشعراء الحرب كذلك . فهاهو ذا المعتصم يفتح عمورية ويصب عليها جام غضبه صبا ، وها هو ذا ابو تمام يشهد هذه المعارك الطاحنة وهذه الحرب الضروس والمآسى المروعة فى الليل ، فيرسل نفثة من اعماق قلبه ، ويبعث زفرة فى اغوار نفسه ويقول :

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى
يشـاه وسطها صـبح من اللهب

حتى كان جلاليب الدجى رغبت
عن لونها او كان الشمس لم تغب

ضـوء من النـار والظلمـاء عاكفة
وظلمة من دخان فى ضحى شجب

فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت
والشمس واجبة من ذا ولم تجب

وقد وقف ابو العلاء المعرى وقفة امام الليل يخالف فيها هؤلاء الشعراء جميعا :

فابو العلاء رجل مفقود البصر وليس الظلام عنده بفان ، أبو العلاء يرى الليل عروسا من الزنج عليها قلائد من جمان ، ويتخيل ان الهلال والثريا معتنقان ، والواقع أن أبا العلاء كان برغم فقده بصره شاعرا مرهف الحس رقيق الشعور متفتح المدارك بعيد التأمل .

***

اما الليل فى الاندلس فقد ظفر بمنزلة عظيمة ومكانة سـامية ، غير ان الوصف كان يكاله فى اغلب الاحوال ، فالسماء بساط أزرق موشى بالزهر الابيض ، والليل تجنى فيه اللذات دهاقا وتفترع فيه المسرات سراعا .

وهكذا شـاعت فى الادب الاندلسى ظاهرة التزيين والتزويق فى الصور والمعانى ، وبرزت النزعة الابيقورية كما يسميها مؤرخو الفلسفة او نزعة المتعة كما يحب أن يسميها مؤرخو الادب .

الليـــل

فى العصر الحديث

وفى العصر الحديث لم يغفل الشعراء الكتابة عن الليل ، وعند ما نفى الشاعر محمود سامى البارودى الى جزيرة سرنديب اهاجت الغربة شاعريته وارهفت احاسيسه ، واخذ ينظم الشعر فى وصف خلجات قلبه ، ونبضـات شعوره ، ووصف الليـل الذى يخيم على الادغال والاحراج وصفا ممتعا جميلا ، غير انه تمنى ان يعود الى اهله وبنيه ؛ فهو لايستطيع ان يتحمل وحده العيش ، ورهبة الليل

اما امير الشعراء احمد شوقى فانه تنقل بين بلدان شتى ، سافر الى الآستانة ، وسافر الى الاندلس ، وجاس خلال دورها وقصورها ، وتعرض للتعبير عن مشاعره فى الليل ، ولكنه استمد من الليل كثيرا من حكمه المشهورة وامثاله المعروفة كقوله :

كم ساهر خائف والدهر فى سـنة
وراقد آمن والدهر فى ســـهر

فلا تبيتن مختـــالا ولا ضـــجرا
ان التـــدابير لا تغنى عن القـدر

وشعر شوقى حافل بليل الاستبداد وليل الظلم ، وما الى ذلك من استعارات ومجازات استدعتها الظروف السياسية المحيطة فى هـذه الفترة .

وهذه المجازات والاستعارات تبلغ ذروتها عند شاعر النيل حافظ ابراهيم الذى كان شاعرا شعبيا يعبر عن احاسيس الشعب الوطنية اصدق تعبير، ولا تفوته مناسبة قومية دون أن ينظم فيها قصيدة يبين فيها كفاح الشعب المصرى فى سبيل الحرية والاستقلال ، ومن الابيـات الطريفة التى نظمها حافظ ابراهيم قوله :

ياساهر النجم هل للصبح من خبر
انى اراك على شىء من الضـجر

اظن ليلك قـــد طال المقـام به
كالقوم فى مصر لا ينوى على سـفر

ففى هذه الابيات يصور حافظ القلق الذى يعترى المصريين لعدم ادراكهم للحرية فى ذلك الوقت ورغبتهم فى نهار الحرية المسفر المشرق الطلق .

اما عبد الرحمن شكرى فانه كان متأثرا الى حد بعيد بالشعراء الرومانتيكيين فى انجلترة مثل بيرس شللى ، ولورد بيرون ، وجون كيتس وكولريدج وغيرهم ، اذ عكف عبد الرحمن شكرى على قراءة الادب الانجليزى عكوفا تاما ، فبان اثر هذا الادب فى اتجاهه الفنى ، وقل مثل ذلك عن الاستاذ عباس محمود العقاد ، وقد نهل من المنهل الذى نهل منه شكرى ولا سيما كتاب « الكنز الذهبى » الذى جمعه «بالجريف»

وعلى ذلك فالسمة البارزة فى شعر شكرى والعقاد عن الليل هى استمداد شعرهما من المعين الرومانتيكى الصافى .

أما شاعر الجندول على محمود طه فله قصيدة عذبة فى غرفة الشاعر بالليل وهى من اللون الغربى فى الشعر ، صور فيها الشاعر ساهدا ساهرا ، تحت ضوء مصباح خافت وهو يفكر ويطيل التفكير ، ويتأمل ويبعد فى التأمل ، وهى من أروع ماكتب على محمود طه، وتشبه الى حد بعيد قصائد الشاعر الفريد دى موسيه فى الغرض نفسه

هذه هى بعض خطوات عن الليل فى الأدب العربى

اما فى الادب الغربى فقد كان الليل ملهما لكثير من الشعراء والفلاسفة ، وصور نيتشه وشوبنهور رهبته فى كثير من حديثهما ، وكان دعامة لكثير من نظرياتهما الفكرية وتأملاتهما الميتافيزيقية .

وقل مثل ذلك عن الأدب الألمانى كله أو جله فهو أدب القوة وأدب العبقرية والخلود .

أما شعراء الرومانتيكية فى أوروبا فقد أكبروا الليل فى اشعارهم ووجدوا فيه مرتعا خصيبا لخيالهم ومجالا فسيحا لاحلامهم ، واطيافا حبيبة لذكرياتهم ، مثل الشاعر شللى وكيتس وبيرون فى انجلترة ، ولامارتيه وفيكتور هوجو والفريد دى فينى ، والفريد دى موسيه فى فرنسا . فقال الشاعر شللى فى احدى قصائده :

امض سريعا ايها الليل فوق امواج الغرب
واخرج من الكهف الملبد بالغيوم فى الشرق
فعندما يخبو نور النهار الطويل
تنسج احلام الفرحة والحلال
التى تجعلك رهيبا عزيزا

***

جب ايها الليل فوق المدائن والبحر والبر
تلمس كل شىء بعصاك السحرية
فانه تواق يبحث عنك
فعندما نهضت من نومى رايت الفجر يتنفس
فارسلت زفرة من اجلك ايها الليل .

وعندما انتشر الضوء فى الفضاء والتمعت الأنداء
انسكب النور على الزهور والشجر
ثم رقد النهار متعبا مكدودا يستريح
يترنح كضيف ثقيل الظل
فارسلت زفرة من اجلك أيها النهار .

***

الموت يحجم عندما ينقشع النهار سريعا سريعا
والنوم يحل عندما يولى الأدبار
فممن التمس الصنيع وارجو الجميل ؟
اسألك ايها الليل الحبيب
أن تدنو سريعا .. سريعا .

اما لورد بيرون فانه استمد اوصاف حبيبته من الليل فقال فى قصيدته « تسير فى الجمال » :

انها تسير فى جمال كأنها الليل المميز
يخطر دون سحائب ، لماع النجوم
وكل شيء ابيض ناصع واسود دامس
يجتمع فى اهداب عيونها السوداء
كأنما تنتمى الى النور الناعم الوديع
الذى تضن به السماء على الايام الحالكة
وعندما تبدو فى انظلال ينبثق منها شعاع
ذو جمال تعجز عنه الأسماء
يتحرك فى الفضاء فى وجه الاطيار
او ينعكس فى فتنة على محياها
حيث تتراءى فى الافكار عذبة معبرة
فما أجمل حيث تكون هاتيك الأفكار ... !

وامتزج الليل عند الشاعر رابندرانات طاغور بنزعة التصوف الخالصة ، فنراه عندما يتعرض للحديث عن الليل يدرك رهبته وجلاله وجماله ، ويتطلع الى خالقه كأنه طفل صغير تائه فى عالم عظيم محفوف بالأسرار والأستار ، فاذا هو يتلاشى فى هذا الوجود كما تتلاشى القطرة من الماء فى البحر الخضم .

ومن شعره قوله : « أيها الشاعر ، ان الليل قد أرخى سدوله ورأسك قد اشتعل شيبا ، أفما رن فى اذنك صوت يأتى اليك ليقتحم عزلتك من الغيب السحيق ؟ بل لقد هبط الليل وانى لأرهف السمع لعلى أسمع صوتا ينحدر الى من القرية فى هذه الساعة المتأخرة !

وانى أتلهف لعلى أرى قلوب الشباب تتلاقى ، أو أسمع الموسيقى تصدح لتقطع وحشة هـــذا الصمت الرهيب وتعبر عن عواطف المحبين المكبوتة .

فمن ذا يكون هنـــاك لينشد بأعذب الألحان اذا ما جلست أنا على ضفة الحياة أفكر فى الموت وما بعد الموت » .

***

وهكذا كان الليل وحيا لشعراء العرب كما كان وحيا لشعراء الغرب والشرق فسبحان من خلق الليل والنهار وأقسم بالليل اذا سجى وأبدع الكواكب والنجوم . فاذا كل فى فلك يسبحون .

وما ان انتهيت من حديثى حتى وجدت الدموع تتـــألق فى عينى صاحبى بالليل .

البحر
بين الشرق والغرب

منذ وجود البحار فى هذا الكون ، وتقسيم الارض الى ماء ويابس ، ولكل عنصر من هذين العنصرين جمال خاص ، وسحر معين يبهر العقول ، ويأخذ بمجامع القوب .

والفنان الحق هو الذى يستطيع أن يضع أنامله على مواطن الفتنة ، ومنابت الجمال ، ويتخذ من محاسن الطبيعة ميدانا لفنه ، ووحيا لبنات أفكاره ، والفنان الحق هو الذى يجد فى هـذه العناصر مالا تجده عين ، ويسمع منها مالا تسمعه أذن ، ويجول بخلده مالا يجول فى خلد غيره .

والبحر ملهم للادباء والفنانين على تطاول الأزمان وكر الأيام ، وتوالى الدهور ، وقد تحدث الله تعالى فى كتابه العزيز عن البحر فى مواطن شتى فقال فى سورة يونس : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر (١) » .

وقال فى سورة ابراهيم : « وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بامره وسخره لكم الانهار (٢) » .

وقال فى سـورة الرحمن : « وله الجوار المنشـئات فى البحـر كالأعلام » (٣) .

وقال فى سـورة الاسراء : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر (٤) ».

واقسم بالبحر فى سورة الطور فقال تعالى : « والبحر المسجور، ان عذاب ربك لواقع (٥) » .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : « لما أراد الله عز وجل أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء ، ووصف من طولها وعرضها وسمكها ثم نظر اليها بعين الهية ، فصارت ماء يترقرق لا يثبتفى ضحضاح ، فما يرى من التموج والاضطراب ، انما هو ارتعادة من خشية الله تعالى ، ثم خلق الريح فوضع الماء على متنه ، ثم خلق العرش ووضعه على متن الماء وفسر بذلك قوله تعالى : « وكان عرشه على الماء » .

ولم يعرف اغلب الشعراء الجاهليين البحر ، ولم يجر ذكره فى شعرهم اللهم الا الشعراء الذين طوفوا فى البـلاد ، وتنقلوا بين شتى

---

(١) آية ٢٢ . (٢) آية ٣٢ (٣) آية ٢٤ (٤) آية ٧٠ (٥) آيتا ٦، ٧ .

الأقطار والأمصار ، وركبوا متن البحار أو دنوا منها ، كالشاعر امرىء القيس أحد أمراء كندة ، الذى رحل الى القسطنطينية وعاش فيها فترة من الزمان ، وشبه الليل بموج البحر .

ولما فتحت بلاد الشام وشاهد العرب سفن الروم تطلعت نفوسهم الى مسايرة أعدائهم فى ركوب البحار ، وطلب معاوية بن أبى سفيان من امير المؤمنين ، عمر بن الخطاب ، أن يأذن له بغزو بلاد الروم عن طريق البحر ، غير أن عمر بن الخطاب توجس خيفة من هذا العمل ، ولم يشأ أن يتورط فى هذه الحملة ، فسأله أن يصف البحر قبل أن يركبه فكتب اليه عمرو بن العاص كتابا أدبيا تاريخيا يصف فيه البحر وجاء فيه .

« يا أمير المؤمنين ، انى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، ليس الا السماء والماء ، ان ركد أحزن ، وان ثار أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ..

فلما وافى هذا الكتاب عمر بن الخطاب تبلبلت نفسه ، وهاج خاطره وكتب الى معاوية يقول : « لا والله الذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا » .

ولكن كراهية البحر لم تدم فى نفوس المسلمين طويلا ، اذ لم يلبثوا بعد ذلك أن أنسوا اليه وركبوا متنه فى عهد عثمان ومعاوية بن أبى سفيان ومن أتى بعدهما من الخلفاء ، وفتح العرب كثيرا من الجزر الكبرى فى البحر الأبيض المتوسط ، وأهمها صقلية ورودس ، وانتزعوهما من يد الدولة البيزنطية ، وشرع الكتاب والشعراء يصفون البحر ، ويعبرون عن شعورهم حياله ، ويقفون على شطآنه وقفات طويلة يستلهمون موجه ويناجون عظمته .

وورد وصف للبحر فى كتاب نفح الطيب للمقرى جاء فيه .

« والبحر تحتنا كارض تميد بأهلها وتزلزل بوعرها وسهلها ، ونحن بعد دود على عود ، فقد نبت بنا من القلق أمكنتنا ، وخرست من الفرق ألسنتنا ، والرش يكتنفنا من كل جانب ، ويسيل من أثوابنا سيل المذانب ، فشممنا ريح الموت وظننا التالف والفوت » .

وسرعان ما أصبح البحر موضوعا فى أدبهم ، ووحيا لأمثالهم ، ومجالا لتشبيهاتهم وكتاباتهم فقالوا : « أعمق من البحر » « وأندى من البحر » ، وقال ابن الرومى :

كالبحر يرسب فيه لؤلؤه سفلا وتعلق فوقه جيفه

وقال أبو نواس :

من قاس غيركمو بكم قاس الثماد الى البحور

وقال ابن رشيق :

البحر مر المذاق صعب لا جعلت حاجتى اليه

أليس ماء ونحن طين   فما عسى صبرنا عليه

وقال ابن حمد يس :

لا أركب البحر أخشى   على منه المعاطب
طين أنا وهو ماء   والطين فى الماء ذائب

وقال السلامي :

وميدان تجول به خيول   تقود الدارعين ولا تقاد
ركبت به الى اللذات طرفا   له جسم وليس له فؤاد
جرى فظننت أن الارض وجه   ودجلة ناظر وهو السواد

ولما استقر الأمر للعرب فى الأندلس أواسط القرن الثاني الهجرى تقريبا من سنة ١٤١ هـ ظهر فى الأندلس شعراء وأدباء كثيرون ، وأغرم بعضهم بالبحر غراما شديدا فوصفوا جماله ، وفتنته ، وحكوا لياليهم وبهجتهم بين رحابه ، وعلى ضفافه ، حيث تدور الاقداح وتعزف الأوتار . وتصطفق المجاديف ، ويحلو الغناء :

فقال السرى يصف شرب ليلة فى زورق :

ومعتدل يسعى الى بكأسه   وقد كاد ضوء الصبح بالليل يفتك
وقد حجب الغيم السماء كأنما   يزر عليها منه ثوب ممسك
ظللنا نبث الوجد والكاس دائر   وتهتك أستار الهوى فتهتك
ومجلسنا فى الماء يهوى ويرتقى   وابريقنا فى الكاس يبكى ويضحك

وقال ابن دراج الأندلسى المعروف بالقسطلى ، وكان يسكن الأندلس كالمتنبى يسكن الشام على حد تعبير الحصرى القيروانى :

اليك شحنا الفلك تهوى كأنها   وقد ذعرت عن مغرب للشمس غربان
على لجج خضر اذا هبت الصبا   ترامى بنا فيها ثبير وثهلان
وان سكنت عنا الرياح جرى بنا   زفير المنى ذكرى الأحبة حنان
يقلن وموج البحر والهم والدجا   تموج بنا فيها عيون وآذان
الا هل الى الدنيا معاد وهل لنا   سوى البحر قبر أو سوى الماء أكفان

ففى هذه الابيات نلمح خوف الشاعر من البحر ، ورهبته من موجه ، وخشيته من ثورته ، ولعلنا نلتمس للشاعر العذر فى ذلك ، فان السفن البحرية لم تكن ترقى فى بنائها وضخامتها ، وفخامتها وأمانها الى مستوى السفن فى العصر الحديث ، وكان ركوب البحر يتطلب شجاعة كافية ، وثباتا فى الجنان .

ويظهر أن ابن الرومى كان يشبه الشاعر القسطلى الأندلسى فى هذا الشعور ، اذ كان يخاف ركوب البحر خوفا شديدا ، ولما ندبه أبو العباس ابن ثوابة الى الخروج اليه وركوب دجلة توجس خيفة ، وتملكه شعور عجيب من الرهبة ، وسجل هذا الشعور فى أبيات صادقة جاء فيها :

أذاقتنى الأســفار ماكره الغنى — الى وأغراض برفض المطــالب
لقيت من الــبر التباريح بعــدما — لقيت منالبحر أبيضاض الذوائب
فما زلت فى جوع وخوف ووحشة — وفى سهر يستغرق الليل واصب

وقد علل ابن الرومى خوفه من البحر بعدم اجادته السباحة ، فلو سقط فى البحر فهو لابد هالك لأول وهلة بل انه يمر به فى الكوز مر المجانب ، ويخاف أن يجد السم ممزوجا بالماء الذى يشربه فيسلمه الى الموت فما بالك بالركوب فى البحر الخضم ؟

وأما بلاء البحر عنــدى فانه — طوانى على روح من الروح راقب
ولو ثاب عقلى لم أدع ذكر بعضه — ولـكنـه من هوله غــير ثائب
ولم لاولو القيت فيــه وصخرة — لوافيت منــه القعر أول راسب
وأيسر اشفاقى من المــاء أننى — أمر به فى الــكوز مر المجانب

ولما جاء العصر الحديث ، وتقدمت المدنية خطوات واسعة الى الأمام ، واصبح ركوب البحر أمرا ســهلا ميسورا والغى تطور العمران المكان والزمان الغابرين ، وطفقت السفينة تطوى البحار ، وتصل « الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس » أخذ الشعراء يكثرون من ذكر البحر فى شعرهم :

فلما نفى محمود سامى البارودى فى جزيرة سرنديب أخذ يصف وحدته ووحشته ووصف البحر وصفا مثيرا خلابا .

ولما رحل شوقى الى الاندلس مضى يصف رحلته ، ويصف البحر ورهبته وكذلك فعل عندما سافر الى الاستانة ، وفى كل بقعة من البقاع عبر فى سبيلها بحرا ، والقى فيها عصا التسيار ، ونظم حافظ ابراهيم بعض شعره فى البحر . ولما سافر الى ايطاليــا عام ١٩٢٣ نظم هذه القصيدة التى جاء فيها :

عاصف يرتمى وبحــر يغير — أنا بالله منهمــا مستجــير
فكأن الأمــواج وهــى توالى — محنقات ، أشجان نفس تثــور
ازبدت ثم جرجــرت ثم ثارت — ثم فارت كما تفور القــدور
ثم أوفت مثــل الجبال على الفلك — وللفلك عزمـــة لا تخــور
فى ثنايا الأمواج والزبد المنــد — وف لاحت أكفاننا والقبــور
مر يوم وبعض يوم علينــا — والمنايا الى النفوس تشــير
ثم طافت عنــاية الله بالفلك — فزالت عمن تقــل الشرور
ملكت دفة النجــاة يد اللــه — فســبحان من اليه المصير

وهكذا أخذ حافظ ابراهيم يصف تلك المشاعر المختلفة التى تنتاب قلب المسافر عندما يركب البحر ، ولا سيما عنــد ما يصطخب الموج ، وتميل السفينة يمنة ويسرة فى يد الريح ، فيجثم القلــق فى قلوب المسافرين ، ويلوح الغرق على وجوههم ، وتتردد مصايرهم بين الحيــاة والموت ، وبين النجاة والهلاك ، ولم يلبث حافظ ابراهيم بعــد ذلك أن جنح الى فكرة فلسفية فقال :

أيها البحـــر لا يغرنك حول واتســـاع ، وانت خلـق كبير
انما أنت قطرة قد حوتهـــا ذرة فى فضـــاء ربى تدور
انمـــا أنت قطـــرة فى اناء ليس يدرى مداه الا القـدير

ووقف شاعر المهجر الكبير ، ايليـــا أبو ماضى ، أمام البحر وقفة الحيران وتساءل عن أصل الانسان وهل الماء أصله ، كما يقول الفلاسفة الاغريق أو ماذا ؟ وسأل البحر هل يعـلم كم من السنين مرت عليه ؟ وسأل الشاطىء هل يدرى انه جاث لديه ؟ وسأل الأنهار هل هى منه اليه؟ ولكنه لما لم يظفر بجواب يبـــدد حيرته ، ويذهب قلقه وشكه ، تملكه الذهول كل التملك ، قال فى تعجب :

ترسل السحب فتسقى أرضنا والشجرا
قد أكلناك وقلنـــا قد أكلنـــا الثمرا
وشربنـــاك وقلنـــا قد شربنـــا المطرا
أصـــواب ما زعمنـــا أم ضـــلال
لست أدرى

يرقص الموج وفى قلبـــك حرب لن تزولا
تخلق الاسمـــاك لكن تخلق الحوت الأكولا
قد جمعت الموت فى صدرك والعيش الجميلا
ليت شـــعرى أنت مهـــد أم ضريـــح
لست أدرى

فيك مثلى أيهـــا الجبار أصداف ورمل
انمـــا أنت بلا ظـــل ولى فى الارض ظل
انمـــا أنت بلا عقـــل ولى يا بحر عقل
فلمـــاذا يـــا ترى أمضى وتبـــقى
لست أدرى

اننى يا بـــحر شـــاطئاه شـــاطئاكا
الغد المجهـــول والأمس اللذان اكتنفاكا
وكلانا صائر ، يا بحر ، فى هـــذا وذاكا
لا تســـلنى ما غـــد ؟ ما أمس ؟ اننى
لست أدرى

وهكذا كان البحر عند ايليا ابى ماضى موضوعا من موضوعات الفكر ،أعمال العقل والبحث فى أصل الانسان ومعرفة حقيقة الوجود،ومناقشة آراء الفلاسفة فى هذا الميدان ، وتطور من الوصف الساذج الى الوصف الجميل ، ومن الخوف والرهبة والسكينة والاطمئنان الى مجال آخر يعمل فيه الشاعر عقله ويعبر عن شعوره ووجدانه ويضفى على هذا الخضـــم الذى يجثم حيال بصره .

وجبران خليل جبران هو أحد أعلام الأدب الحديث ، وقد ابتدع لنفسه طريقة فى الكتابة اكتسب بها اعجاب قرائه ، واستطاع أن يصور بعبقريته النفاذة البحر ، وما فى البحر تصويرا أخاذا ، فهاهو ذا يصور فى حديث له حوار سمكة لأختها ، قالت السمكة لأختها :

« فوق بحرنا هذا بحر آخر وفيه مخلوقات متنوعة ، تعيش وتسبح هنالك كما نعيش هنا ونسبح » فأجابتها أختها وقالت :

« تلك أوهام ، تلك أوهام ، ألا تعلمين أيتها العزيزة أن كل مخلوق يترك بحرنا قيد قيراط واحد ويبقى خارجا عنه يموت فى الحال ؟ .. اذن فما حجتك على وجود أحياء أخرى فى بحار أخرى .. ؟»

كما استطاع جبران خليل جبران أن يدرك بحسه المرهف ،وشعوره الفياض أغنية « التنينة » التى تحرس كهوف البحار السبعة فقال :

سيأتى قرينى راكبا على الأمواج
وسيملأ الأرض رعبا بهديره العجاج
وستندلع نيران رهيبة فى أقاصى الفضاء
عند خسوف القمر سازف اليه ....

وعند كسوف الشمس سالد « جورجيوس » آخر فيذبحنى .

ولجبران قصيدة شعرية أخرى غير أغنية « التنينة » تمتلىء بالعواطف والعواصف كما يمتلىء البحر الخضم المسجور :

فى سكون الليل لما تنثنى	يقظة الانسان من خلف الحجاب
يصرخ الغاب : أنا العزم الذى	أنبته الشمس من قلب التراب
غير أن البحر يبقى ساكتا	
قائلا فى نفسه : العزم لى	
ويقول الصخر : ان الدهر قد	شادنى رمزا له يوم الحساب
غير أن البحر يبقى صامتا	
قائلا فى نفسه : الرمز لى	
ويقول الريح : ما أغربنى	فاصلا بين سديم وسما
غير أن البحر يبقى ساكتا	
قائلا فى نفسه : الريح لى	
ويقول النهر ما أعذبنى	مشربا يروى من الأرض الظما
غير أن البحر يبقى صامتا	
قائلا فى ذاته : النهر لى	
ويقول الطود : انى قائم	ما أقام النجم فى صدر الفلك
غير أن البحر يبقى هادئا	
قائلا فى نفسه : الطود لى	

ويقـــول الفكـر : انني ملك ... ليس في العــــالم غيري من ملك
غير أن البحر يبقى هاجعــــا
قـــائلا في نومه : الكـــل لى

هذا هو موقف جبران خليل جبران حيال البحر ، وهو موقف مترع بالفلسفة مملوء بالحكمة ، محوط بالعمق ، وجبران يتنقل في وصفه من صورة الى صورة ، ويرى الصراع الذى يدور بين الكائنات ولا تشـعر به الا النفوس الشاعرة ، ويصور البحر في شعره بكل مافي أعماقـه ، من الغرائب والعجائب ، والمدافق والأسرار ، وما على سطحه من الامـواج المزبدة الغضوب ، المتسارعة ، المتهادية ، والأبخرة المتصاعدة المتبددة المتساقطة ؛ ثم ينظر متأملا فيما وراء البحر فيرى الفضاء غير المتناهى بكل ما فيه من العوالم السابحة ، والكواكب اللامعة ، والشموس والأقمار .

ولم يقتصر وصف البحر على الأدب العربى فحسب ، بل شاع في كل آداب العالم ، واستمد منه الكتاب والشعراء قصصهم وقصائدهم ، وفى الأدب المصرى القديم أوصاف جميلة للبحر ، جعله الشعراء مرتعـا لحبهم ، ومجالا لقضاء أنسهم ، وانفاق لياليهم ، وما الحيـــاة في نظر المصريين القدماء الا بحر خضم رحيب رهيب ، وليس لأحـــد أن يظلم ، وسوف يحاسب كل على عمله،وسيبعث الانسان حين وصوله الى الشاطئ الآخر أو الى الحياة الأخرى ، وكل نفس بما كسبت رهين ، واستمد شعراء الفراعنة شعرهم من ماء النيل فقال شاعرهم :

« لخير لى أن أركب النيل وأندفع في تياره ، وأحج الى بيت الله في ممفيس ، وأضرع اليه أن يوفقنى الى رؤية أختى ... فاذا قدمت خفق قلبى وطوقتها بذراعى ، وشعرت بالسعادة في أعماق نفسى ، واذا دنت وفتحت ذراعيها لى شعرت كأن أزكى روائح العطور تغمرنى ... »

وحفل الأدب اليونانى القديم منذ آلاف السنين بكثير من الأساطير عن البحر ووصف سيموتديس الامورجى النساء في تقلبهن بالبحر في تقلبه فقال :

وأخرى خلقت ذات طبعين
فيوما تراها مشرقة ضاحكة
ان رآها في دارها غريب لم يدخر ثناء
قائلا ليس على وجه الأرض مثلها ظرفا وسناء
وربما تعبس فلا تقوى على الدنو منها والتطلع اليها !

ونظم ثيوقريطس كثيرا من شعره في وصف البحر وفى الصيادين وهم يرمون شباكهم في البحر ، ويخرجون من اكواخهم فىالصباح الباكر من أجل هذا الغرض ، ونظم غير ثيوقريطس من شعراء الاغريق القصائد في وصف البحر ، وغرائبه ، وحاطوه بكثير من أدب الميثولوجيا الخلاب .

ولا أحب أن أختم هذا البحث دون أن أنوه بمنزلة البحر في الادب

الانجليزى : فانجلترا جزيرة كبيرة فى البحـــر ، وأهلها قوم يركبون البحار ، ويعتمدون في اقتصادهم على ما تأتى اليهم من خيرات تجلبها من الخارج ، ولذلك وجدنا أغلب شعرائهم يتأثرون بالبحر فى شـــعرهم ، فوجدت قصص « روبنسون كروزو » ورحلات جوليفر وغيرهما،والشاعر الرومانى بيرس شلى يركب البحر ، ويطوف بشتى البلاد ، ويصف جمال البحر ، وسحره ، ولا يزال حبه للبحر يغريه بالجولان حتى مات غريقا فى ايطاليا عام ١٨٢٢ وهو فى الثلاثين من عمـره ، والشـاعر الليريكى « وتنسون » يعجب بالبحر اعجابا شديدا ويسوق اليه احدى روائعه :

واصخب أيها البحر على الصخور الشهباء الباردة
فليت للسانى قدرة على النطق بالافكار التى تجيش فى نفسى
جميل أنت للغلام الذى يلتمس الصيد أو يلهو مع شقيقه
والغلام الملاح الذى يشدو فى زورقه على الخليج
وللسفن الضخمة التى تشق الماء الى مراسيها تحت التل

والشاعر الرومانتيكى الحالم « لورد بيرون » الذى اذكى الحركة الرومانتيكية فى الأدب فألف «مانفرد» و «الكافر» و «عروس أبيدوس» و « القرصان » و « تشايلد هارولد » وغيرها من الروائع ـ لم يقف جامد الحس أمام البحر ، بل ناجاه بقوله :

انى لأستمتع بالغابات الكثيفة الألفاف المنسدة المسالك
وانى لأنعم على شاطىء خلا من الخلائق
وهناك أجد سامرا يؤنسنى حيث لا يعكر على الحياة انسان
هنالك الى جوار البحر الخضم الذى يزأر بالحان من الموسيقى
ليس هذا انتقاصا لحبى للانسان ، ولكنه ازدياد فى حبى للطبيعة
وانى لأحبك يا بحر اذ كانت سعادتى
فى ميعة الصبا تحملنى فوق صدرك
فأطوف كأنى من حبابك الطافى على الثبج

وهكذا يمضى « لورد بيرون » فى قطعته الخالدة مخاطبا البحر هذا الخطاب الجميـــل مستعرضا صورا من الطفولة البريئة والعبث المرح البهيج ، فوق الماء حتى اذا ماتغير البحر ، واشتد الموج ، وارتفع الأذى ، غدا مصدر رعب ، ومبعث ذعر ، الا أنه رعب رهيب وذعر حبيب فى نظر بيرون لا يخلو من مواطن للجمال ، للسحر الشهى الحلال .

ويستعرض بيرون فى قصيدته الخالدة ، مانشا حول البحر من مدنيات عريقة ، وأمجاد عظيمة ، وما نشب حول البحر من عراك شديد،

وقتال مستمر عنيف ، ويعرج على « الارمادا » ويسرد غنائم الطرف الأغر وغيرها من المعارك الحربية الحامية الوطيس .

هذه هي نظرات الأدباء والشعراء الى البحر على اختلاف بيئاتهم وهي نظرات تختلف معانيها من شاعر الى آخر ، وتتفــاوت بين درجات الشعور في الخوف والرعب ، أو الهدوء والاطمئنان ، والاقبال أو الاعراض ، والحب أو الكراهية وذكريات الأنس ، والشراب ، أو ذكريات الموت والهلاك وصور المدنية أو وهم الأساطير ، وهي نظرات متعددة المعاني ، ومتاهل مختلفة المصادر ، وطعوم متفاوتة الأذواق .

خليل مطران
والفريد دي موسيه

كان خليل مطران على صلة قوية بالثقافة الأوربية ولا سيما الأدب الفرنسي ، وقد ترجم كثيرا من مسرحيات شكسبير مثل عطيل وماكبث وتاجر البندقية وقيل انه ترجمها عن النسخة الفرنسية لعدم تمكنه من اللغة الانجليزية ، كما ترجم ليالى الفريد دى موسيه ورواية هرنانى Hernani لفيكتور هوجو وترجم لكورنى مسرحيات السيد Le Cid وسينا Cinna وبوليبكت Polyeucte وترجم لراسين رواية برنيس Bérenice

وقد كان شاعرنا الكبير مولعا أشد الولع بالادب الرومانتيكى ولاسيما شعر الفريد دىموسيه وفيكتورهوجو وقد نظم كثيرا من القصائد المستوحاة من أدب هذين الشاعرين ، ونظم قصيدة أطلق عليها (فيكتور هوجو) سجل فيها اعجابه بهذا الشاعر الذى ترنم بأحلام البشرية وآلامها فى أسلوب رقيق ومعنى مبتكر فريد ، كما اعجبته سيرة الشاعر الرومانتيكى الحالم الفريد دى موسيه وقصة حبه مع الكاتبة الذائعة الصيت جورج صاند وقرأ ماكان بينهما من مساجلات أدبية . مثل قصته المشهورة (اعتراف فتى من فتيان العصر) confession d'un enfant du Siècle التى مثل فيها جورج صاند فى شخصيتين مختلفتين تمام الاختلاف : أولاهما شخصية العشيقة الخائنة المتقلبة ، والاخرى شخصية الصديقة الطاهرة الذيل الأمينة على العهد .

كما قرأ قصة جورج صاند التى ردت بها على اعترافاته ، واطلقت عليها « هى وهو » Elle et lui ثم دخل بول دى موسيه شقيق الفريد شخصا ثالثا فى هذا الخصام فكتب قصة ثالثة بعنوان « هو وهى » .

لا شك أن «مطران» قرأ هذه المساجلات جميعا كما قرأ ليلة مايو وليلة اكتوبر وليلة ديسمبر وخطابا الى لامارتين والى أخى بمناسبة عودته من ايطاليا وكل هذه قصائد من أجمل الشعر الفرنسى نظمها موسيه فى حبه كما كتب أقصوصة الشحرور الابيض نثرا :

لاشك ان مطران تأثر بهذا كله حتى قال فى احدى قصائده عن الفريد دى موسيه مصورا حياته المتلظة وحبه العنيف :

عاش هـذا الفتى محبا شقيا	وقضى نحبه محبـا شقيا
وبكى دمع عينه فى سطور	جعلتـه على المدى مبكيـا
منشـد للغرام لم يشد الا	كان انشاده نواحا شجيا
شاعر كان عمره بيت تشبيب	وكأن الأنين فيه الرويا
ان فى نظمه لحسـا لطيفا	باقيـا منه على السطور خفيا

حفيظ

الفريد دى موسيه يمثل المذهب الرومانتيكى فى الشعر الفرنسى كما أن « خليل مطران » يمثل المذهب الرومانتيكى فى الشعر العربى • والرومانتيكيون ما فتئوا يهزون قلوبهم التى بين جوانحهم لانها كما يقول الفريد دى موسيه هى مصدر العبقرية •

ومادة الفن عند الرومانتيكيين العاطفة والخيال على مشاهد الطبيعة ومعالم الشعوب وعادات الماضى وينظرون الى الطبيعة على أنها كائن حى ينبض بالحياة ، فما أروع أزاهير الاقحوان وسط حقول القمح ! وما أجمل شعاع الشمس يسطع فى الماء ! ولشد ما تأخذنا الغبطة اذ نحلم ونحن مستلقون على ظهورنا فى مركب صغير ينساب مع الموج عائدا نحو الشاطىء كما يقول أميل فاجين فى دراسته الأدبية •

نجم المساء لموسيه

وقد كان دى موسيه من هذا الطراز من الشعراء • نظر الى نجم المساء وأنعم النظر وتأمل وأغرق فى التأمل ثم نظم قصيدة من أروع قصائده أطلق عليها « نجم المساء » وجاء فيها :

يا نجم المساء الباهت ويا رسول البعد الشاسع • يا من يخرج جبهته لامعة من بين أستار الغروب ، من قصرك العالى فى هذه السماء المفروشة بالنجوم ماذا تبصر أنت فى هذا السهل ؟•

ان العاصفة تنأى ؛ والهواء يهم بالهدوء ، والغابةالتى ترتجف تسقط دموعها فوق أوراق النباتات ، والفراشة المذهبة تقطع المسافات وتعبر الحقول المعطرة بخفتها •• عم تبحث أنت فوق الأرض الناعسة !

ويمضى الفريد دى موسيه فى تأملاته الرائعة وخيالاته الحالمة وصوره الجميلة مجسما النجم يتحدث اليه كأنه صاحبه وصديقه وسميره وانيسه • ويحاول أن يقف على كل خطوة من خطواته وكل حركة من حركاته فى صفحة السماء الزرقاء ... فيقول :

آه ! انى الآن قد رأيتك من فوق الجبال تطاطىء أتهرب وأنت تبتسم ؟ وابتسامتك المرتعشة تقترب من الاختفاء ايهذا النجم المنحدر فوق الهضبة الخضراء ••• انك تغمر بدموعك الفضية الحزينة معطف الليل وأنت تنظر من بعيد الى ذلك الراعى السائر على حين أن قطيعه الطويل يتبعه خطوة اثر خطوة •• أيها النجم ، الى أين أنت ذاهب فى هذا الليل الفسيح ؟ هل تبحث عند الشاطىء على سر بين الغاب ؟ الى أين أنت ذاهب أيهذا الجميل فى هذه الساعة الهادئة ؟ أتود السقوط مثل الجوهرة فى لجة الأمواه العميقة ؟

وقد كتب خليل مطران قصيدة فى الليل والكواكب أطلق عليها (مشاكاة بينى وبين النجم) وقد سجل فيها آلامه المبرحة التى يكابدها فى سبيل الحب وسأل النجم أن يعذره فى هذا الهوى وقد جاء فى هذه القصيدة :

أرى مثل سهدى فى الكوكب	أحل به مثل ماحل بى ؟
يهيم هيامى من وجده	ويهرب من مهده مهربى
اذا سرت بحرا أراه به	أنيسى على جانب المركب
وان سرت برا يجارى خطاى	ففى الشرق آنا وفى المغرب
رفيق السرى فيه جمر يذيب	وان سال كالمدمع الصيب
أسر هواك الى صاحبى	يؤاخيك فى همك المنصب
أما كل ذى كلف متعب	شريك لذى الكلف المتعب
وبى مثل مابك من شاغل	ولى مثل مالك من مأرب

وهكذا كان خليل مطران يناجى النجم كما كان دى موسيه يناجيه. موسيه تصور النجم حائرا فى السماء كأنما يبحث عن حبيب غائب . ومطران تصور النجم محبا حائرا مغرقا فى حيرته ينطلق جهة اليمين وجهة اليسار ، ولا يقر له قرار كحاله .

والمعروف فى الشعر الرومانتيكى أنه يمتاز برنة الأسى والأسف أو مايسميه الفرنسيون « مرض القرن » ويسميه الألمان (فلتشمرتز) أى الضيق بالحياة ويسميه الانجليز الملانكوليا Melancholy

وقد كتب دى‌موسيه قصيدة من أروع قصائده تسمى « حزن » Tristesse تصور هذا المذهب أصدق تصوير ، والذى يدقق البحث فى ديوان خليل مطران يجد هذه النزعة ظاهرة فى أكثر من قصيدة كقوله فى مطلع قصيدة (العزلة فى الصحراء خير من العيشة فى المدينة)

ولوا المدينة وجهكم ودعونى	أنا فى هواى وعزلتى وجنونى
عودوا الى البلد الأمين وغادروا	بلدا لبعد الناس غير أمين
تلك الحضارة لا أحب جلالها	وأرى محاسنها شباك فتون
ماذا دهانى فى اختبار أهلها	من كذب آمالى وصدق عيونى

هذه لمحات بين الفريد دى موسيه وخليل مطران وانها لمحات متعددة ممتعة نكتفى بهذا القدر منها .

القمر

فى الأدبين العربى والغربى

أطلق العرب على القمر أسماء كثيرة ، فهو تارة يسمى بالواضح وتارة يسمى بالباهر وتارة يسمى بالزمهرير ، كقوله تعالى (لايرون فيها شمسا ولا زمهريرا) ·

ومنذ فجر الشعر العربى تناول الشعراء فى شعرهم القمر بكثير من الأوصاف وكثير من التشابيه والتصاوير ، وقد أذكت البيئة الصحراوية شاعرية الشعراء ، فصحراء تمتد امتداد البصر حيث يلتقى خط الرمال الصفراء مع خط السماء الزرقاء ، وقمر ساطع يتألق فى السماء ، ويسكب أكواب النور على الأرض فى وحشة وسكون وروعة وفتون · وقد كان القمر أنيس السارى والمدلج الحائر الذى طال به السفر وأدركه الكثير من وعثاء الطريق ·

وقد ضرب العرب الأمثال بالقمر ، فقال قائلهم : أضيع من قمر الشتاء ، واذا حاولت أن تعرف لماذا كان قمر الشتاء ضائعا أدركت أن قمر الشتاء لايجلس الناس فيه لكثرة الغيوم والمطر وقال قائلهم أيضا : ان يبغ عليك قومك لايبغ عليك القمر ·

واذا حاولت أن تعرف السر فى ذلك أدركت أن القمر يرقب الناس من عليائه فى خيرهم وشرهم ، ولكنه لا يستطيع أن يعين الشرير على شره كما لا يعين الخير على خيره ، وقال قائلهم كذلك : أضوأ من القمر وأتم من البدر ، وأكبر الظن أنك لست فى حاجة الى محاولة معرفة سر هذا المثل لأن وضوحه يغنى عن كل بيان ·

وقد كانت أوصاف الشعراء الجاهليين القمر مستمدة من البيئة الجاهلية ، فهو أنيس المدلج السارى · وهو سامر السامرين ، والركب المخب فى الصحراء ، ولم تتعقد وتتطور أوصاف الشعراء الجاهليين للقمر مثل هذا التعقد والتطور الذى نجده فى الأدب الاندلسى مثلا كقول الشاعر :

وكأن الهلال نون لجين   غرقت فى صحيفة سوداء

وكقول آخر :

وقد الهلال كشطر طوق   على لبات زرقاء اللباس

وكقول عبد الله بن على الكاتب :

كشف البدر وجهه لتمام   فوجوه النجوم مستترات

وكان البدر للتمــام عــروس	وكـــان النجـــوم منتقبات

وهكذا تعددت صور الشعراء للقمر والذى نلاحظه أن نظرة الشاعر الى القمر تختلف بين فرد وآخر : فبينما نجد شاعرا يغرم برؤية الهلال ويفتن فى تصويره كابن المعتز الذى يراه كزورق من فضة أثقلته حمولة من عنبر ، نجد عبد الله الكاتب يغرم برؤية البدر الكامل ، فيعبر فى بيتين من الشعر عن منظره الخلاب وسحره الأخاذ فى نفسه .

وقد تفنن ابن المعتز فى وصف القمر كل التفنن وأحبه حبا جما مثله فى هذا الحب كالشاعر الانجليزى جون كيتس John Keats الذى اعتبره النقاد فى أوربا عاشقا للقمر لكثرة مانظم فيه من شــعر ولكنى فى الواقع أقول هذا القول فى كثير من التحفظ ، فلابن المعتز منهج خاص فى طراز الشعر ، ولكيتس منهج خاص فى أسلوب الشعر ولم يلتقيا ولا يمكن أن يلتقيا .

ومن المعانى الغريبة التى صاغها يحيى بن هذيل فى وصف القمــر هذا المعنى :

والثريا دنت من البــــدر حتى	خلتهــــا دارعــــا يدير نخبا

أما فى باب الغزل فقد تفنن الشعراء العرب فى وصف محبوباتهم بالقمر وسحره ، بل ان بعضهم لم يرقه هذا الوصف ولم يسترح الى هذا التصوير ، كأبى على تميم بن المعز صاحب مصر :

شبهتهـــا بالبدر فاستضـــحكت	وقابلت قـــولى بالنكــــر
وسفهت قولى وقـــالت متى	سمجت حتى صرت كـــالبدر
والبدر لايرنو بعـــين كمـــا	أرنو ولا يبســـم عن ثغــــر
ولا يميط المـــرط عن ناهـــد	ولا يشـــد العقـــد فى نحر
من قاس بالبدر صـــفاتى فــلا	زال أســـيرا فى يدى هجـــرى

وكقول أبى اسحاق الصابى :

مانس لا أنس ليلة الاحـــد	والبدر ضـــيفى وأمره بيـدى
قبلت منه فمـــــا حجاجته	تجمـــع بين المدام والشـــهد
كان مجـــرى ســـواكه برد	وريقــــه ذوب ذلك البـــرد

وعندى أن أبيات أبى اسحاق الصابى هذه من أروع ماكتب من الغزل ، لالبراعة الشاعر فى الاستعارة ولا لروعة الشاعر فى النظم ، ولكن لانه صور لنا تصويرا بديعا بهجته فى ليلة الاحد مثلما يصور الشــعراء المحدثون هذه البهجة على ضفاف السين أو على ضفاف التيمز أو فى بلاد العم سام .

أبيات الصابى هذه عالمية رائعة ، لولا أن بعض ألفاظها ترد الى الشعر العربى والبيئة العربية ردا سريعا كلفظ الســـواك الذى يعتز به العربى .

وشبه ابن خفاجه الأندلسي القمر بتشابيه كثيرة مستملحة وكان في بعض الأحيان يمهد لذلك تمهيدا أو يحيط الصورة بهالة من الأجواء الخاصة مثله في ذلك كمثل المصور الذي يعرف مواطن الظلال ومواضع النور ، فوصف ابن خفاجه السرى في ظلمة الليل الحالك وما يواجه ذلك السرى من رهبة في النفوس وهلع في القلوب وما يلاقيه السارى في الصحراء من حيوان مفترس وما يأنس اليه من قمر يسكب عليه نوره · اسمعه يقول :

ومفازة لا نجم في ظلمائها ... يسرى ولا فلك بها دوار
قد لفني فيها الظلام وطاف بي ... ذئب يلم مع الدجى زوار
والليل يقصر خطوه ولربما ... طالت ليالى الركب وهي قصار
قد شاب من طرف المجرة مفرق ... فيه ومن خط الهلال عذار

ومن الأوزان الرقيقة والمعاني الطريفة في الشعر الأندلسي قول ابن زيدون :

متى أبثك ما بى ... ياراحتي وعذابى
ما البدر شف سناه ... على رقيق السحاب
الا كوجهك لما ... أضاء تحت النقاب

واذا كان شعراء الأندلس قد برعوا في وصف القمر وتفننوا في عرض صوره ولوحاته كل التفنن ، فان بعض شعراء المشرق قد استخلصوا من القمر الحكمة واستمدوا منه الموعظة البالغة والرأى السديد كقول الشاعر :

المرء مثل هلال حين تبصره ... يبدو ضعيفا ضئيلا ثم يتسق
يزيد حتى اذا ما تم أعقبه ... كر الجديدين نقصا ثم ينمحق

وكقول ابى تمام الطائي :

لهفى على تلك الشواهد فيهما ... لو أخرت حتى تكون شمائلا
ان الهلال اذا رأيت نموه ... أيقنت أن سيصير بدرا كاملا

كان القمر في الادب العربي اذن ولا يزال مصدرا من مصادر الجمال ومبعثا من مباعث الروعة والفتنة في الادب · فالشعراء اما أن يستوحوا منه شاعريتهم فيصفوه وصفا جميلا ، واما أن يشبهوا به عرائس أحلامهم وملهمات قريضهم ويتلاعبوا بالمعاني تلاعبا ، ويتضاربوا بالافكار تضاربا ، واما أن يستوحوا منه الحكمة والموعظة الحسنة ، ولكن بعض الشعراء لم يكفه هذا كله ، بل لجا الى شيء يناقض هذا كله ، فهجا البدر هجاء مرا ، وقد ذكروا أن أعرابيا رأى رجلا يرقب الهلال ، فقال له :

ماترقب فيه وفيه عيوب لو كانت في الحمار لرد عليها ؟ فقال : ماهي ؟ فقال : انه يهدم العمر ، ويقرب الأجل ، ويحل الدين ، ويقرض الكتاب ، ويشحب اللون ، ويفسد اللحم ، ويفضح الطارق ، ويدل على

السارق ، ومن عيوبه ان الانسان لو نام في ضوئه حدث في بدنه نوع من الاسترخاء والكسل ، ويهيج عليه الزكام والصداع .

وقد ضمن الشاعر ابن الرومي قصيدة من قصائده هجاء للقمر فقال :

لو أراد الأديب أن يهجو البد ... ر رماه بالخطة الشنعاء
قال يابدر أنت تغدر بالسا ... رى وتزرى بزورة الحسناء
كلف في شحوب وجه يحاكي ... نكتا فوق وجنة برصاء
يعتريك المحاق ثم يخليك ... شبيه القلامة الجنجناء
ويليك النقصان في آخر الشهر ... فيمحوك من أديم السماء

لم يسلم القمر من الهجاء في الادب ، ولكن لعل هذا الهجاء تطمئن اليه نفوس كثيرة وترجع اليه أبحاث كثيرة أيضا غير أني مع هذا لااطمئن اليه ولا آنس به ، انما اطمئن وآنس الى قول الشاعر حين يقول :

وبدر دجى يمشي به غصن رطب ... دنا نوره لكن تناوله صعب
اذا مابدا أغرى به كل ناظر ... كان قلوب الناس في حبه قلب

فأيهما خير : المدح أم الهجاء ، الحب أم البغض ، المودة أم الكراهية ، بزوغ القمر أم أفول القمر ، انسكاب الضوء أم احتباس الضوء ،حسناوات يخطرن فيملأن القلب حبا وولها ، ناضرات الوجوه ساحرات العيون ، أم قبيحات يملأن القلب غماوبؤسا ويأساأم فناء مريح ليس فيه هذا ولاذاك؟! من يدرى !

أما الرافعي في العصر الحديث فقد كان له خيال طلق نحو القمر ، ووصفه أروع وصف واجلة حين قال : «القمر زاه رفاف من الحسن كأنه اغتسل وخرج من البحر أو كأنه ليس قمرا بل هو فجر طلع في أوائل الليل بخضرته السماء في مكانه ليشمر الليل . فجر لايوقظ العيون من احلامها ، ولكنه يوقظ الأرواح لأحلامها ... »

كما تصور علي محمود طه القمر عاشقا والشاعر يغار من حبه للغلالة الرقيقة نفسها .

وفي الأدب الأوربي ظفر القمر باهمية كبيرة ولا سيما عند شعراء الرومانتيكية في انجلترا وفرنسا ، فلامارتين في تأملاته التي أصدرها عام ١٨٢٠ وفي ايقاعاته التي أصدرها عام ١٨٣٠ يتغنى بضوء القمر وليالي الحب المتألقة وكذلك الحال بالنسبة الى فيكتور هوجو ، فان قصائده التي تضمنها ديوانه الضخم منذ عام ١٨٢٢ الى عام ١٨٢٦ تزخر بحب القمر والتغني بجماله .

وقد نشر هوجو أوراق الخريف عام ١٨٣١ وأناشيد الغسق عام ١٨٣٥ والأصوات الداخلية عام ١٨٣٧ والأشعة والظلمات عام ١٨٤٠ وقد مزج فيها حبه بالطبيعة ومنها القمر المتألق في كبد السماء .

فكانت الطبيعة مرتبطة كل الارتباط بقصة حبه ، وكانت تعبيراته تفصح عن هذا الحب المتأجج بين جوانحه ٠

وكان الرومانتيكيون لايصفون الطبيعة بأسلوب موضوعي ولايشبهون القمر بالغادة الحسناء أو بالوجه الصبوح على عادة الشعراء العرب وكما فعل الكلاسيكيون انما كانوا يرون القمر ومجالى الطبيعة انعكاسا لما يعترى نفوسهم من حالات ، ولذلك كانوا لايقدمون لنا منهم أو أدبهم الا من خلال ذواتهم ، فالطبيعة ثائرة مع ثورتهم وهادئة مع هدوئهم وهى عارية فى كآبتهم وناضرة فى انشراحهم ٠ وكذلك القمر تتراءى على وجهه أمارات الفرح والحزن وتضطرم فيه أحاسيس الشجن أو النشوة ٠

والرومانتيكيون كانوا يرون فى ظواهر الطبيعة المتعددة رموزا لحياة الانسان ، ولكن أعظم ما اجتذبهم فى هذه الطبيعة الجمال الخلاب الخالد بتجدده الأبدى ورأوا جمال الطبيعة جزءا من الكمال الكلى الذى يميز عالم المثل ٠

وعلى هذا النحو تأملوا القمر وتغنوا بالليالى العذاب تحت اضوائه الساحرة حتى كانت أشعارهم مجموعة من الاحلام وموكبا من الرؤى التى تلم بجفون النائمين ٠

وقد كانت قصائد دىموسيه « الليالى » من أروع القصائد التى تغنى فيها الشاعر بحب القمر وانعكست مشاعره عليه وهو يتألق فى عرشه النورانى البديع ٠

وقد كان القمر فى الأدب الانجليزى وحيا لكثير من الشعراء نذكر منهم الشاعر كيتس الذى نظم قصيدة من أروع قصائده بعنوان « كل ماهو جميل » وقد وصف فيها الجمال بأنه كنز لايفنى ومصدر لسعادة دائمة ٠ وكل يوم يمر علينا ونعم فيه بالحياة فى ظل خميلة جميلة واحلام هانئة ٠ وصحة وسلام نصنع منه رباطا من الزهر يربطنا الى الأرض برغم اليأس والحزن ٠

ومضى كيتس يصور مجالى الجمال فى الشمس والقمر والاشجار فهى تنشر ظلالها على الأرض جميلة رائعة على حين تكون الاقاصيص الحلوة التى سمعناها ينبوعا عذبا من شراب خالد ، وكذلك القمر والشعر وكل ماهو جميل يبقى معنا حتى يصبح نورا يضىء النفس مهما كانت الظلمة أو قلة الضوء من حولنا ، فهو معنا لايفترق عنا الى ساعة الموت ٠

أما الشاعر شللى فانه اعتقد أننا كالسحب التى تحجب القمر فى منتصف الليل ، فهى تسرع وتلمع وتومض فى حركة مستمرة وتضىء الظلمة من حولها ، ولكن سرعان ما يحيط بها الليل وتختفى الى الأبد ٠

وفى قصيدته الى قبره تراه يشبه صوتها الجميل الذى ينبعث منها بالكوكب الفضى الذى يذوى سراجه الوهاج كلما وضح من الفجر الضياء ، كما أن الأرض كلها والهواء تدوى بصوتها مثل القمر حين يتعرى الليل فلا تحجبه سحابة واحدة وتتدفق أشعته فتترع بها جفاف السماء .

وكان القمر فى الادب الغربى وسيلة الى الرغبة فى المعرفة واستطلاع المجهول واستكناه الغيب ، وقد ظهر هذا واضحا جليا عند لورد بيرون الرومانتيكى الظامىء الى حب المعرفة ، كما ظهر عند الاديب الشاعر الالمانى جوته الذى تحلق روحه دائما فى اجواء خياله ، متطلعا الى الظفر بأشهر متاع الدنيا وبأجمل نجوم المساء . ويريد أن ينزع حجب أسرار الطبيعة ولكن لاشىء يملأ رغباته فى هذا العالم .

واذا تطلع « فاوست » الى القمر أثار فى نفسه مشاعر شتى وخواطر كثيرة ، وتمنى أن يفتق حجب الغيب للتعرف على المجهول من الأمر والمغيب من الاحداث فيقول :

أيها الكوكب ذا الضوء الفضى ، أيها القمر الصامت ! طالما سهرت الليل على مقربة من هذه المنضدة ، وطالما تجليت لى وقت ذاك ، أيها الصديق الحزين ، فوق اكوام الكتب والاوراق ، آه لو أستطيع أن أتسلق على ضوئك الوديع شامخ الجبال وان اضرب فى الكهوف مع الارواح وان أحلق فوق المروج تحت فيض نورك الباهت ناسيا كل مافى العالم من ابتاس .

وهكذا كان القمر وحيا لفاوست فى الادب الالمانى ، وبابا يفتح عن عالم بعيد كله غموض وابهام وكله تساؤل واستفهام !

الموت

فى الأدبين العربى والغربى

لما يمت الأدب العربي ، وهيهات له ان يموت ، بل انه يتقدم شيئا فشيئا نحو الحياة والحياة النشيطة الموفورة ، انما أريد أن ابحث فى هذا الفصل ، كيف تناول الشعراء الموت ، وكيف وقفوا حيال هذه الظاهرة الطبيعية التى لابد ان تدرك كل حى .

ليس من شك فى ان شعراء العرب قد استمدوا جل أفكارهم من الديانات المختلفة السائدة فى جزيرتهم وفى الأقاليم المتاخمة لها ، وان من يتصفح الشعر الجاهلى يجد لبعض الشعراء خواطر فى الحياة وخطرات فى الموت ، ولكنها لا تتبع نظرية من النظريات ، ولا تسير وفق فلسفة من الفلسفات ، بيد انها برغم هذا كله تضم كثيرا من الحكمة وفيها كثير من الصواب كقول عدى بن زيد من شعراء الجاهلية :

ان أهل الديار من قوم نوح ... ثم عاد من بعدهم وثمود
بينما هم على الأسرة والانماط ... أفضت الى التراب الخدود
ثم لم ينقض الحديث ولكن ... بعد ذا ــ الوعد كله والوعيد
وأطباء بعدهم لحقوهم ... ضل عنهم صديقهم واللدود
وصحيح اضحى يعود مريضا ... وهو أدنى للموت ممن يعود

ومن امثلة العصر الجاهلى كذلك ما قاله عبدة الصفار عن أمية بن ابى الصلت الشاعر الجاهلى الذى قال عنه الرسول الكريم : آمن شعره وكفر قلبه . فقد ذكر ان أمية بن ابى الصلت أغمى عليه طويلا عند وفاته ، ثم أفاق ورفع راسه الى سقف البيت وقال : لبيكما لبيكما ، هاأنذا لديكما ، لا عشيرتى تحمينى ، ولا مالى يفدينى ، ثم اغمى عليه طويلا وقال :

كل عيش وان تطاول دهرا ... صائر مرة الى ان يزولا
ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى ... فى رءوس الجبال أرعى الوعولا

ولما جاء الدين الاسلامى تناول كتابه العزيز الموت بين ثناياه ، فقال عز وجل: «اينما تكونوا يدرككم الموت ولوكنتم فى بروج مشيدة»(١) وقال تعالى : « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام»(٢) وقال ايضا : « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا » (٣) .

---

(١) سورة النساء (٧٧) (٢) سورة الرحمن (٢٦ ، ٢٧) (٣) سورة الملك (٢)

وقد جاء فى التوراة كثير من الآيات التى تدعو الى الزهد وذم الدنيا واستحقار الحياة .

وقد تناول الشعراء الاسلاميون الموت فى شعرهم وذموا الدنيا ، وطلبوا التهجد والتعبد والورع والتقى وتصوف نفر من المسلمين ، ونظروا الى الحياة نظرة استخفاف واستهجان كما ظهر نفر من الشعراء الزهاد كأبى العتاهية . ولعل هذا النفر من القوم تمثل بقول عبد الله بن مسعود (الدنيا كلها غموم ، فما كان منها سرورا فهو ربح) وقد تناول شاعر عربى الحياة والموت فى بيتين فقال :

نراع لذكر الموت ساعة ذكره	وتعترض الدنيا فنلهو ونلعب
ونحن بنى الدنيا خلقنا لغيرها	وماكنت منه فهو منى محبب

وقيل ان محمد بن كعب دخل على عمر بن عبد العزيز فحدق النظر اليه فقال له عمر : ما تنظر يا محمد ؟ قال : أنظر الى ما ابيض من شعرك ونحل من جسمك وتغير من لونك . فقال : اما والله لو رايتنى فى القبر ، وقد سالت حدقتاى على وجنتى وسال منخراى صديدا ودودا لكنت اشد نكرا .

وعند ما تناول ابو العلاء المعرى الموت فى شعره كانت له نظرة خاصة فيه ، فهو يعتقد ان الحياة لون من السخف الذى لا طائل تحته ، ويعتقد أن كل ذى روح ينبغى أن يعيش ، فحرم على نفسه أكل كل ذى روح . وقد ضم ديوانه « لزوم ما لا يلزم » كثيرا من آرائه فى الحياة ، فما الدنيا فى نظره الا ميتة وما الناس حواليها الا كلاب نوابح ، غير أن الخاسر من يأكل منها كثيرا ، والكاسب من لا يأكل منها شيئا ، والدنيا دار لا ينبغى للعقلاء ان يبكوا على غيابها . فما الظافرون بعزها ويسارها الا قريبو الحال من خيابها ، فقال ابو العلاء :

ان حزنا فى ساعة الموت اضعا	ف سرور فى ساعة الميلاد
خلق الناس للبقاء فضلت	أمة يحسبونهم للنفاد
انما ينقلون من دار اعما	ل الى دار شقوة أو رشاد
ضجعة الموت رقدة يستريح الـ	جسم فيها والعيش مثل السهاد

واذا مات الانسان لم يحفل بجسمه ابو العلاء ولم يرض تكريمه ، بل يرى أن يوارى فى التراب أو يفعل به اى شىء ، فانه لا يحس ولايتألم ، وقد ضمن هذا المعنى فى قوله :

تكرم أوصال الفتى بعد موته	وهن اذا طال الزمان هباء

وقد ذكر الدكتور طه حسين فى كتابه تجديد ذكرى ابى العلاء هذه الملاحظة كما اضاف اليها ان ابا العلاء استحسن غير مرة تحريق الهند موتاهم فقال :

والنار اطيب من كافور ميتنا	غبا واذهب للنكراء والريح

وهكذا زخر الأدب العربى بشعر الموت وكثر الرثاء فى الشعر ، وقد

قيل : ان الرثاء اجود شعر العرب لانه اصـــدق عاطفة ولانهم يقولونه ونفوسهم مفجوعة .

وقد ذكر ابن رشيق فى كتاب (العمدة) ص ١١ انه ليس هنالك فرق بين الرثاء والمدح الا ان يخلط بالرثاء شىء يدل على أن المقصود به الميت ، مثل كان أو عدمنا به كيت وكيت او مايشاكل هذا ليعلم انه ميت .

وسبيل الرثاء ان يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام ان كان الميت ملكا او رئيسا كبيرا كما قال النابغة فى حصن بن حذيفة :

يقولون حصن ثم تأبى نفوســهم	وكيف بحصن والجبــال جنوح
ولم تلفظ الموتى القبور ولم تزل	نجوم السماء والأديم صـحيح !

وابو تمام من المجيدين فى الرثاء ومثله عبـد الســلام بن رغبان المعروف بديك الجن ، وهو اشـد فى هـــذا من حبيب وله فيه طريق انفرد به .

ومن عادة القدماء ان يضربوا الأمثال فى المراثى بالملوك الاعزة والأمم السالفة والوعول الممتنعة فى قلل الجبال والأسود الخادرة فى الغيــاض وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار والنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول اعمارها ، وذلك فى أشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلو منه شعر .

اما المحدثون فهم الى غير هذه الطريقة اميل ، وربما اتوا بالجديد الى جانب اخذهم بالتقليد ، ومن أفضل الرثاء فى نظر ابن رشيق قول حسين بن مطير يرثى معن بن زائدة :

فيا قبــر معن كنت اول حفـرة	من الارض خطت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده	وقد كان منه البر والبحر مترعا
فتى عيش فى معروفه بعد موته	كما كان بعد السيل مجراه مترعا

هذا وقد مزج كثير من الشـــعراء الحب بالموت على النحو الذى يفعله شعراء الفرنجة حيث تزخر بعض دواوينهم بهـــذا الموضوع كفن مستقل قائم بذاته ، ومن هذا الضرب فى ادب « البــالاد » الانجليزى قصيدة الشاعر بوليوس ميكل المسماة « قاعة كمنر » التى يصور فيها علاقة أيمى روزيبات بالشريف لستر وكيف أنه آثر الملكة اليزابيث عليها بدافع من الطموح فى المجد والرغبة فى السيادة وكيف تمثل الموت حياله بعد ذلك .

وكان ممن تناول الحب والموت فى الادب العربى الشاعر الغـزلى جميل بثينة الذى قال فى احدى قصائده :

اعوذ بك اللهم أن تشحط النوى	ببثنة فى ادنى حياتى ولا حشرى
وجاور اذا ما مت بينى وبينها	فيا حبذا موتى اذا جاورت قبرى
عدمتك من حب اما منك راحة	وما بك عنى من توان ولافتـــر

كما تناول جميل بثينة الحب والموت فى ابيات أخرى :

من حبهـــا اتمنى ان يلاقينى	من نحو بلدتها ناع فينعـــاها
كيما اقول فـــراق لا لقـــاء له	وتضمر النفس يأسا ثم تسلاها
ولو تموت لراعتنى وقلت الا	يا بؤس للموت ليت الموت ابقاها

وقال ابن رشيق : ومن جيد ما رثى به النساء واشـــجاه واشده تأثيرا فى القلب واثارة للحزن قول محمد بن عبد الملك الزيات فى ام ولده:

الا من راى الطفل المفـــارق امه	بعيد الـكرى عينـــاه تبتدران
راى كل ام وابنهـــا غـــير امه	يبيتان تحت الليل ينتجيـــان
وبات وحيـــدا فى الفراش تحثه	بلابل قلب دائم الخفقـــان

هذا وقد ذكر صاحب العقد الفريد انه كان لمعلى الطائى جارية يقال لها (وصف) د وكانت اديبة شاعرة باعها المعلى فى مصر بأربعة آلاف دينار ، ودخل عليها فقالت له : بعتنى يا معـــلى ؟ قال نعم ، قالت : والله لو ملكت منك مثل ما تملك منى ما بعتك بالدنيـــا وما فيها ، فرد الدنانير واستقال صاحبه ، ثم أصيب بها بعد ثمانية أيام ، فرثاها انجع رثاء وبكاها أشد بكاء :

يا موت كيف سلبتنى « وصفا »	قدمتهـــا وتركتنى خلفـــا
هلا ذهبت بنـــا معـــا فلقد	ظفرت يداك فسمتنى خسفـــا

وهكذا تناول الشعراء الموت فى الادب العربى ، وكان ذكرهم للموت مستمدا من الدين الاسلامى حيث جاء فى الحديث المرفوع (الموت راحة) كما قال بعض السلف : ما من مؤمن الا والموت خير له من الحياة ، لانه ان كان محسنا فالله يقول : « ما عند الله خير للأبرار » وان كان سيئا فانه تعالى يقول : « ولا يحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خير لانفسهم ، انما نملى لهم ليزدادوا اثما »

غير أن هناك شعراء قلائل عـــرفوا بمذهب خاص فى الموت كابى العلاء المعرى

ويعد شعر الرثاء فى الأدب العربى من أهم الأبواب التى ذكرهـــا المصنفون والنقاد كابى تمام فى ديوان الحماسة ، وقد مزج بعض الشعراء الحب بالموت على النحو الذى يلجأ اليه شعراء الفرنجة ، فكان هذا اللون من أحب الوان الشعر الى النفوس واوقع الوان الشعر فى القلوب .

أما الموت فى الأدب الغربى فكان مثارا لفلسفة المتفلســـفين وحيرة الشعراء ، وقد صور الشاعر الانجليزى وليم ترنر تحلل الروح البشرية

على صخر الحياة الحديثة المقفر ، يسقط فوق الحس ، فيبلى كما يبلى الجو بفعل الماء . فقال فى قصيدة بعنوان « كما يتآكل الصخر » :

كالصخر تتآكل روح الانسان
تتآكل وتتفتت مع الزمن
الحس يسقط على سطح بال
جرس بعد جرس
كقطرات الندى تتمتم
او قطرات المطر ترسم
او الريح تهب وتصفر
فى كل طريق او منعرج
ناعمة كالاحجار قائمة
بالية بفعل المـــاء
او بلاها الليل وابلاها النهار
وحيدة مهجورة
كالصخر تتآكل روح الانسان
تتآكل وتتفتت مع الزمن
دون أن يسمع لتآكلها صوت
اعلى من صوت المطر
يتساقط على النهر
جرس بعد جرس
تذبل وتنطوى كما
يذبل الزهـــر

اما الشاعر توماس ستيرن اليوت فقد كان له حيال الموت موقف عجيب ، وكان يعتقد أن الحياة الجديدة قد جرت على الدنيا الشقاء كما ان الآلة الجديدة لم تخلف للناس الا البـــلاء ، وقد ثار فى وجه الآلة ، وفى وجه تيار المدنية الجبار حتى انه وصل الى حد التصوف فى الايمان بالروح والنفور من الآلة

وكان اليوت يحن الى يوم صلاحه وتحطيم بيت الصلصال الذى يؤويه ، وكان يقول : « بين التصور والخلق يسقط الظل بين القلب ، والقلب يسقط الظل ما اطول الحياة » كما كان يقول : « قلت لروحى اهدئى يا روح ، فالأمل الذى تاملين أمل الباطل ، وقلت لروحى اهدئى يا روح فالحب الذى تحملين حب للباطل ، لم يبق الا الايمان ياروحى ، ولكن الأمل والحب والايمان كلها فى الانتظار » .

وتعد قصيدة : ت.س.اليوت ، « الرجال الجوف » من اروع

قصائده وتشيع فيها الحسرة ، وينطق بين سطورها الألم ، وتغشيها سحابة قاتمة من الأحزان ، وغائمة داكنة من الأشجان .

وقال فيها : « نحن الرجال الجوف بالقش حشينا ، وبالقش حشيت رءوسنا يتوكا بعضنا على البعض الآخر ، فوا أسفاه كلما همسنا خرجت أصواتنا الجافة هادئة خالية من كل معنى كأنها صوت الريح على الحشائش اليابسة او دبيب اقدام الجرذان وهى تمشى على الزجاج المكسور فى مخابىء الخمر ببيوتنا .

أما أولئك الذين انتقلوا الى مملكة الموت الأخرى بلا تردد فلا يذكروننا ، فان ذكرونا لم يذكروا اننا ارواح هاجعة ضائعة بل ذكروا اننا الرجال الجوف .

نحن اشكال بلا قوالب ـ نحن ظلال بلا ألوان ـ نحن قوى مشلولة ـ نحن اشارات بلا حركة .

تلك العيون التى لا اجسر على مواجهتها فى احلامى لا تظهر فى مملكة الموت ، مملكة الأحلام ، فالعيون هنالك شعاع من الشمس ، يشرق على عمود محطم .

وهناك شجرة تتأرجح وأصوات تسمع ـ فى غناء الريح ـ بعيدة رهيبة أشد بعدا ورهبة من نجم يخبو » .

أما الشاعر الامريكى هنرى وارزورث لونجفلو ١٧٨٠ ـ ١٨٨٢ م فانه كان صاحب نزعة دينية واضحة فى شعره ، وكان أبرز حادثة فى حياته كلها موت زوجته الثانية محروقة بعد ان ماتت زوجته الأولى ابان رحلته الثانية الى أوربا ، وقد تجلى فى شعره الايمان بأدق معانى هذه الكلمة ، وكانت له فلسفة خاصة فى الموت تتراءى بين سطور أبياته :

> ليس هناك موت وما يعد موتا ان هو الا انتقال
> هذه الحياة المعدودة الأنفاس
> ان هى الا ضاحية من حياة الخلود
> التى اطلقنا على مدخلها اسم « الموت »

وقد قال الشاعر الأمريكى ادجار الن بو : « لا ريب أن موت امرأة جميلة خير موضوع شعرى فى العالم » لأنه كان يعتقد ان الجمال والموت نقيضان ، وان الشعر لابد ان يكون مليئا بالحسرة مترعا بالشجو والشجن حتى يصل الى شغاف القلوب وهو يشتاق الى الموت لانه باب الى عالم الكمال والجمال ، وفى قصيدة رائعة من قصائده بعنوان « الى واحدة فى الفردوس » يتحدث عن الحبيبة التى عدت عليها المنون وكشر لها الموت عن أنيابه :

« اما انا واحسرتاه ! واحسرتاه !
فقد خبا منى ضوء الحياة
ابدا ابدا .... لن
لن تورق الشجرة التى حطمتها الصاعقة .
ولن يحوم النسر المهيض الجناح
ومثل هذا القول يربط البحر
الوقور الى رمال الشاطىء
كل ايامى غيبوبة اثر غيبوبة
وكل احلامى فى الليل تسير
الى حيث تلمح عينك السوداء
وحيث تلمح خطواتك
فى كل رقصة اثيرية
وعند كل ساقية خالدة !

وقد كانت هذه النزعة التشاؤمية مظهرا من مظاهر الأدب الرومانتيكى فى اوربا ، وبرزت فى شعر الفريد دى موسيه والفريد دى فينى وفيكتور هوجو فى فرنسا كما تجلت فى شعر بيرون وكيتس وشللى فى انجلترا .

فكتب لامارتين فى قصيدة « الشاعر يموت » يقول :

تحطمت كأس أيامى ومازالت مترعة
وهذى حياتى تهرب فى تنهدات طويلة مع كل نهمة
لا الدمع يستطيع أن يوقفها ولا الندم
وجناح الموت يقرع الناقوس الذى يبكينى
ويعلن بضربات متقطعة ساعتى الأخيرة
هل يجب النحيب او يجب الفناء ؟

أما كيتس ففى قصيدة « الى البلبل » تتسلل الرغبة الى الموت وهو ينصت الى صوت البلبل وهو ينطلق فى الفضاء العريض ويتمنى أن يغنى فى أصدائه النشوى الرخيمة فيقول :

فى الظلام انصت وكثيرا ماكنت
كنت نصف هائم بالموج المريح
ادعوه بأسماء لطيفة فى أشعار تأملية
كى يأخذ الى الهواء نفسى الهادى
واكثر من اى وقت مضى يبدو لى ان من الممتع ان اموت
واننى فى منتصف الليل بلا الم
على حين تصب أنت روحك صبا من الخارج
تمثل هذا الجذل النشوان

وستظل تغرد بلا جدوى وقد فقدت أذناى السمع
وغدتا قبرا لأنشودتك الجنائزية المرتفعة .

وهكذا تصور جون كيتس الموت فى الصوت الحلو الرخيم الذى ينساب فى مسمعه رفيقا رقيقا لأنه كان يشعر بالحيرة والألم ويحس بالشجو والشجن ، فانعكست هــذه المشاعر الساخطة على الدنيـا ، الساخرة من الدنيا وزينتها وزخرفها ، على هذا الصــــوت الجميل المنطلق .

وهكذا كان شعور الرومانتيكيين جميعـا ـ يرجعون الى ذواتهم ويعكسون ـ عواطفهم واحاسيسهم على صور الطبيعة المختلفة .

وفى قصيدة شللى « عند ما ينكسر المصباح نلمس هذه الظاهرة نفسها ظاهرة انعكاس الشاعر على صور الطبيعة ومجاليها .

بل ان أوراق الورد عند ما تذوى وتتصوح وتلفظ الوردة أنفاسها الاخيرة تجمع فراشــــا للحبيب فى نظر شللى ، وكذلك أفكار الحبيبة بعد ذهابها يتخذ الحب منها مهدا وفراشا .

لغة زهور
بين الشرق والغرب

ان اجمل هدية يمكن أن تهـــدى الى الحبيب فتثلج قلبه وتشرح صدره ، وتجعل حياته باسمة ضاحكة ـ باقة الزهر ، وباقة الزهر تجمع الوانا مختلفة من الزهور : ففيها الورد والياسمين ، وفيها البنفسج والآس ، وفيها الزنبق والاقحوان ، وفيها النوار والريحان ، وفيها الفل والنرجس ، وغير ذلك من الزهور التى تشرح الصدر وتفرح القلب ، وتبهج النفس .

وقد فطن الأدباء منـذ العصور الأدبيـة الأولى الى لغـة الزهور فقالوا : ان البنفسج معناه « افديك بنفسى » وان الورد الأحمر معنـاه الحب ، وان الزنبق الابيض معناه الصفاء ، وأن الاقحوان الاصفر معناه الغيرة وما الى ذلك من معان ابتدعها خيال الشعراء ، وتعلق بها المحبون على مر الايام .

والأزهار نفحة من نفحات الاله عز وجل الذى ابدع خلقه ، واحكم صنعه وكل زهرة من الأزهار تحمل معنى رقيقا ، وهدفا رفيعا ، وآية ناطقة على قدرته وجماله ، فالله جميل يحب الجمال .

وفى هذا يقول الشاعر خليل مطران الذى اغرم غراما شـديدا بالزهر حتى يمكن ان نعتبره شاعر الزهر فضلا عن انه شاعر القطـرين بل الأقطار العربية :

يارب اعظـم بمـا وضـعتا
فى الكون من آيك العظـام

ادق شىء ممـا صـنعتا
كجملة الخلـق بالتمـام

نثرت نثرا فجـاء نظمـا
بديعـة جليـة البيـان

وكـل بيت به استتما
قصـيدة تخلب الجنـان

لكن فى صـنعك الجليـل
أحب شىء لنـا الزهـر

خلقتـــه بهجـــة العقـــول
ومرتع التخـــيل والفـــكر

نكاد من خلقـــه الجميـــل
نســـتجمع النفس فى البصر

وبعض الناس يحب ان يهدى الى احبابه باقة من الورد ، والورد دليل على الحب والخجل لأنه يجمع طابع الحب المشتعل والغرام المتقد حينا كما يحمل حياء العذارى الذى يضرج بحمرته وجناتهن . والورد امير بين الزهور (على حد تعبير الخليل) :

طوائف هـــذه الأزاهر وكل حـــزب له امير
مليكهـــا الورد لم يكابر منـــاظر فيـــه او نظير
تقلد التاج من جواهر وقام للحكم على السرير

اما الفل فآية على نقاء النفس وصفاء الطوية ، وكذلك الزنبـــق الأبيض الذى يكلل هامات الرياض والربى ، ويحلو لكثير من الفتيـــات ان يصنعن من الفل عقدا نضيدا ، يحلين به صدورهن أو تاجا نظيما يزين به رءوســهن ، وما اجمل هـــذه الأبيات التى نظمها الشـــاعر فى وصف حسناء زانت راسها بطاقة من الفل الأبيض الناصع :

زانت الراس بفـــل هـــو بالراس تحلـــى
ما رات قبـــلك عينى وردة تحمـــل فـــلا

والنرجس انما هو ابتسامة الفجر ، بعد هبوط الظلام ، وتحقق الرجاء بعد انقطاع الأمل وهو اشبه شىء بالروح المقبـــل من الملأ الأعلى فى ثوب الملائكة الأطهار لا فى ثوب البشر الذين يعيشون على الارض :

انما النرجس ابتســـامة فجر
الطفت نســـجها يد الرحمن

قام فى كلة البيـــاض فكانت
ثوب روح لا ثوب جسم فانى

زنبق ناصـــع البياض نقى
ترتوى من بياضـــه العينان

وجفـــون من نرجس داخلتها
صفرة الداء فى محاجر عانى

وورود كأنهـــا ملـــكات
برزت فى غـــلائل الأرجوان

وأفانين من شقيق ومن فل «م»
ومن مضـــعف ومن ريحـــان

والنرجس له قلب أصفر اللون كالذهب النضار ، وحوله غلائل مشرقة ناصعة البياض ، ومن هنا كان وحيا والهاما للشعراء ، فقلبه أشبه ما يكون بالذهب ، وغلائله اشبه ما تكون بالأنامل او الأصابع البيضاء ، وفي ذلك يقول الشاعر :

كأنما نرجسنا وقد تبدى من كثب
انامل من فضة يحملن كاسا من ذهب

وما احلى النرجس وقد بلله الندى فبدا كأنه يسكب الدموع مع أن وجهه مشرق وثغره باسم تتلألأ عليه الابتسامة ، ويشرق منه النور فقال ابن الرومي :

ونرجس كالثغور مبتسم
له دموع المحدق الشاكي

ابكاه قطر الندى واضحكه
فهو من القطر ضاحك باكي !

واغلب الشعراء يشبهون العيون الجميلة الواسعة بزهر النرجس لما يشع منها من بريق ساحر وسحر أخاذ :

واحسن ما في الوجوه العيون
واشبه شيء بها النرجس

أما شقائق النعمان فهي أشبه بالورود الحمراء في لونها وسحرها وجاذبيتها ، وهي تبدو وسط المروج الخضراء تبهر العين وتسحر القلب ، ولا سيما عند ما تميل في يد الريح ذات اليمين وذات الشمال ، وقد وصفها شاعر فقال : (القاضي عياض) :

انظر الى الزرع وخاماته
تحكي وقد مالت أمام الرياح

كتيبة خضراء مهزومة
شقائق النعمان فيها جراح

أما البنفسج فقد شبهه بعض الشعراء بزرقة اليواقيت او بالكحل في ألحاظ الملاح المراض الصحاح ، الفاترات الفاتنات ، المحييات القاتلات أو كالمحب المهجور ينطوي على قلب مسجور على حد تعبير ابي العلاء السندي في رسالته عن البنفسج .

ومن الطف الأوصاف التي اطلقها الشعراء على زهر البنفسج انه يبدو كأثر القرص في خدود العذارى وفي هذا يقول الشاعر ابن الرومي أو الحسن الشاطبي :

اشرب على زهر البنفسج قبل تأنيب الحسود
فكأنما أوراقه آثار قرص في الخدود

كما قال شاعر آخر : (ابو هلال العسكرى) :

وبحافاتها البنفسج يحكى   اثر القرص فى خدود العذارى

اما الياسمين فيبدو فى تجمعه وبياضه كانه اكليل العروس ، يحمل معنى السعادة والهناء والخير والرخاء ، غير انه فى نظر بعض الشعراء كالأنامل البيضاء والعجيب انها انامل من غير اكف :

وروضة نورها يرف   مثل عروس اذا تزف
كانما الياسمين فيها   انامل ما لها اكف

اما السوسن فيحمل عند الشعراء طابع الزهو والاعتداد ، وهو عندهم اشبه باذناب الطواويس حينا أو بملاعق من ذهب حينا آخر او نحو ذلك غير انه يحمل فى جميع الأحوال بشير الربيع الطلق الضاحك:

ان كان وجه الربيع مبتسما
فالسوسن اعجبتنى ثناياه

يا حسنه ضاحكا له عبق
كطيب ريح الحبيب رياه

وقال شاعر آخر :

انظر الى السوسن فى منبته
فانه نبت عجيب المنظر

كأنه ملاعق من ذهب
قد خط فيها نقط من عنبر

وهذه هى بعض انواع الزهور فى نظر اصحاب الشعر وارباب الخيال فتبارك الله خالق الاشجار والازهار ومبدع الليل والنهار .

وما اجمل هذه الباقة حينما تحملها الى هؤلاء الذين الم بهم الداء لتكون بشير برء وشفاء ، فانما الازهار لا تعيش الا للخير ولا تحيا الا من اجل التضحية والفداء :

انما الزهرة خلق عجيب
فطرة سمحاء تسمو الفطرا
خلقت للخير خلقا صافيا
جاوز الضيم وفاق الغيرا
شانها تضحية النفس ولا
شىء غير النفع تبغى وطرا

وهذه الأزهار تكون فى مجموعها طاقة ناضرة ، وطاقات الزهر هدايا المحبين الى احبابهم حول الأسرة البيضاء ، وفوق كل طاقة بطاقة تحمل اسم مرسلها وهى تعبر عن شعوره واحساسه ولكنها فى الوقت نفسه رمز لا اكثر ولا اقل لما فى نفسه من طاقة حب واعزاز ، وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

لـــو ان ما تتمنى يكون منـــا بطـاقة !
اهـديت جنـــة ورد وما رضـيت بطاقة !
لـكننى مــن دمائى نظمت هذى البطاقة !

اما فى الغرب فان الزهور كذلك دليل على الحب ، وآية على الهيام ووسيلة الى التهادى بين المحبين ، وكانت الازهار على اختلاف انواعها وتباين الوانها تحمل مشاعر خاصة للشعراء ولا سيما الشعراء الوالهين المتدلهين !

ولقد تولدت فى الادب القديم قصص كثيرة تدور حول هذه الأزهار منهـا أسطور الصـدى والنرجس Echo and Narcissues وخلاصتها ان « أكو » عروس الجبـال كانت باهرة الجمال ، وكانت تسرف فى الحديث عن نفسهـا اسرافا ممـا أدى الى أن الالهة ديانا حرمتها النطق اللهم الا الرجع الاخير من الكلمات وشاء القدر ان تقع « اكو » فى غـرام شاب جميـل يدعى نارسيس وهو النرجس ، وهمت بمغازلته الا انها عجزت عن ذلك فاوت الى الصخور حزينة اسيفة .

وشـاء الظـروف ان تنتقم من نارسيس ، فرأى يوما صـورته معكوسة على الماء فاحبها بعدما رفض ان يحب اكو فى وضعها المزدرى ، ولكن لا سبيل الى ضم الحبيب فاعتزل فى حـزنه حتى مات ، فأرادت العرائس أن توارى جسده فى قبر من القبور يليق به ، ولكنها لم تجد من جسـده الا زهرة تحمل اسمه وهى زهرة النرجس ، ولعلهـا رمز الى زهرة النرجس التى تنمو على حافة المياه وضفاف الغدران .

كما ظهرت فى الأدب الفرنسى فى القرون الوسطى قصة الوردة من القرن الثالث عشر وكتب الجزء الثانى من القصة جان دى مونج بعـد ذلك بنصف قرن تقريبا ، ثم اتى بعد ذلك جوفرى تشوسر فى القـرن الرابع عشر ، فترجم قصة الوردة من اصلها الفرنسى الى الانجليزية .

وتدور هذه القصة حول مغامرة طافت بجفن وسنان فرأى فى بئر بلورية منظر الروض الزاخر بالحسن ، ووجد فى قاع البئر شجرة ورد وارفة الاغصـان تتوجها وردة كبـيرة متفتحة الاكمام رشق بسـحرها بخمسة من سهام الحب فى وقت واحد .

ولم تكن الأسـاطير هى كل ما يميز الادب الغربى حـول الازهار والورود ، انما كانت اداة من ادوات الخيال والجمال فى العصر الرومانتيكى وكانت البسـاتين مرتعا لخيال الرومانتيكيين .

وكان الشـاعر وليم وردزورث شـاعر الطبيعة المرموق فى الادب الانجليزى قد التقى بالشاعر كولريدج (١٧٧٢ ـ ١٨٣٤) واشـتركا فى ديوان القصائد الغنائية Syrecal Ballads ويعـد هـذا الديوان من أعظم الوثائق فى الأدب الرومانتيكى والتغنى بالحب والجمال والأزهار والرياحين .

وقد جعل الرومانتيكيون الأزهار تحب وتعشق ، وتحن وتتألم ،

بل ان بعض الشعراء مثل هاينى فى الادب الالمانى جعل شجرة الصنوبر تحلم والزهور تعشق وصور شجرة الصنوبر وهي تقف وحيدة تنام ملتفة فى كساء ابيض من جليد وثلج ، وتحلم بشجرة نخيل بعيدة فى بلاد الشرق .

وديوانه « اناشيد الليل » الذى ظهر عام ١٨٠٠ ملىء بالصور الشعرية الجميلة حول الازهار العاشقة والورود المتدلهة بالحب والجمال .

اما بيرون فقد أطلق خياله فى ذلك كل منطلق حتى انه كان يقول : « اننى لا اعيش فى ذاتي ، ولكننى اصبحت قطعة من كل ما يحيط بى ، حتى ان الجبال العالية تبدو فى نظري كانها عاطفة » .

ويمتلىء ديوانه « ساعات الكسل » بصور طريفة حول نفسه التى تتفتح للحب كما تتفتح الوردة عن اكمامها تستقبل الربيع ، وحول الازهار الذابلة الذاوية المتناثرة على الارض ، وحول الغابات المتجردة من أوراقها التى تاهت فيها طفولته ، وكان بيرون يقول : « لكى يصبح المرء شاعرا يجب ان يكون محبا او شقيا وقد كنت الاثنين حين كتبت « ساعات الكسل » .

وبهذه الروح مضى بيرون يصور الزهور المتصوحة ويعكس مشاعره على جمالها وهو يجوس خلال الروابى المعشوشبة .

وقد استمد الرومانتيكيون خيالاتهم من ذواتهم ومن تلك الصور الشعرية الاخاذة التى لاحت فى شعر شكسبير الذى كان وحيا وملاذا للرومانتيكيين الاوائل ، ومن شعر غيره من الشعراء الذين عبروا عن خلجات نفوسهم ونبضات احاسيسهم كالشاعر المعروف روبرت هرك الذى قال فى النرجس :

ايها النرجس اننا لنبكى اذ نراك
تمضى الى الفناء وشيكا
هاتذا تمضى والشمس التى بكرت فى شروقها
لم تبلغ بعد فى السماء اوجها
قف ! قف !
حتى نرى النهار المسرع فى خطاه
قد انقضى
قف حتى تغنى انشودة المساء
.. فاذا ما ادينا الصلاة معا
فسنمضى معك الى حيث تريد

ويطرب الشاعر تشارلز سوينبرن ١٩٣٧ — ١٩٠٩ Chacles Swinpurne من الورود
ويكتب «بالاد» بعنوان : Ballad cf Dream land
« منظومة ارض الاحلام » جاء فيها :

اخفيت قلبى فى عش من ورد
اخفيته هنالك من اشعة الشمس
ارقدته على فراش اندى من القطن المندوف
تحت الورود اخفيت قلبى
لماذا لا يأخذه النعاس ؟ لماذا ينتفض وهو يقظان ؟
وليس على شجرة الورد ورقة تتحرك
ما الذى جعل الكرى يرف بجناحيه بعيدا عنى ؟
لعلها انشودة طائر خفى !

فشارلز سوينبر يجد مثواه فى عش الورد ، حتى يذوق طعم الكرى ، بيد انه يظل ساهدا ساهما يفكر وقد اتخذ مقره فى عالم الأحلام.

أما الشاعر الأمريكى روبرت فاوست فانه اتخذ من منظر رآه على زهرة من الزهور وسيلة الى الفلسفة والنظرة فى الحياة فقال فى قصيدة «خطة» :

رأيت عنكبا ابيض سجينا ذا رصعات
على زهرة بيضاء يحمل فراشه
كقطعة بيضاء من الساتان
مزيجا من أشخاص الموت والا محال
اختلطوا من أجل الابتداء عند الصباح كما ينبغى
كالعناصر الخليطة فى قدر ساحرة العين
عنكبا كندفة الثلج وزهرة كالزبد
وأجنحة ميتة مشرعة كطيارة من ورق
لم كانت الزهرة تلك بيضاء ؟
وكانت كعهدى بها على جوانب الطريق زرقاء بريئة
وما الذى أتى بالعنكب السيىء الى ذاك العلو ،
ثم اقتاد الفراشة البيضاء هناك ليلا ؟
خطة من الظلام مروعة لا غير !

وتصور هذه القصيدة النزعة التشاؤمية أصدق تصوير ، غير أنها صورة من التفكير المعذب المكروب الذى يعتبر الحياة خطة من الظلام مروعة ، وحجبا من الطلاسم وضروبا من الألغاز .

كما تثير التساؤل من طرف خفى حول تصرف المقادير وكيف وأين ومتى ؟

وكتب فيكتور هوجو قصيدة بعنوان « القبر والوردة » صور فيها حوارا بين القبر والوردة جاء فيه :

قال القبر للوردة :
ماذا صنعت يا زهرة العشاق

يقطر به الفجر رواك ؟
فقالت الوردة للقبر :
وانت ماذا صنعت بالاوائل الذين هبطوا
جوفك الذى لا ينى عن التقام الاجساد ؟
وقالت الوردة :
ايها القبر البهيم
من ذلك القطر أصنع
شهدا شهيا وعنبرا
فقال القبر :
« يا وردة شائكة
كل روح هنا قدم
صيرته من ملائكة السماء !

وهكذا كان ذكر الأزهار والورود فى الأدب الغربى لونا من الوان الجمال البديع ، والحسن الرفيع كما كان لونا من الوان الفلسفة الجادة والتأمل فى الحياة والأحياء ، وفى البقاء والفناء ، وفى الدثور والخلود ، ولم يكن أثر الازهار متوقفا على التشابيه الرقيقة والتصاوير الجميلة والخيالات المنطلقة والتاملات السابحة .

ولم يكن الجمال فى نظر اغلب الشعراء الغربيين شيئا جزئيا ملموسا محسوسا ، انما كان جمالا كليا شاملا كاملا ، وكان صورة متناسبة متناسقة توحى بالمشاعر وتلهم الأفكار ، وتبعث التامل ، وتحمل المشاعر المعكوسة والأحاسيس الانسانية فى هدوئها وسكونها وفى حركاتها وخطواتها فى يد الريح ذات اليمين وذات الشمال .

حديث فى القصة
بين الشرق والغرب

نشأت القصة منذ فجر التاريخ ، وذاعت وشاعت على الألسنة منذ ان كون الانسان المجتمع ، ولقد امتزجت القصة عند الاغريق بالميثولوجى والخرافات والاساطير ، كهذه القصص الخرافية التىنجدها عند هزيود ، وقد استمد هوميروس قصصه من الحرب التى نشبت بين الاغريق والطروادبين وحلفائهم ، وهى تلك الحرب التى دامت عشر سنين ، كما استمد الأوديسة مما جرى لأحد ابطال الاغريق وهو اوديسيوس بعد سقوط طروادة .

وقد وضع هوميروس بهذا اساس الشعر القصصى فى الأدب الاوربى ، فنشأت الملاحم التى الفت على غرارها ، مثل الياذة فرجيل، وكوميديا دانتى ، وفردوس ملتون ، وملحمة ارلندو الغاضب لأريستو ، وغيرها من الملاحم .

وقد تفرع من هذا الشعر القصصى لون آخر من الأدب وهو فن القصص ، وقد تقدم على مر الأزمنة حتى اصبح فنا قائما بذاته فى الآداب الأوربية .

ولم يعرف التاريخ قصة اقدم من القصة المصرية ، وذلك لأن المجتمع المصرى كان اول مجتمع عرفه التاريخ ، فهنالك قصة السحرة الثلاثة التى ترجع الى الفى سنة قبل الميلاد .

وقد عرفت مصر فى عهد الدولة الوسطى فى تاريخ مصر القديم قصة سنوحى ، وقصة البحار الغريق ، وتنسب كل منهما الى الأسرة الثانية . اما فى عهد الأسرة التاسعة عشرة فقد عادت القصة المصرية الى الازدهار ، وشغف ادباء هذا العصر بكتابة القصص الغرامية والخيالية. وقد بلغ اعجاب المصريين بالقصص حدا كبيرا ، الى درجة انهم وضعوها الى جوار الميت فى قبره لتسليته وابعاد الوحشة عنه ، وعرف المصريون القدماء كذلك قصص الاسفار والملاحين الذين تاهوا فى البحار ، او الحداة الذين ضاوا فى القفار .

وربما عرف الأدب الجاهلى كثيرا من القصص ، ولكن الذى لاشك فيه ولا محيص عنه هو أن الأدب الجاهلى لم يصل الينا كله وانما وصل الينا بعضه ، بل ان قدر ماوصل الينا من النثر الجاهلى لايعادل قدر ما وصل الينا من الشعر الجاهلى مع ما فقد من التراث الجاهلى .

وحرب عبس وذبيان ، وحرب المهلهل بن ربيعة وسيف ذى يزن ، واجراء النيل من جبال القمر كل ذلك اوحى بتاليف كثير من القصص .

وما ان جاء القرن العاشر للميلاد حتى وجدنا قصص الف ليلة وليلة قد شغلت الناس فترة طويلة من الزمان ، نجد فيها قصة قمر الزمان ، وابن الملك شهرمان، والسندباد البحرى، وعجيب وغريب ، وفيروزشاه . وقد ترجم كتاب كليلة ودمنة الى اللغة العربية ، وكان اصله الاول هنديا ، فاضاف ذلك العمل الى القصص العربى ثروة كبيرة . ولكن بعض ادباء العرب كانوا يعتبرون كتاب « الف ليلة وليلة » (كتابا غثا باردا) كما روى ذلك المسعودى فى مروج الذهب وابن النديم فى الفهرست ، ولكن السواد الأعظم منهم ينظرون اليه ككتاب قيم مفيد وتراث ادبى كبير ، وقد تمنى الكاتب الفرنسى ستندال ان ينساها ليقرأها مرة اخرى ويلتذ بقراءتها .

ولقد وجد قصاص فى المساجد يقصون على الناس اخبار الأمم السابقة ، ويعظونهم ويرشدونهم الى الطريق السوى المستقيم ، كعبد الله ابن سلام ، والحسن البصرى ، ووهب بن منبه ، وتميم الدارى ، بل لقد اضاف بعض المفسرين فى تفسير القرآن عنصر الاسرائيليات وهو الذى قام به بعض اليهود الذين اسلموا ، ككعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، كما يقول المستشرق الالمانى (جولد تسهر) وقد ذكر ابن الأثير ان ابن ورقاء فى حوادث سنة ٧٧ سار فى اصحابه قبل المعركة يحرضهم على القتال ويقص عليهم ، ولما لم ير القصاص التفت وقال : اين القصاص فلم يجبه احد ، فقال : اين من يروى شعر عنترة ؟ فلم يجبه احد .

وقد شاعت الوان اخرى من القصص فى الادب العربى ، كمقامات الحريرى والهمدانى ، ولكن هذه المقامات كانت تعنى فى الغالب باظهار البراعة فى الأسلوب ، والسجع فى التعبير ، وتلجأ الى التزويق اللفظى والتنميق اللغوى .

ولقد نهضت القصة فى الأدب العربى فى العصر الحديث وتخلصت من هذه المظاهر وتنوعت وتعددت ، فالفت القصة التاريخية ، والفت القصة الواقعية والقصة الخيالية ، والفت المسرحية . وقد لقيت القصة المصرية على يد الدكتور طه حسين وتيمور وتوفيق الحكيم خيرا كثيرا وتقدما كبيرا . واوشكت ان تطغى على الشعر طغيانا عظيما ، وحذت حذو القصة الأوربية فى مناهجها وطرائقها وطرق عرضها ، ولا عجب فى هذا ، فالقصة فى الآداب الأوربية الحديثة اهم انواع النثر الانشائى واكثرها ذيوعا ، وقد شاعت على ايدى سكوت وثاكرى وديكنز وهاردى فى الأدب الانجليزى ، وبلزاك واميل زولا واناتول فرانس وموبسان فى الادب الفرنسى .

وقد تعددت انواع القصة ، فهناك الاقصوصة ويسميها الفرنسيون anecdote وهناك القصة القصيرة ويسميها الفرنسيون Conte والرواية ويسميها الفرنسيون Novelle

وقد قال سارتر فى احدى مقدمات كتبه : « اننا يمكن ان نقول ـ ببعض التحفظ ـ ان القصص الجميلة تصبح مشابهة تماما للظواهر الطبيعية ، فننسى انها من تاليف مؤلف ونعتبرها كصخرة من الصخور او شجرة من الاشجار ولهذا السبب فانها تعيش » .

ونحن اذا ما استعرنا تعبير سارتر وجـدنا كثيرا من القصص والروايات الخالدة بين ظهرانينا خلود هـذه الصخرة الشماء التى لا تدركها يد البلى ، او هذه الدوحة الفارهة التى لم تصـل اليها يد الفناء . وانى لأذكر أن مستر د.س.سافج Savage قد كتب منذ عهد قريب كتابا عن القصة الحديثة عنوانه : « دراسات ست فى القصة العصرية » وقد تحدث فيه عن القصة عند ارنست همنج ، وفورستر ، وفرجينا وولفى ، ومارجياد ابفانز ، والدس هكسلى ، وجيمس جويس، ولكن سافج قبل ان يبدأ حديثه عن هؤلاء القصاصين تساءل : ما الفكرة؟ واستطرد قائلا : ما القصة ؟ بل ما الفن ؟

وهكذا كان سافج مثـله كمثل الذى يقف على المسرح قبل أن يرفع الستار ليقول دعونا ننسى هل تعجب هذه المسرحية او لاتعجب؟ ودعونا نعرف اولا لماذا جئتم الى هنا ؟ !

والواقع أن سافج Savage قد اضـطر الى ذلك اضـطرارا ، فهو يعتقد أن للفن تأثيرا شديدا واعتمادا كبيرا على الحيـاة وعلى التجربة الانسانية ، فالعمل الادبى يحمل بين ثناياه تصحيحا وتوازنا بين الشخصيات الذاتية والموضوعية وبين الكلى والجزئى ، والذاتية تلتقى دائما مع الموضـوعية ، فنجم عن ذلك عنصر جـديد هو عنصر الصدق التام فى الأداء .

ويضيف مستر سافج الى هذا قوله : ان القصاص يقدم الحياة كفن من الفنون كما أن الفنان يقدم الفن كفكرة من الفكر ، راسـما معانيها الخفية ، متتبعا اياها حتى الظهور .

أما فورستر Forster فيقـول عن « سافج » انه من الطـائفة الثانية من الكتاب والطائفة الأولى عنـده هم هؤلاء الكتاب الذين يستمدون مؤلفاتهم من واقع الحياة ، أما الطائفة « الثانية » عنـده فهم هؤلاء الذين يتخذون قصصهم من صراع داخلى فى النفوس .

وسافج Savage يعتبر « فرجينيـا وولف » قصـاصة من نوع غريب ، فهى لا تقسم الحياة الا كتقسيم دقات السـاعة فقصة « مسز دالاوى » مثلا قصة رمزية رائعة تصور تاريخ بيت على شاطىء البحر ، واحلام طفل فى سبيل الوصول الى المنار الذى يتالق نوره فى وسط البحر ، وتاريخ حياة رجل يصل الى هذه الحقيقة عندما يترك مرحلة الطفولة والشباب فاذا هى حقيقة سقيمة عقيمة .

أما جيمس جويس James Joyce ففى روايتـه يوليس قد برع فى تحليل الاحساسات المكبوتة والرغبات المكتومة وقصة يوليس عبارة عن تاريخ يوم من أيام مسـتر بلوم والناس الذين يتنزهون فى

المدينة فى ذلك اليوم ، وقد عدتها مسز « فرجينيا وولف » فضيحة هائلة وجريمة منكرة ، وذلك لانها تنتهى بليلة فاجرة .

وقد ظهرت الرواية التاريخية عند موريس هيوليت Hewlett فى كتابه عشاق الغابة كما ظهرت عند ستانلى ويمان Stanley weyman فى قصته (بيت الذئب) ، وقد حاول ستانلى هذا منافسة الكسندر ديماس الكبير ، فكتب تاريخ فرنسا فى شكل روايات .

وقد ظهرت القصة النفسية على ايدى كتاب كثيرين ، اهمهم د. هـ . لورنس D.H. Laurence الذى تتلمذ على يد سيجموند فرويد وموريس بارنج Baring صاحب القصص النفسية الكثيرة .

اما القصة الاجتماعية ، فقد ظهرت عند اسرائيل زانجويل Zangwill الذى وصف حياة اليهود فى كثير من قصصه ، وجولزورثى Galsworthy ، والكاتبة الامريكية هاريت ستو Harriet Stewe التى وصفت حياة الرقيق فى كثير من قصصها ، كقصة (كوخ عم توم) .

وليس من شك فى ان القصة ـ سواء كانت تاريخية ام نفسية ام اجتماعية ـ تحتاج الى فن فى تاليفها ، والى قواعد فى تنظيمها ، فينبغى أن تكون للقصة وحدة متينة يحاول الكاتب دائما ان يبرزها فى اطار واضح مبين ، وينبغى له ان يخضع اسلوبه لموضوعه لا موضوعه لاسلوبه ، كما ينبغى له ان يحسن رسم الشخصيات، ويحلل مشاعرها ، ويحكم اقوالها وافعالها ، فلا يصدر عمله الا عن صدق ، ولا يبنى كلامه الا على معنى ولا ترسم شخصياته الا عن فكرة ، كما أن الكاتب القصصى ينبغى أن يعتنى بأسلوب قصته ولغتها والا ينقلب الى واعظ يعظ الناس ، بل يتخذ من الوسائل فى عرضه ومعالجته ما يجعل الآذان مصغية اليه ، والاسماع مشوقة الى شخصياته . وان يفرق بين القصة والاقصوصة وبين الحكاية والرواية .

وتتردد القصة بين القصر والطول على حد تعبير شارلتون ، فالقصر لأنها تصور افعالا مقصودة ، وقد تقف منها وقفة طويلة محللة مفصلة ، وليس فيها قصر الرواية المسرحية مثلا فى التصوير ، فالكاتب المسرحي يكتفي بالاشارة ، فاذا صور وليمة مثلا كوليمة شكسبير فى ماكبث ، أو حفلة عشاء أو سمر كما فعل اليوت فى حفلة كوكتيل فى مستهل الرواية اكتفى بالمنظر دون مقدماته وبواعثه . اما الكاتب المسرحي فانه يمهد لهذه الحفلات بأسلوبه ولا ينزع الافعال ليجسمها تجسيما على المسرح كما يفعل الكاتب المسرحى .

ويقسم بعض نقاد الأدب القصة قسمين : القسم الاول الخيالى كقصص رحلات جوليفر وربنسن كروزو وغيرهما ، والقسم الواقعى. ومن القصص الواقعية قصة بلزاك « جلد الاحزان La peau de chagrire وهى قصة رجل يملك جلد احزان وقد جمع قوة سحرية عجيبة تمكنه من تحقيق رغائبه ، ولكن الجلد اخذ يتقلص الى

ان استنفد الرجل جميع رغباته فاستنفد حياته ، ورواية كنديد لفولتير اقصوصة فلسفية تسخر من التفاؤل والمتفائلين ومن الفيلسوف الالمانى ليبتز الذى يقول : اننى على خير حال فى خير عالم ممكن ، وهى قصة رجل طيب ساذج يدور مع استاذه بنجيليوس ، فيلاقى مايلاقى من محن وقرصنة وعذاب .

وقد صور جوستاف فلوبير فى قصته « سلامب » الحرب التى كانت بين قرطاجنة وروما . ويعد اميل زولا زعيم الروائيين الطبيعيين فى فرنسا ، وقد ظهر المذهب الواقعى فى منتصف القرن التاسع عشر فى لوحات ميليه وكوربيه وروايات فلوبير والفونس دوديه .

اما المذهب الطبيعى فزعيمه موباسان وزولا اللذان كانا يريان تطبيق مبادىء العلم ومناهجه التى بسطها كلود برنار فى كتابه الشهير « مقدمة لعلم الطب التجريبى على الأدب والقصة » .

لغتنا أمنا الكبرى

ووسيلتنا الى نهضة الشرق

ان اللغة العربية هي امنا الكبرى في شتى الاقطار والامصار ، ويجب أن نصونها ونرعاها ونحرص عليها لا ان نجعلها عرضة لتيارات مختلفة توهن من قوتها وتفت في عضدها ، لانها لغة القرآن الكريم الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ولانها لغة التراث الادبي الرصين الذي انحدر الينا منذ أبعد الحقب وغابر الازمان .

فهناك ظاهرة واضحة تسيطر على الادب في هذه الفترة ، وهي انسياق الكتاب نحو الاسلوب العامي وايثارهم للهجة المحلية في حوار القصص والمسرحية بحجة الدفاع عن لغة الشعب ، والواقع أن هذا ليس من الحق في شيء فليس الادب الشعبي هو المكتوب بلغة العامة انما الادب الشعبي هو الذي يستلهمه الفنان من روح الشعب ومن مختلف بيئاته فيعبر به عن مشاعر هذه الامواج المتدفقة من الناس في خضم الحياة ، وان هذا الادب الشعبي ليمثل الجانب الاكبر من الادب الحي الخالد في كل أمة من الامم وفي كل عصر من العصور .

ومما لاشك فيه ان استخدام اللغات العامية يضعف من العرى والوشائج بين البلاد العربية لاننا عندئذ سنكون حيال سيل متلاطم من الالفاظ والعبارات والاساليب المحلية التي هي كالعملات الخاصة لاتصرف الا في مواطنها ولا تستطيع أن تحيا في غيرها من الامم والبلاد .

فمن الالفاظ التي تستخدم في أساليبنا العربية كلمة يصفق فهي تستعمل في اللهجة المصرية على نحو « ساف » وهي كلمة متحولة اجتمع فيها القلب والابدال ، وفي سورية يقولون (يسفأ) بقلب القاف همزة ، وفي العراق يقولون « يصفق » بنطق القاف كافا فارسية ومثل ذلك في كلمة « أول » التي تلفظ بفتح الواو في العراق على حين تقال في اللهجة المصرية أول بكسر الواو ، وكذلك الحال في كلمة اضرب فتلفظ في بعض البلاد العربية بكسر الراء ، أما في اللهجة المصرية فيقولون « اضرب »بفتح الراء مع قلب الضاد دالا .

وغير خاف أن الاختلاف في النطق فضلا عن الاختلاف في التركيب في كثير من الألفاظ والاساليب يقودنا الى الغموض ، ويحيل العبارة العربية الى لون من الطلاسم مما يبعث التفكك بين الامم العربية ويثير الاضطراب بين شعوبها .

ان لغتنا العربية لغة ممتازة فيجب أن نحرص عليها ونصونها ونرعى تاريخها الحافل المجيد حتى نقوم بتوثيق الروابط بين البلاد العربية : ومما يروى فى هذا الصدد أن القائد الالماني بسمارك قال ذات يوم « ان أهم حقيقة يجب أن نسجلها فى القرن التاسع عشر هى قيام الوحدة اللغوية بين بريطانيا وأمريكا » وقد سار بسمارك على هذا النهج فى توحيد الولايات الالمانية .

كما خطب تشرشل فى امريكا ذات يوم وقال فى جموع الامريكيين فى واشنطن « يجب أن نعمل فى القرن العشرين على تحقيق ماقاله بسمارك فى القرن التاسع عشر » .

وان من يرجع الى تاريخ اللغة العربية يجد أن لغتنا هى أم اللغات ، وقد اشتقت منها لغات كثيرة الفاظا عدة . وقد تمكن الاب العلامة انتسانس مارى الكرملي الى الوصل الى كثير من الحقائق عن هذه اللغة بعد كثير من اعمال الروية والبحث والتنقيب فكلمة Habere وبالفرنسية Avoir وبالانجليزية to have من اصل عربى هوحوى .

ويقول الاب أنستانس الكرملي : « أما كيف اهتديت الى أصلها العبراني فكان نتيجة عملي هذا وهو اني حذفت من آخر Habele الحرفين الاخيرين re الدالين على كاسعة Suffix تكسع بها أواخر أفعالهم فبقى منها Habe ولما كانت الواو العربية فى القديم تصور بالباء ولم يكن لهم هاء بل يصرف منها الهاء اى H برز لنا فعل «حوى» وهو معنى الفعل اللاتيني ، ومن هذا الاصل اخذت الانجليزية To have والفرنسية Avoire وغيرهما من الكلم التى تعد بالعشرات بل بالمئات وهذا الفعل كما تعلم اساس مركبات أفعال كثيرة فى الالسنة الغربية الأوربية .

والفعل الثانى يكثر فى السنتهم Esse وبالفرنسية Etre وباليونانية الدورية والايولية Essi أى (أنت موجود) فانظر كيف تنتقل اللفظة من حالة الى حالة ومن لغة الى لغة والاصل واحد وهو العربى « أيس » فاذا لفظتها بحركتها كانت لاتينيه أو كاللاتينية اى Esse نعم ان كلمة أيس لا وجود لها فى لغتنا الحالية لكنها كانت فى سابق العهد ، وقد انتبه لها علماؤنا اللغويون الاقدمون قال فى تاج العروس : « ليس . . اصلها لأيس طرحت الهمزة والتقت اللام « بالياء » وهو قول الخليل والفراء والدليل على ذلك قولهم اى العرب : ائتنى به من حيث أيس وليس اى من حيث هو ولا هو وكذلك قولهم : جيء به من ايس وليس اى من حيث هو ولا هو وكذلك قولهم جيء به من ايس وليس او معناه من حيث وجد او ايس اى موجود ولا ايس اى لا موجودا فخفوا .

وفاكهة «الموز » عرفها العرب فى الأندلس فاطلقوا عليها اسم البنان أى الاصبع ، فاطلق عليها هذا الاسم فى كل اللغات الاوربية Banane

وقد اخذت بعض اللغات الشرقية من العربية جملة من الالفاظ بيد انها لم تستطع النطق بالحروف العربية التى ليست فى لهجاتها ،

فالفرس لم ينطقوا بهذه الحروف « ث.ح.ص.ض.ظ.ع.ق » وكذلك المتعلمون باللغة الاردية ، والترك نطقوا من هذه الحروف بالقاف لانها فى لغتهم وتركوا الحروف الاخرى وحذفوا فى بعض الاحيان ، اداة التعريف من الكلمات العربية الا فى كلمات قليلة وجعلوا هاء التأنيث تاء : زحمت وعصمت وفطرت ، وانحرفت بعض الالفاظ العربية عن معناها فى اللغة العربية كما قيل فى الفارسية صحبت بمعنى محادثة وزحمت بمعنى مشقة وقيل فى التركية معصوم بمعنى برىء ومحجوب بمعنى خجل .

ولكن اللغة العربية فى اثناء ذلك كله كانت الاساس الاول فى أصول هذه الالفاظ والتى أنجب عنها الابناء .

والمستفاد من هذه الشواهد ان اللغة العربية اثرت فى كثير من اللغات . فلها ظل ممتد اصيل ومجد اثيل يجب أن نحرص عليه ونصونه فى اعيننا وقلوبنا .

ومن ميزات اللغة العربية التى تمتاز بها على غيرها من اللغات عنايتها بالاعراب ، اذ تتغير اواخر كلماتها بتغير العوامل الداخلة عليها بالرفع والنصب والجر والسكون ، ولا يشاركها فى هذه الميزة الا اللغة الالمانية والحبشية ، وكل هذه اللغات امتازت شعوبها بمدنية عظيمة منذ فجر التاريخ . وليس من شك فى أن الاعراب يساعد على تفهم المعنى والتخير بين الاساليب .

كما تمتاز اللغة العربية بدقة التعبير بالفاظها وتراكيبها . ولكل معنى لفظ خاص وهناك الفاظ لتادية فروع المعانى او جزئياتها. فلكل ساعة من ساعات النهار اسم خاص : فالساعة الاولى الذرور ثم البزوغ ثم الضحى ثم الغزالة ثم الهاجرة ثم الزوال ثم العصر ثم الاصيل ثم الصبوب ثم الحدود ثم الغروب ، ويقال فيها ايضا البكور ثم الشروق فالاشراق فالراد ، فالضحى ، فالمتوع ، فالهاجرة ، فالاصيل ، فالعصر ، فالطفل والحدود فالغروب .

وكذلك فى اللغة العربية تفرعات للافعال كتفرع فعل النظر الى رمق ولمح ، وحدج ، وتوضح ، ورنا ، واستكف ، واستشف .

ويحكى فى معرض ثراء اللغة العربية ان الاصمعى حضر يوما مجلس الفضل بن الربيع وجرى الحديث حول الفرس ، فتذاكر الجلوس كتاب ابى عبيدة فى الخيل ، فاراد الوزير ان يعلم ما عند الاصمعى فى ذلك فقال له قم يا اصمعى وامسك كل عضو من اعضاء هذا الفرس وسمه فاذا سميتها فخذه » فقام وامسك بناصية الفرس وجعل يسميه عضوا عضوا وينشد ما قالت العرب فيه الى ان فرغ منه فاعطاه اياه :

كما تمتاز لغتنا العربية بالاعجاز والإيجاز ، ولكل قوم اعجاز فى لغتهم ، فيدلون بلفظ قليل على معنى كثير ؛ ولكن العرب أقدر على ذلك من سواهم لان لغتهم تساعدهم عليه كما تمتاز اللغة العربية بالتفوق فى المترادفات والاضداد ففى لغتهم لله ١٢٤ اسما ، وللنور ٢١ اسما ، وللظلام ٥٢ اسما ، وللشمس ١٢٩ اسما ، وللسحاب ٥٠

أسماً ، وللماء ١٧٠ أسماً ، وفيها مئات من الالفاظ يدل كل منها على معنيين متضادين مثل قولهم « قعد » للقيـــام والجلوس « ونضج » للعطش والرى . ونحو ذلك .

كما ان بها كثيرا من الالفاظ يدل اللفظ الواحد منها على معـان كثيرة فضلا عن أن كثرة المترادفات فى اللغة وتعداد المعانى للفظ الواحد جعلتها واسعه التعبير وسهلت على أصحـابها السجع الذى عرفتـه العربية منذ اغوار العصر الجاهلى فى سجع الكهان وخطب الخطباء

وكذلك تمتاز اللغة العربية بحلاوة الايقاع ، وجمال النغم بين الالفاظ . ورصانة الجرس ، وهذه الظاهرة تتجلى بوضوح فى أشعار الحماسة ، واشعار الغزل ، اذ تمتاز بعض أشعار الحماسة بانتقـاء الالفاظ المجلجلة والمدوية التى تهب كانها العاصفه الهوجاء كما تمتـاز بعض أشعار الغزل بالرقة والتناغم الموسيقى الجميل . ومثـال الاول بعض شعر ابى تمام والمتنبى ومثال الآخر بعض شعر البحترى وبشار .

هذه هى لغتنا مناط آمالنا ولســان حالنـا تلقى على عاتقنـا مسئوليات كبيرة وتبعات جسـاما ، وليس من الانصـاف فى شىء ان ندعى ماتجده من اختلاف فى اللهجات صراعا بين الاصول والفروع انما هو فى حقيقه الامر انحراف وشذوذ نستطيع اصلاحه وتبع جماحه اذا ما آمنا بقضيتنا واخلصنا فى مسعانا ، وحرصنا على التمسك بهذه اللغه .

واننا لا نبالغ اذا قلنا ان الكويتى ربما لا يفهم المصرى فى بعض عباراته كما ان المغربى ربما لا يفهم اللبنانى اوالسورى ونحو ذلك بل ربما كان الصعيدى المصرى لا يفهم لهجة الفلاح فى الدلتا فى الوجه البحرى من الاقليم المصرى وهلم جرا .

ولكننا نستطيع برغم كل هذا ان نمحو هذه الفوارق اذا ما آمن الناس بقيمة هذه اللغه وشعروا بوجودها فى حياتهم الخاصة والعامه فيما ينشر لهم من كتب او صحف وفيما يذاع عليهم من تمثيليات وبرامج اذاعيه فى الاذاعه والتليفزيون وفيما يدور بينهم من نقاش فى الندوات والمحاضرات والاجتماعات على اختلاف صورها وتعدد الوانها. وحينئذ نخلق وعيا عاما نحو اللغة العربية ووجوب التمسك بها .

كما يجب من جانبنا مضاعفة الاهتمام بالعربية فى دور التعليم وتهذيب كتب النحو واللغة لان ذلك ينمى ملكة الطالب فى اللغة ويفنيه ما امكن عن التراكيب العامية ويمنع اللهجة الاعجمية أن تستحكم فى خاطره ، وتقوى على لسانه ، وتمهد له طريق الانشاء ، فلا يشعر كانه يكتب بلغة غير لغته ولقوم غير قومه ، كما يجب اصلاح طريقة الانشاء بترك الوحشى من الألفاظ والغريب من التراكيب والمعقد من الأساليب واختيار المفردات والجمل التى يمكن العامى فهمها مع فصاحتها .

ولابد من ان يبذل المسئولون فى المجامع اللغوية جهودهم من اجل مسايرة اللغة العربية لتطوارت العلم الحديث ، حتى لا نعيش فى عزلة عن المجتمع دون أن تدون خصائصه ولا يسجل فى صحائفها اسماء

الانقلابات الاجتماعية الخطيرة المحيطة بها والتطورات العلمية الجديدة التى تلتف حولنا من كل جانب كالتفتت الذرى والاشعة الكونية وذرات المادة والكهربا والضوء ونحو ذلك ، اذ أن هذه الجهود سـوف تضيف الى عمر اللغة العربية اعمارا جديدة ولا تمكن المتطرفين من خنق هذه اللغة ومن خنق لغته فقد خنق نفسه وكتم انفاسه وفقد حواسه !

وما اصدق ما قاله بلا كمار العالم الاجتماعى الشهير : « لقد ادت اللغة دائما وظيفة مهمة فى التنظيم الاجتماعى ، فقد تولدت بها من حيث انها أداة التفاهم ، الجماعات الصغرى واعتزت ، وكذلك اتحدت جماعات أخرى ، وتتجاذب الشعوب ذات اللغات المتشابهة ، اما الشعوب ذات اللغات المتباينة ففيها ميل الى التنافر ، والصـــعوبة فى اقرار النظام الاجتماعى بين الجماعات المختلفة ذات اللغات المتنوعة والافكار المتنافرة والمشاعر المتباينة صعوبة كبيرة جدا حتى انها تلاحظ اليوم فى المدن الامريكية ومافيها من أهلين غير متجانسين .

ومع ان اللغة فى مثل هذه الاحوال تدعو الى الانقسام كانت فى الاصل مدعاة الى الوئام ، واللغة هى وليدة السعى للافصاح عما يخالج النفس من الافكار ، وكل من ينقب منا عن المجتمع البشرى يجد فى فعل اللغة وفى رد فعلها سببا من الاسباب الداعية الى حدوثه ونتيجة من النتائج المتولدة عنه » .

وهكذا كانت اللغة دعامة قوية من دعامات المجتمع الصالح على انها رمز المجتمع والى نورها الهادى المتالق تعشو الاقوام الهائمة فى الظلام .

فلنجعل لغتنا العربية نبراسنا الهادي ونعمل على رد عادية المعتدين على لغتنا فانها مهددة بالهجوم كما هددت اشرف بقاعنا ، فان الحرم الذي لا تحميه القوة بابه مفتوح للغارة الشعواء ولينصرن الله من ينصره.

الأدب العربى أدب عالمى

تحت هذا العنوان نشرت جريدة الأهرام انه قد ظهر فى بريطانيا اخيرا كتاب جديد بعنوان « الشعر العربى الحديث » وهو مجموعة من الأشعار العربية المترجمة الى الانجليزية وضعها الدكتور اربرى أستاذ اللغة العربية بجامعة كمبردج ومدرسة لندن للدراسات الشرقية والافريقية .

واحب بهذه المناسبة ان اذكر أن الادب العربى فيه من الذخائر القديمة والحديثة مالو ترجمت الى الآداب الأجنبية لكانت أدبا عالميا راقيا بأدق معانى هذه الكلمة وسأحاول فى هذا الفصل ان اشير الى طرف من هذه الذخائر التى سبق أن أشاد بها كثير من المستشرقين كمرجليوث وكارليل وكوزان دى برسفال وبردكلمان ونلينو وجولد زيهر وماسينيون وغيرهم واذكر ان المستشرق الانجليزى نيكلسون قد استهوته هذه الفكرة استهواء شديدا فى كتابه « تاريخ الآداب العربية » The literary history of the Arabs كما أن المستشرق ف.ى جونسون F. E. Johnson قد ترجم المعلقات السبع الى الانجليزية فى كتاب اطلق عليه القصائد السبع The Seven poems وعدها من عيون الادب العالمى .

وليس من شك فى أن دكتور جونسون قد أصاب الحقيقة فى ذلك، فهنالك بعض الخطرات الفلسفية والتأملات الروحية فى الشعر الجاهلى عند زهير وطرفه تعد من روائع الادب العالمى حتى اليوم .

وقد عد الأستاذ نلينو بعض الآثار الأدبية العربية العالمية وكانت منها رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، بل ان الدكتور جورج دلافيد استاذ الادب العربى بجامعة بنسلفانيا ذكر أن « أبا العلاء وهو شاعر اعمى مثل ملتون وهوميروس يرى فيه العقل العربى ثمرة ما بلغته المدنية الاسلامية فى ذروتها من النضج العقلى العظيم والنبوغ الهائل . وقد تكون رسالته من مصادر دانتى فى الكوميديا الالهية ، ولكنه يقف ولا شك فى صف واحد مع اسمى ما انجبته البلدان والاديان جميعا، فهو رجل عربى فى نشأته ، ولكنه رجل عالمى لأنه النموذج للنهضة الجديدة للحضارة العربية » .

ويمكن ان نعتبر بعض شعر المتنبى عالميا بادق معانى هذه الكلمة ، فهو يلجأ الى التجربة الشعورية العامة Universal experience ويسوق كثيرا من الحكم فى الحياة والاحياء ، وهذا النوع من التجارب الشعورية يعد أرقى أنواع التجارب الانسانية فى الشعر عند كثير من النقاد الاوروبيين كستار ، ولاسل ابروكرومبى فى كتابه : الشعر موسيقاه ومعناه Poetry, its music and meaning

واذا ما صح ما قاله وليم وردزورث من ان الطبيعة تجسيم الروح القدس فاننا نجد عند ابى تمام كثيرا من الصور المجسمة والمعانى الحرة التى يطلق عليها الاوربيون التشخيص Personification

واذا كان للطبيعة شعر يتمثل فى حركة الموج ورجرجة الموج واريج الزهر على حد تعبير الناقد الانجليزى وليم هازليت فقد صور ابن الرومى كثيرا من صور الطبيعة التى تعد من اروع الصور العالمية .

واذا كان الشعر تصويرا للحياة والواقع كما يقول كلاى Clay فى كتابه الناقد الانجليزى فاننا نجد فى الشعر العربى اشعارا تصور الواقع وتصور الحياة لا تعبأ بالتحقيق اللفظى والتزويق اللغوى ، بل تحوى المعانى السامية التى لا تخدم بالتقعير فى الالفاظ التى تشبه الاشخاص المتعبين على تعبير والتر راليه Walter Raleigh

ونحن اذا ما انتقلنا من ميدان الادب البحت الى التاريخ وهو فرع من فروعه وجدنا بعض الكتب العالمية كتاريخ ابن هشام وابن الاثير والطبرى والجبرتى ، او الى الجغرافيا وجدنا مترجمات عالمية عن مختصر ابن خرداذبة وقدامة وجزء من الخوارزمى والمقدسى والبستانى، وقد نشر بعض هذه الكتب دىجويه ونللينو ومزيك. وقد نشر البيرونى فصلا عن طرق التحقيق الجغرافى فى نسخة فى مكتبة « جامع محمد الفاتح » باستنبول رقم ٢٣٨٦ وتعد من التحقيقات العالمية .

واذا انتقلنا الى الفلسفة اعتبرنا الفارابى وابن سينا والكندى والنظام من مشاهير الفلاسفة فى العالم الذين اتخذ بعضهم اسماء اجنبية فى المراجع الاوربية .

وقد قال اسكندر فون هومبلد : ان العرب قد نشروا مع دينهم لغتهم المتقلة بتراث خالد من الشعر لم تبل جدته ولم تتزعزع اصوله وقال هـ . ج ويلز H. G. Wells : ان العلوم والآداب الحقيقية لم تدخل اوربا الا عن طريق العرب وقال ليبرى Libri صان العرب نهضة الآداب فى اوربا مدة طويلة .

ونحن اذا ما انتقلنا الى ادبنا الحديث وجدنا بعض الآثار الأدبية للدكتور طه حسين ومحمود تيمور والأستاذين الصاوى وتوفيق الحكيم قد ترجمت الى الآداب الأجنبية واعتبرت آدابا عالمية بادق معانى هذه الكلمة، وقد صرح نفيل باربر فى مجلة «الثقافة الاسلامية Islmic Culture بهذا الراى من قبل ، واكبر الظن ان كثيرا من النقاد العرب والغربيين يشاركوننا فى هذا الراى الى حد بعيد .

المذهب الرومانسى

فى الشعر العربى

كلمة الرومانسية من الكلمات التى اتت لنا مع الفكر الغربى ، ولقد طغى المذهب الرومانسى على الأدب فى فرنسا وانجلترا فترة طويلة من الزمان وصبغ الآداب الاوربية بصبغة خاصة ، ويمكن أن نجد خصائص هذا المذهب فى الأدب العربى وان لم يتخذ اسم المذهب الرومانسى .

والواقع أن كلمة الرومانسية قد اشتقت من اصل لاتينى ، ولم توجد على حالها المعروفة الا منذ القرن التاسع عشر ، وقد تغاير معناها عند فرلين وتوماس سبرات وتنسون وجيته وستندال ولويس برتران، فيقول بعضهم :

ان الرومانسية بعد عن الواقع وتحليق فى أجواء الخيال وانقياد للمشاعر الخفاقة والاحاسيس الوثابة وتنقل بين الأقطار وحب للأسفار وترنم بالاشعار .

ويقول بعضهم : ان الرومانسية هى الادب المكتوب باللغة الدارجة او الكلام الذى يطلق العنان للخيال او الطراز القوطى للشعر ، وقد جاء فى قاموس اكسفورد أن الرومانسية تطلق على ثلاثة أشــياء الفكرة الخياليه والميل الى الخيال والتزام المذهب الرومانسى فى الشعر ويطلق عليه الفرنسيون « مرض القرن » والانجليز « الملانكولى » .

ونحن اذا ماتصفحنا تاريخ الشعر العربى صادفنا كثيرا من الشعراء ذوى النزعة الرومانسية بمعنى العكوف على النفس والتعبير عن العواطف الذاتية باسراف واخلاص ، وعندى أن قيس ليلى وقيس لبنى وجميل بثينة كانوا يكونون مدرسة رومانتيكية ، ولكنها كانت اباحية لا تلتمس العشق فى السماء ولا بين الخيال ، وانما تلتمسه من الحوادث اليومية والمحادثات الشخصية التى ربما لا يسمح المجال بذكرها .

وان شعراء الاندلس كابن زيدون وابن خفاجه وابن سهل كانوا يكونون مدرسة رومانتيكية ثالثة فى الرجوع الى الطبيعة والعودة اليها والتغنى بها والترنم بمجاليها ورياضها وانهارها .

وهذه المدارس الرومانتيكية فى الادب العربى تناظر المدرســة الرومانتيكية الفرنسية التى كان من اعلامها الفرد دى‌موسيه ولامارتين وفيكتور هيجو والانجليزية التى كان من أعلامها بيرون وشللى ووردس ورث وسندى وكوبلروج بل كان من اعلامها الاوائل شكسبير الذى وضع اسس الرومانتيكية فى مقطوعاته او سونياته . Sonnets

بل ان فكرة الملانكولى او الحزن التى كانت مسيطرة على شعر بعض الشعراء الانجليز كبيرون وشللى والفرنسيين كموسيه وهيجو قد ظهرت عند جميل بثينة فى بعض اشعاره حتى يمكن ان نقتبس من شعره بعض مقطوعات نضعها تحت عنوان يتخذه كثير من النقاد الغربيين فى رواية الشـــعر وهـــو « الحب والموت » love and death وأن من يقرأ قصيدة موسية حزن Tristesse او لامارتين « لم روحى حزينة ؟ » Pourquoi mon ame est triste .

يلمح فيها النزعة الحزينة التى كانت تتمثل فى كثير من شعر قيس ابن الملوح وقيس بن ذريح وعباس بن الاحنف .

ولقد استعملها عمر بن ابى ربيعة فى شعره القصصى الطريف وصور ماحدث بينه وبين صواحبه على حين ان هذه السمة قد تبلورت عند بيرون فى صورة اخرى : فملاحم بيرون فضلا عن قصـــائده وترانيمه مستقاة من حياته ، وافكاره ماكانت تستطيع أن تستقر فى عقله على حد تعبيره هو ، وكذلك عمر بن ابى ربيعة لاتستطيع افكاره أن تستقر فى عقله فيعبر عمر بطريق مباشر ويعبر بيرون بطريق غير مباشر كعروس ابيدوس وقصيدة الكافر والقرصان وزليخة وسليم تلك الملحمة التى تصـــور علاقته بأوجستا .

أما المدرسة الرومانتيكية الثالثة فى الشعر العربى فهى المدرسة الاندلسية التى نلمس فيها ناحية النزوع الى الطبيعة والتفنى بجمالها والمعيشة داخل الكل على حد تعبير الفيلسوف الالمانى جيته ومن زعماء هذه المدرسة ابن زيدون وابن خفاجة الذى كان كثير التأمل فى المشاهدات وكانت نظراته تقود عقله وترسم له انواع الخيال وضروب البيان « ويمكن أن نجد فى كل من الأدب الفرنسى كقصـــيدة موسيه « نجم المســاء » l'étoile du Soir والادب الانجليزى كقصيدة شللى فى الليل مايناظرهما فى الادب الاندلسى على حين ان الادب الغربى اقدر فى الغوص الى الاعماق الانسانية .

كنوز بين المعرفة
فى آداب الشعوب الآسيوية والأفريقية

« العالم حولى يغمره السرور ويغمه الحبور ، والعصافير تغنى فى نشوة وبهجة ومراح وهى تنطلق فى الجو عبر الفضاء لا يقف فى سبيلها حائل ، ولا يعترض طريقها عائق ، ولكننى سيئة الحظ عاثرة البخت بائسة المصير اننى رهينة محبس فى قفص من ذهب خائفة واجفة وسط أكداس الأرز يحرقنى الظما وينهكنى الصدى فى بحر العسل .. عمياء لا تدرك سبيلها فى رائعة النهار وجاوة الضحى ... أطلقوا سراحى ، فكوا اسارى ... اريد ان اطير مع الطيور ... »

شاعرة من الملايو

اتيح لى ان احضر حفلة افتتاح مؤتمر تضامن الشعوب الآسيوية الافريقية ، واتيح لى ان استمع الى خطب الوفود المشتركة فى هذا المؤتمر وعلى راسها خطبة السيد انور السادات رئيس المؤتمر ورئيس الوفد المصرى ، قد سمعته يعلن على الملأ ان سياسة مصر يمثلها خطاب الرئيس جمال عبد الناصر فى بورسعيد حين دعا الى السلام وان هذا المؤتمر تكريم لروح باندونج وتذكير لمغزاها ودفعة اخرى الى الأمام ، وان شعوب آسيا وافريقية التى كانت ارضا مباحة او غابة تعيش فيها الوحوش الكاسرة قد أصبحت قوة حرة عالية الجبين لها دور حاسم فى مستقبل الاسرة كلها ، وتمنى ان يستخلص من هذا المؤتمر الشعبى اقصى ما يمكن من النتائج الايجابية فى الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على السواء .

« آداب عظيمة »

وبهذه المناسبة احب ان اقول : ان لهذه الشعوب الاسيوية الافريقية آدابا عظيمة وان هذه الآداب فى حاجة الى الدرس والبحث وفى حاجة الى الترجمة والنقل والتلخيص والتهذيب ، فانا لا اعلم شيئا ادعى الى التقريب بين الشعوب مثل الآداب ، وانا لا اومن بشىء يستطيع ان يأسر النفوس ويهذب القلوب ويصفى الأرواح كما تفعل الآداب ، ونحن اذا كنا جادين فى هذا المسعى مضحين من اجل الوصول الى هذه المطالب وهذا ما ليس فيه شك او مراء ، فلابد من ان نحيط علما بهذه الآداب ونقيم التبادل الثقافى بيننا وبين هذه الشعوب على نطاق واسع لا يقف فى سبيل ذلك عائق او حائل باية حال وحينئذ يتحقق التقارب الذهنى بين العقول الذى هو احد دعائم التقارب السياسى .

ولا يخفى على احد ان عددا كبيرا من الشعوب الآسيوية والافريقية

اشتركت فى هذا المؤتمر حتى ان عددها بلغ خمسا واربعين دولة ، ولا يخفى على أحد كذلك ان لكل شعب من الشعوب التى اشتركت فى هذا المؤتمر تاريخا حافلا طويلا وآدابا حية باقية على الزمن وعلوما وبحوثا ، وارى من واجبنا أن نزيح عنها الستار وننفض عنها الغبار لنجلوها للعيان حتى يفهم بعضنا بعضا ويحيط بعضنا بتاريخ البعض الاخر ويلم بكفاحه ووجوه نشاطه الفكرى .

« الأدب اليابانى »

ولاضرب مثلا بشعب اليابان وهو من الشعوب الآسيوية التى اشتركت فى هذا المؤتمر فاقول : ان هنالك كثيرا من المؤرخين اليابانيين الذين فصلوا التاريخ اليابانى بصورة عجيبة معجبة مثل المؤرخ « متسوكونى » الذى كتب التاريخ الاكبر لليابان عام ٨٥١ ، فصور نظام العهد الاقطاعى ومظالم الفلاحين ضد اليابانيين ، وقل مثل ذلك عن المؤرخ « اراى هاكوسيكى » الذى كان له دور كبير فى تصوير الاحداث التاريخية الكبرى التى المت بشعب اليابان ، كما أن باليابان المسرحيات ، ولا ننسى « شيكاماتو » الذى يقرنه بعض النقاد الغربيين بالكاتب المسرحى وليم شكسبير فى غزارة موضوعاته واساليب مسرحياته .

واليابانيون يهتمون كذلك بالشعر ولهم فى ذلك دواوين شتى فى شعر الحب والطبيعة والحرب والكفاح وقد جمع الامبراطور « دايجو » مجموعة كبيرة من الاشعار حتى يحفظها من أيدى الفناء بلغ عددها الفا ومائة قصيدة نظمت خلال القرن ونصف القرن الماضيين واطلق عليها «كوكنشو» ومعناها قصائد قديمة وحديثة وساعد فى هذا العمل الضخم العظيم الشاعر « تسورايوكى » الذى قدم هذا الديوان بمقدمة ضافية عن الاشعار التى تضمه فهى اشعار تتناول نغمات الحب ومجالى الطبيعة وتتراءى فيها المشاعر النابضة والاحاسيس الجياشة والقلوب عندما تخفق ، والانفاس عندما تتصاعد ، والاناشيد عندما تمتاز بأدب عالية رفيعة منذ فجر التاريخ ، ونحن فى مسيس الحاجة الى معرفة القليل ان لم يكن الكثير عنها :

ففى ميدان القصة نجد قصة « هونج لوهن » او حلم الغرفة الحمراء وهى فى اربعة وعشرين مجلدا ، ورواية « الممالك الثلاث » وهى فى ١٢٠٠ صفحة وكتبها الكاتب الصينى اللامع « لوجوان جونج » وصور فيها الحروب والدسائس التى احاطت ببعض الاسرات الحاكمة فى الصين وغير ذلك من الاقاصيص القصيرة والمسرحيات

ومن أروع كتب التاريخ كتاب السجل التاريخى الذى جمعه « زوفاتشيين » ويتناول بالتاريخ حقبة طويلة من الزمن تزيد على ثلاثة آلاف عام ؛ وهناك دواوين مختلفة لكثير من اعلام الشعر الصينى مثل الشاعر « لى تاى بو » والشاعر « روفو » ويقول « ويل ديورانت » نقلا عن « ارتز ويلى » من عادة الذين يكتبون فى الادب الصينى ان يذكروا « تتناجى » وهى اشعار تمثل فضلا عن ذلك جمال الزهر

واغاريد الطير وترانيم العندليب وقطرات البرد عندما تتساقط على ثغور الازاهير فى الرياض وقطع الثلج عندما تغطى هامات الجبال كالقطن المندوف وهى اشعار تصور كذلك مراحل الكفاح ومدارج الجهاد وتصيح فيها الحرية وتثور الدماء من أجل الدفاع عن الوطن وسلامة اراضيه .

وذخر الادب الياباني كذلك بالوان مختلفة متباينة من القصة والاقصوصة ، واذكر ان الكاتبة اليابانية المعروفة « موراساكس » كتبت قصة طويلة من اروع القصص فى اربعة وخمسين جزءا اطلقت عليها قصة « جونجى » وهى من الآثار الأدبية الكبرى التى يعتز بها اليابانيون اعتزازا عظيما .

والصين وهى دولة مشتركة فى هذا ، ومن الانجليز من يقولون : ان « لى تاى يو » اشهر شعراء الصين، أما الصينيون أنفسهم فيقولون: ان « دوفو » هو حامل لواء الشعر الصينى .

وربما كان الأدب الهندى أقرب الآداب الآسيوية المعروفة لدى العرب وترجم الكثير منها فى العصر العباسى ، كما نقل ابن المقفع الكتاب الهندى المشهور « كليلة ودمنة » الذى اظن انه لا يزال يدرس فى مدارسنا ويحفظ فى مكتباتها حتى اليوم .

وفى الادب الهندى كثير من القصائد والملاحم ، والقصص والمسرحيات مثل ملحمة « المهابهارتا » التى اعتبرها النقاد أعظم آية من آيات الجمال التى انتجتها آسيا وقال عنها « اليوت » : انها قصيدة أعظم من الالياذة وقد كتبها مائة شاعر وترنم بها ألف منشد ، ولست ادعو الى ترجمة هذه القصيدة ، انما أقول : اننا لابد أن نلم بهذا التراث الهندى الكبير بعض الالمام ، لان الرجل العادى فى الهند يحفظ الكثير من ابيات هذه الملحمة .

والأدب الهندى على العموم حافل بالروحانية العميقة ونحن بدراستنا هذا الادب نغوص فى أعماق الروح ، ونقترب من سرها ونحس برهبتها ونجلو الكثير من اسرار الطبيعة ، ونعيش فى حضنها كما يعيش الاطفال الأبرياء فى حضن امهم الرءوم وفى ذلك يقول الشاعر الانجليزى « بيرنز » فى معرض الحديث عن الشاعر الهندى « طاغور » : نحن نحارب ونجمع مالا ونملأ رءوسنا بالسياسات وكل ماهو كئيب فى فعله على حين أن مستر طاغور مثل المدينة الهندية نفسها قانع باكتشاف النفس ومستسلم لذاتيتها .

« أدب الساحل الأسيوى »

وقل مثل ذلك عن أدب بورما وكمبوديا ، وساحل الذهب واندونيسيا ، وليبريا ، وتايلاند ، وفيتنام ، والحبشة وغيرها من الدول الآسيوية والافريقية ، فلابد من اتخاذ خطوات عملية لتنمية التعاون الثقافى

والتعريف بآداب هذه الشعوب وتعليم لغاتها وتجديد العلاقات الثقافية القديمة وتنمية صلات جديدة فى نطاق العالم الحديث وبذل كل مرتخص وغال فى سبيل الوصول الى هذا الغرض ، ولا باس من عمل مامخصات لآداب هذه الشعوب وترجمة ما يمكن ترجمته من النصوص وتقديم التسهيلات الفعالة للتزاور بين هذه الشعوب وتزويد الطلبة والراغبين فى عمل الابحاث بكل الوسائل المعينة على البحث والدراسة، وحينئذ يتحقق المجال الثقافى الذى دعا اليه مؤتمر باندونج وايده بعد ذلك مؤتمر القاهرة الشعبى ، وابرزه السيد أنور السادات فى خطبة الافتتاح بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة .

« كنوز من المعرفة »

ان فى آداب الشعوب الآسيوية الافريقية كنوزا زاخرة من المعرفة التى تجلو صدأ النفس ، وتصقل صفحات العقل سواء فى الشعر أو النثر ، وتحضرنى الآن قصيدة رائعة من الشعر من ادب الملايو واضعها نموذجا لأدب هذه الشعوب الذى يهدف الى الحرية ويدعو الى السلام من انشاد شاعرة من الملايو :

« العالم حولى يغمره السرور ويغعمه الحبور ، والعصافير تغنى فى نشوة وبهجة ومراح ، وهى تنطلق فى الجو عبر الفضاء ، ولا يقف فى سبيلها حائل ولا يعترض طريقها عائق ، ولكننى سيئة الحظ عاثرة البخت بائسة المصير ، اننى رهينة محبس فى قفص من ذهب خائفة واجفة فى وسط أكداس الأرز .. ظمآى يحرقنى الظما وينهكنى الصدى فى بحر العسل .... عمياء لا تدرك سبيلها فى رائعة النهار وجلوة الضحى ، شقية بائسة بين صرح النهار وقصور الرفاهية والبهاء .... مغلولة اليدين بقيود حديدية ومصفدة بقيود قوية ... اطلقوا سراحى ... وفكوا اسارى بين هذه الأسوار ... اريد أن اطير مع الطيور ... واحلق مع العصافير وهى حرة تذهب الى شاطىء السعادة ... »

أحلام البحيرة

بين الشرق والغرب

انها أحلام البحيرة أو أشعار شعراء البحيرة ان شئت ... ولست أعنى بشعراء البحيرة هؤلاء الشعراء المعروفين فى تاريخ الأدب الانجليزى بشعراء البحيرة مثل كمبر لاند وكورد زورث الذى فتق آفاق المذهب الرومانسي لمن أتي بعده كلوردبيرون وجون كيتس وبيرس شللي وسير والتر سكوت وسوزى ذلك الشاعر الثائر الذى تأثر بالشرق وحضارة الشرق ، فجاءت بعض قصائده هائمة فى سحره متأثرة بآثاره ، بل انه قد تأثر بالف ليلة وليلة تأثرا قويا ظهر فى كثير من قصائده التى هى أشبه شيء بالخرافات والأساطير ، أو كلوردج ذلك الشاعر القلق الحائر وصاحب القصيدة المعروفة فى الادب الانجليزى « كوبلكان » والذى قال عنه بعض النقاد : ان قصائده أحلام ، وانه حين يكتب يحلم فهو يجوس بك بين دروب ملتوية مسحورة وقصور سحرية معمورة ، ويحوم بك فوق غابات ملتفة ليقابلك بكائنات رهيبة مخيفة .

لست أريد أن أكتب عن هؤلاء الشعراء الثلاثة المعروفين فى الادب الانجليزى بشعراء البحيرةالذين كانوا كثيرا ما يقفون أمامالبحيرة يملئون أعينهم بضوء الشمس البازغة حينما يمتع الصباح بضوء الشفق الذهبى وحينما يوشك الليل أن يهبط على الدنيا يصوغون من ضوء الشمس ورفيف الماء وهدير الموج الحانا عذابا وترانيم شجية انما أعنى بشعراء البحيرة ثلاثة شعراء آخرين من بحيرات مختلفة ومن أجناس مختلفة : احدهم انجليزى وهو ورد زورث ، والآخر فرنسى وهو لامارتين ، والثالث عربى وهو البحترى .

ولم تكن بحيرة البحترى سوى بركة المتوكل ، وقد كانت بركة جميلة مترفة تغنى بها الشعراء ، وترنمت حولها القيان وصدحت بين أرجائها النغمات .

وقد بدأ البحترى قصيدته بالميل على الديار والوقوف على الآثار كما كان يفعل الشعراء الجاهليون ، ولجأ الى هذه الطريقة الكلاسيكية أو هذا المذهب الكلاسيكى فى مستهل قصيدته فقال :

ميلوا الى الدار من ليلى نحييها	نعم ونسألها عن بعض أهليها
يارقعة جاذبتها الريح بهجتها	تبيت تنشرها طورا وتطويها
لازلت فى حلل للغيث ضافية	ينيرها البرق أحيانا ويسديها

حتى اذا ما انتهى البحترى من هذه المقدمة الكلاسيكية ـ ان صح

هذا التعبير ـ لجأ الى الذكرى وتراءت حياله صور من الماضي وتمثل أمامه طيف الحبيب ، وسبح خياله الذى قيل عنه فى الشعر العربى « خيال البحترى » :

قد أطرق الغادة البيضاء مقتدرا | على الشباب فتصبينى واصبيها
فى ليلة ما ينال الصبح آخرها | علقت بالراح أسقاها واسقيها
عاطيتها غضة الأطراف مرهفة | شربت من يدها خمرا ومن فيها

فلما انتهى البحترى فى أبيات مختصرة من ذكر الحبيب لجأ الى وصف البحيرة ، بل انه ربما مدحها كأنها شخص من الاشخاص ولجأ الى تفضيلها على غيرها :

ما بال دجلة كالغيرى تنافسها | فى الحسن طورا وأطوارا تباهيها

ويعد وصف البحترى للبحيرة من أرقى شعر الوصف فى الادب العربى ، فهو وصف فيه روعة وجمال ولكن قلما تهمس فيه الروح .!

فلو تمر بها بلقيس عن عرض | قالت هى الصرح تمثيلا وتشبيها
تنصب فيها وفود الماء معجلة | كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة | من السبائك تجرى فى مجاريها
اذا عدتها الصبا أبدت لها حبكا | مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها | وريق الغيث أحيانا يباكيها
اذا النجوم تراءت فى جوانبها | ليلا حسبت سماء ركبت فيها

ويستمر البحترى فى وصفه ذلك الوصف الذى اشتهر به فى روعة وجمال وخيال ، فكان كما قال ابن رشيق فى كتاب العمدة عنه وعن أبى تمام : انهما كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها :

فأما حبيب فيذهب الى حزونة اللفظ وما يملأ الاسماع بين التصنيع المحكم .

أما البحترى فكان أملح صنعة وأحسن مذهبا فى الكلام ويسلك منه دماثة وسهولة مع احكام الصنعة وقرب المأخذ لا تظهر عليه كلفة أو مشقة .

اما ورد زورث فقد نظم كثيرا من القصائد والاغنيات «والبالاد» فى اقليم البحيرة .

وقد بدأ احدى قصائده قائلا :

لقد آذنت الشمس بالمغيب
وآوى طير الماء الى الاوكار
ونشرت الريح الهوجاء الشباك
وهجعت أنفاس النسيم
وظلت كل موجة تكافح الاخرى

وبقيت الموجة الآتية من الاعماق .

يالها من أسطورة تحكى

سرعان مايدركها الرقاد

وينحسر الماء من جراء المد والجزر

ويثور مرة ويهدأ مرة أخرى

ويجتمع النور والظل فى صبح جميل

رائع يوقظ الخيال ويبعث على الأحلام

ولكن شعر وردزورث فى اقليم البحيرة ليس حيا كالبحترى ، انما هو شاعر مثقف درس بعضا من الفلسفة وعرف شيئا عن الطبيعة وما بعد الطبيعة ، فقد كان فى ـ ابان دراسته ـ فى جامعة كامبردج ، ولكن تفكيره فى الشعر كان يصرفه عن الدروس صرفا كما يقول كثير من النقاد ، فنرى فى قصيدته بعض اللمحات الروحية والتأملات الفلسفية مثلما يخاطب الطبيعة فى براءة فيقول :

ما البراءة ! أيتها الرحمة المقدسة !

وهكذا يأخذ وردزورث فى مخاطبة الطبيعة والتغنى بالخير والرحمة التى تتدفق من القلوب الناعمة الى ان يقول :

كل سكون يتعلل فى هذا الكون

وكل تبدل يتبدى على وجه السماء

فالعناية تتمثل ولكن لا تبدى رياء هو السرور

وخيرا ما هو السلام

فاما ترضى حكم العقل وعونه فى اباء

واما تعطى كل شىء فيه خمر وغناء !

وهكذا يتضح الفرق بين طبيعة الشاعرين البحترى وورد زورث : فقصيدة البحترى وشى جميل فيه موسيقى وفيه الحان حلوة الجرس رقيقة المعنى وفيها محسنات بديعية رقيقة ، أما قصيدة ورد زورث فلا تحرم هذه المميزات ، ولكنها أولا وقبل كل شىء تأملات روحية وذكريات حلوة تترى على ذهنه ليست مديحا او ما يشبه المديح ، وليست روح وردزورث هذه تظهر فى هذه القصيدة فحسب ، انما تظهر فى اغلب شعره ولا سيما فى ديوانه « قصائد غنائية » .

أما لامارتين فقد نظم قصيدته فى بحيرة بورجيه حينما ذهب الى بحيرة اكس سنة ١٨١٧ ، وأن من يقرأ هذه القطعة الرائعة من ادب لامارتين يتمثل قوله فى الشعر « انى أغنى يا أصدقائى كما يتغنى المرء ويغرد الطير ويصفر الهواء ويهدر الماء » . « أهكذا قدر لنا دائما الاندفاع صوب شطئان جديدة فى هذا الليل الخالد دون ان نملك الرجوع فى خضم السنين المتلاطم الامواج الى يوم نلقى لديه المراس .. »

ويأخذ لامارتين يخاطب البحيرة فى أسلوب جميل يسيل رقة وعذوبة وتتضح سلاسته وسهولته ويذوب لوعة وشوقا :

« أنظرى أيتها البحيرة فالعام أوشك أن يفنى وانا وحدى بجانب أمواجك الغزيرة اجثم على هاته الصخرة التى كنت ترينها جالسة عليها ! »

ويمضى لامارتين فى قصيدته مصورا ليلة قضاها مع صاحبته جوليا فوق صفحتها الرقراقة وأمواجها الدفاقة وأشجارها الطاعنة فى عنان السماء وأطيارها المترنمة بين الأجواء ، ويأخذ لامارتين يخاطب الزمن فى لهجة كبيرة ونبرات حسيرة : « أيها الزمن السارق ويأيتها الساعات العذاب . قفى جريانك وامنعى سريانك ودعينا نتمتع بذاتنا العاجلة وأجمل أيام حياتنا ... »

ويسرف لامارتين فى نظراته وتأملاته الميتافيزيقية ، فيأخذ فى مخاطبة الأبد والعدم والماضى بعد مخاطبة الزمن الحاقد الجاحد فيقول :

« حدثنى أيها الابد ! أيها العدم ! أيها الماضى !

ماذا تصنع بهاتيك الأيام التى تطويها !

أما تعطينا أوقاتنا الجميلة التى قيل عليها العفاء ... !

ثم ينتهى لامارتين فى قصيدته بتسجيل محبته الباقية على ممر الزمان لجوليا ، فتشهد الطبيعة ويشهد النسيم على حبهما وهكذا كان لامارتين يريد أن يشعر فغنى كما كان يقول القدماء ، وصدق تعريفه للشعر بانه غناء الباطن ، فقد جاءت هذه القصيدة صورة جلية واضحة عن نفسيته ووشتها بأبهى اطار ، ولكنها لم تكن مزدحمة بالصور الحية والمحسنات اللغوية التى نجدها عند البحترى . انما كانت روحا تحلق فى الأجواء تغنى كما يتغنى المرء ويغرد الطير ويصفر الهواء ويهدر الماء !

فلسفة الألوان فى الغرب

أنكر كثير من الفلاسفة المعرفة عن طريق الحواس زاعمين أن الحواس خادعة متغيرة ، فلا يمكن أن تكون مقياسا للأشياء ، فانت تتصور ان وراء السراب ماء وليس هنالك ماء وأنت ترى العصا المعتدلة منكسرة فى حوض الماء وليس هنالك انكسار وانت تخرج من الحجرة الدافئة فتشعر ببرودة أزيد مما هى فى الواقع وليست هنالك برودة ، وعولوا فى حكمهم فى أكثر الأشياء على العقل ، فجعلوه الأساس الاول فى المعرفة ·

ومن الحواس التى ينعم بها الانسان حاسة النظر ، ومهما يكن قول الفلاسفة فى هذه الحاسة او ايمانهم بها أو كفرهم بحكمها فانها موجودة ونحن نرى الأشياء والاحياء كما تتراءى لنا ·

ويقول كثير من الفلاسفة : ان الالوان التى تراها العين لها تاثير فسيولوجي وسيكولوجي خاص اللهم الا اذا كان المرء مصابا بالعمى اللوني ، فهذا يخرج باضطرابه عن نطاق حديثنا فانه يرى اللون الاحمر مثلا أسود بطبيعة عينه وهلم جرا ·

ومن القواعد المتفق عليها ان الضوء ليس بسيطا بل هو مركب وأننا يمكن أن نحلله بمنشور زجاجي خاص فتتراءى لنا أطيافه السبعة ·

ومن القواعد المتفق عليها كذلك أن لكل لون من هذه الألوان ميزة خاصة لاتقتصر على الانسان، بل تمتد الى الحيوان والنبات، ولعلنا نعرف مبلغ هياج « الديك الرومى » من اللون الأحمر اذا ما رأى طربوشا أو شيئا من هـــذا القبيل ، وذلك لأن اللون الأحمر لون صارخ يبعث على الانتباه والنشاط وربما كان من الاسباب التى تدعو الاطباء الى نصح المرضى ولا سيما المرضى بالجدرى والحصبة بارتداء الملابس ذات اللون الاحمر فهو أحد الوان الطيف ولا ينفذ فى الاقمشة الحمراء ، وبسبب عدم نفوذه يضعف ميكروب هذا المرض الذى يزداد بتأثير هذا اللون اذا نفذ من الاردية ذات الالوان الاخرى .

وقد ثبت لدى الدكتور بينو ان اللون الاحمر يســاعد على التئام الجروح ولعل هذا هو السبب فى ايثاره لمحلول الفكسين فى التغيير على الجروح او فى كون بعض المطهرات ذات لون احمر كالديتول والميكروكروم

ويقول الدكتور ساروبان أحد أطباء النمسا : انه يمكن تلوين الطيور بأن يضاف الى طعامها شيء من الانيلين وانه جرب ذلك فى الحمام فلون بعضها بالأحمر الزاهى والبعض الآخر بالأزرق السماوى ولون أطيار الكنار بالوان قوس قزح الجميلة ·

ويقول الفيلسوف الالمانى شبنجلر : ان الازرق والاخضر لونا السماء الصافية والبحر الخضم والسهل المريع فهما لونان جويان فى جوهرهما باردان يسلبان الاشياء اجسامها ويثيران الشعور بالسآمة والبعد واللانهائية .

أما الأزرق فهو لون المنظور على صـــلة وثيقة بالظل والظلام وأما اللون الاحمر والاصفر فهما لونا المـــادة وما هو قريب وما هو شعبى يجارى ، فالأزرق اذن لون العمق والبعد ، والاحمـر لون السـطحية والقرب ...

الأزرق .. عدم ساحر .. كمـــا يقول الفيلسوف الالمانى جيتـه والاحمر جسم نفاذ .

ويرى كثير من العلمـــاء أن اللونين الأزرق والبنفسجى مهدئان للأعصاب ومن هنا أتت فائدة الأشعة البنفسجية التى يصفها كثير من الأطباء للمرضى ولا سيما الاطفال المرضى بالكساح .

هذا وقد أثبت العلماء أن المعرضين للنور القوى من أشعة الشمس التى تحتوى على ألوان متعددة من الضـــوء يكون لونهم أسمر والمعرضين للنور الضعيف يكون لونهم أبيض وشعورهم شقراء وعيونهم زرقاء كما هو الحال فى الجنس النوردى على العكس من الجنس القوقازى أو الزنجى .

ويرجع العلماء السبب فى اختلاف اللون الى أن فى بشرة الجلد طبقة من الحويصلات الصغيرة فى باطنها مادة ملونة يختلف لونهـــا فى البيض والحمر والسود وهـــذا اللون يشتد ويضعف باشتداد وضعف أشعة الشمس .

ويعد اللون الابيض آية الطهر والنقاء اما الاسود فدليل الحزن والقتامة وان كان بعض الشعوب يستعملون اللون الابيض عند الاحزان، أما اللون الاخضر فرمز الربيع الاخضر والدوح المورف والشجر المورق، وعند بعض الناس رمز الشيطان المارد والاجواء التى تستحضر فيهـــا الارواح ، ويعد اللون الاصفر عند العشاق رمزا للغيرة لان له خاصية معينة فى اثارة لون معين من المشاعر .

وقد كان الصينيون اذا رغبوا فى التنكيل بأحد سجنوه فى غرفة طلى كل جدرانها وأثاثها بلون واحد لان ذلك يدعو الى ضيق النفس ، وقد ذكر ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى فى كتـابه الفخرى فى الآداب السلطانية ان رجلا راف بحال أحد الخلفاء المسجونين على هـــذه الصورة عند الأتراك فلبس سروالين أحمرين ودخل خلسة بهمـــا على الخليفة وسلمهما له ، لكى ينظر الى لونهما من حين الى حين ، فيخفف ذلك آلامه من النظر الى الغرفة الصفراء التى كان يقيم فيها .

ومن الطريف أن المدارس الامريكية تعمد الى بعض تجارب لتثبت ميزة أحد الالوان على الآخر لتطلى به غرف مدارسها كما هو الحال فى ليفربول بانجلـــترا ، ومن الطريف كذلك أن أحد العلمـــاء النفسانيين الامريكيين أجرى استفتاء فى أسباب الحب فخرج بأن الوان أزياء النساء تؤدى دورا خطيرا فى هذا المضمار ... !

عالم غربى

يضع الوسائل الى السعادة

اندريه موروا

من الكتب الخالدة التى ألفها الكاتب الفرنسى الذائع الصيت أندريه موروا André Maurois كتاب العواطف والطبائع Sentiments et Coutumes وقد صور موروا السعادة فى هذا الكتاب تصويرا خلابا وجذابا ، وخلق منها فنا من الفنون له سحره واغراؤه وله رواده وعشاقه ، ويمكن الانسان ان يحسنه وأن يتقنه بكثير من التجربة وكثير من المران .

وقد قيل : ان السعادة أن تظفر بشىء حبيب الى نفسك قريب الى قلبك دون أن تتحول عنه أو يتحول عنك ، ولكن هذا التعريف لا يطابق الواقع ولا يجارى الحياة ، فاللحن العذب لا يلبث أن ينتهى ، والاغنية الحلوة لا تلبث ان تسكت ، والشخص الحبيب لا يلبث أن يغيب فكل شىء يخبئه لك الغد ، فماذا تحمل لك الايام فى جعبتها ؟

ان الايام دول فاترك الأوهام والاحزان واغنم ساعة الصفو فانما الغيب عند علام الغيوب .

ويذكر أندريه موروا كذلك ان السعادة لايمكن ان تجتنى بغير العمل والتفكير الذى لا يسوق الى عمل ينطوى على ضرر ، ومن يفكر لا يعمل ومن لايعمل يزرع الفساد ، فالبستانى فى الحديقة يعمل فى صبر ونشاط ويعنى بزرعه ويحوطه برعايته ثم يفخر بثمرة محصول تعبه وكده . واحساس البستانى هذا هو الاحساس الذى يشعر به كل فنان مجيد وكل مبتكر او أديب .

ويعتقد موروا أن الحب من أسباب السعادة سواء بدأ بين كائنين من البشر أو انتهى الى حب الانسانية ، والسعادة لا يمكن أن تمنح انما تتبادل ، وكلما بادلك صاحبك الحب وشاركك فى عواطفك كانت سعادتك جاثمة بين يديك ، ولهذا كان الزواج فى بعض الاحيان لونا من الوان السعادة الصادقة ، ومن هنا فطن كثير من الكتاب القصصيين مثل ستندال الى هذه الحقيقة ، فجعلوا لذة الحب تطغى على شقاء المحب وتزيل أتراحه واشجانه ولو كان الموت قاب قوسين او أدنى ! كما حدث بين (فابريس) بطل قصة ستندال وبين (كليلت) التى كانت تزوره فى سجنه زيارات خاطفة .

فنحن اذن يجب ان ننعم النظر فى مدلول السعادة ونعلم ان السعادة ليست هى اللحن ، وليست هى الأغنية وليست هى الشخص الحبيب انما

هى حالة نفسية تطبع الحوادث بطابعها الخاص وتلبسها فى اعيننا رداء زاهيا براقا . فاذا تمنينا الدوام لشىء فانما نتمنى الدوام للحـــالة النفسية لا للحوادث .

ويرى اندريه موروا André Maurois ان الفقر والمرض من اشد العقبات فى سبيل السعادة غير أن هنالك أناسا لا يستطيعون أن يحكموا على الأشياء حكما صحيحا مصيبا ويرون أنفسهم فقراء وهم ليسوا فقراء ويرون انفسهم مرضىوهم ليسوا مرضى، هؤلاء هم ضحايا الوهم، وكثير من الناس يصرون على اثقال انفسهم بالهموم وملء قلوبهم بالاحزان ، وينكرون عليها صفاءها بتخيل نكبات بعيدة مثلهم فى ذلك مثل الرجل المفكر الحزين الذى انزوى فى ركن بعيد من اركان حديقة غناء وجلس ساهم الفكر مبلبل الفؤاد ، فلما سعى اليه موروا يسأله عن سر اكتئابه علم انه يتوقع نكبات مالية بعد مضى عامين فقال له موروا :

أتدرى يا سيدىأن التفاؤل خير باب الى السعادةوكلما كان الانسان أكثر تفاؤلا كان أكثر سعادة وكانت الحيـــاة فى عينيه ذات لون وردى بديع ، على العكس من الشخص المتشائم الذى يشعر بالبرد القارس اذا هب النسيم او جرت الريح وتبدو الحياة فى عينيه أضيق من سم الخياط

والنسيان فى بعض الاحيـــان من أقرب الأبواب الى السعادة فى رأى موروا ، فعلى المرء أن يتعلم الصفح عن الذنوب ونسيان الأحقاد اذا اراد ان يكون سعيدا ، والانسان بطبعه يميل الى النسيان وانه اشد ميلا الى نسيان ما يثير فى نفسه اللوعة والشجن ، على أن كثيرا من النـــاس يهملون استغلال هذا الميل الطبيعى الى النسيان ، ومن هنا يتسع المجال لذكرياتهم المؤلمة وخيالاتهم المريرة فيحرمون السعادة ويتجرعون كأس الشقاء .

وعناصر السعادة قليـــلة وأسبابها كامنة فى داخل النفس وهى أرسخ ما تكون اذا قامت على حب الخير ونقاء السريرة .

فلنتمسك بأهداب السعادة ان ظفرنا بها ، ولنحرص عليها حرصا شديدا ، ولنحاول أن نتبادلها ، ونضع نصب أعيننا دائما تلك الاسباب التى كانت سببا فيها كالتعقل والرحمة والاعتدال ، لان الانتصار يولد الغرور والطغيان فى بعض الاحيان فاذا بالسعادة تنقلب الى شقاء .

ومن الوان السعادة ان نعرف الى اى حد كان يمكن أن نـكون تعسين .

كاتب غربى وزوجة ملهمة

احتفلت فرنسا بل احتفل الادب فى العالم اجمع بالكاتب أندريه جيد ، وقد كان فتى كاسف البـــال حاد القسمات ، كانت عيناه تنفثان ببريق حاد غريب .

وكانت شفتاه مرمريتين تنبضان بالرغبة وترقان بالنشوة كمـا لاحظ اوسكار وايلد عندما رآه لاول مرة .

وكان شعره ينسدل خلف اذنيه ، ولكنه كان خجلا حيبا الى حد بعيد ، ولعله يذكر ذلك اليوم الذى بلغ فيه الطفل أندريه جيــد الحادية عشرة من عمره ، وحدث أن ابن عمـــه الطفل الصغير (أميل) فاضت أنفاسه أمام عينيه ، فحاولت أمه أن تخفى الخبر عنه ، ولكنه سمع همس الكلام عن الحادث الاليم فجرفه حزن عنيف وانفجر باكيـــا فى حسرة تفتت الاكباد وتذيب القلوب .

ولعل الطفل اندريه جيد يذكر ايضا ذلك اليوم الذى جلس فيه الى أمه وحيدا فى حجرة المائدة ... وما لبث أن ارتمى بين أحضانهـــا ينتحب حتى بال ثوبها بدمعه الهتون وهو يقول لست كالآخرين ..!

لقد كان الفتى الصغير يدرك الموت فىالحادثة الاولى فبكى وانتحب .. اما فى الحادثة الأخرى فقد عرف مصير الأحياء ونهاية البشر فغرق فى بحر من الدموع ...

كان الفتى اندريه جيد يحب الموسيقى ويسره ايقاعها، وكانيجلس الى (البيانو) يعزف روائع فاجنر وشوبان او بيتهوفن وتتصاعدالالحان الحبيبة من بين أنامله كاطيار حلوة جميلة تتلاحق فى الاجواء وتتسابق الى العشاش .

وكان الانجيل رفيق الفتى جيد ومن بلاغة وروعة اسلوبه تعلمحلاوة اللفظ ورقة الموسيقى وعذوبة الايقاع .

لم تكن ايام اندريه جيــد فى مدرســته بهيجة هانئة ، بل كانت بائسة نحسة وكانت تنتابه بين الحين والحين بعض المشاق فى الدراسة الا انه كان يتغلب عليها فى النهاية وينكب على العمل حتى قال عنه عمه ذات مرة (ان جيد سيكون دائما محبا للعمل .)

وكان اندريه جيد يكره تلك الامتحانات المدرسية التى تسير على نهج سقيم وطريقة مرذولة ولكنه كان يحفظ كثيرا من الشعر ويطلع على تراث الاقدمين .

ولشــد ماكان يؤلم اندريه جيــد أن يظل دائما رهين محبسه ، فكان يجوب وينتقل ويتمثل بقول بسكال : (ان الاحتباس فى الغــرفة سر بؤس

الانسانية) . ولشد ماكان الفتى يهوى اطيار (الكناريا) غير ان حبه وولعه لم يات الا على اثر حادثة ارتاعت منها نفسه وفزع منها قلبه : فذات صباح فى مستهل عام جديد كان على اندريه ان يذهب ليقبل مربيتـه آنا ففعل ورجع فرحا مسرورا تملأ الغبطة اعطافه من نفسه ومن السماء ومن لاشيء واخذ يبنى الآمال الكبار وهو فى طريقه الى البيت فى الطريق الذى اعتاد ان يسير فيه وهو طريق سانت بلاسيد وعلى حين غرة ، وكان الوقت قرب الظهيرة والنهار منبلج والشمس شديدة الوقدة ، شعر بشيء يسقط نحوه فى شدة كقطعة متوهجة من الشمس واخترق ذلك الشيء ... الظل القريب منه .. ولطمه بجناحيه واستقر فوق قبعته ورفع الفتى الصغير عينيه الساجيتين فوجد طائر الكناريا مستقرا فوق راسه يرتجف مثل قلبه الذى يملأ صدره فتراءت الغبطة على محياه وسكت عنه الغضب ، وادرك ان الطير الصغير كان ضعيف البصر ، فهوى فوق راسه مصادفة .

اخذ الفتى الرقيق يتعلم فى المدرسة ، ولكن المرض لم يمهله بل كان ينتابه بين الحين والحين وفى ذلك يقول فى مذكراته : « وفى اليوم الذى سمح لى فيه بالنهوض شعرت باعياء ، فتحاملت على نفسى للوقوف بعد ان مكثت ثلاثة اسابيع فى الفراش .... ليت شعرى ماذا كان يحدث لو ان المرض اشتد على اكثر مما اشتد ... ؟ اواه اننى اشعر براسى يهبط فوق جسمى واشعر بجسمى يكاد يهوى على الارض ، ان الخيال يشعرنى براحة وسعادة تسكنان من قلقى وتهدئان من روعى .

واخذ اندريه العليل يعوده الاطباء حتى استطاع ان يشد ازره ويرجع مرة ثانية الى المدرسة حيث ينتظره اصدقاؤه واحباؤه على مضض .

وشب الفتى وترعرع ودخل فى عنفوان العمر وزهرة الشباب ، وهنا حدث حادث هام غير مجرى حياته كما تغير الثورات الكبرى تاريخ الشعوب على حد تعبيره ، ذلك انه حدث حادث هام جعله كالأعمى الذى خلق أعمى الا انه أصبح بصيرا ... اصبح بصيرا يستمتع بمنظر الطبيعة الخلاب ووجه السماء الفضية الزرقاء التى تستهوى الافئدة والابصار .

لقد عرف الفتى ابنة عمه (مارلين) او امانويل كما كان اندريه جيد يطلق عليها واقتربت دارهما بعد ابتعاد واتصل بها بعد ماكان بين الاسرتين صمت لايغرى بشيء ، ونشات بين اندريه وامانويل صداقة مكينة لم تلبث ان تحولت مع الايام الى حب جارف ، حب لايعرف الضعف ولا الفتور ، حب متقد يسرى فى الجسم مسرى الدماء فى العروق والروح فى البدن والانفاس فى الصدور ، وذات اصيل ذهب اندريه جيد الى بيت ابنة عمه امانويل ، ولكنه لم يجد احدا فى الدار فآب الى داره ، ثم عاودته نفسه أن يعود اليها مرة ثانية فوجدها مطرقة الراس كسيرة النفس ممزقة الفؤاد ، ولمح دمعتين كبيرتين تنسكبان من عينيها فى شجن والم .... !

كانت امانويل تعيش فى بيت غير بيت ابيها وكانت امها متزوجة من شخص غريب ، فحاول اندريه ان يخفف من حزنها الا ان امانويل ابت ان تبوح له بسر شقائها فى البيت ، فعاد اندريه أدراجه ، الى منزله فى حزن حزين ، ومنذ هذه الفترة كما يقول فى مذكراته ادرك اندريه جيد معنى الحياة ومعنى الالم ، وصمم على خوض غمارها بعزيمة لاتلين .

ويقول اندريه جيد : ان السعادة القصوى التى كنت ارنو اليها واحلم بها كانت تأتى الى عندما ارافق مارلين ولم اكن افشل قط فيما كنت ارغب فيه ولم يكن فرحي مكتملا الا اذا شاركتنى هى فيه وفى الكتب التى كنت اقرؤها كنت اسجل الحرف الاول من اسمها الجميل فى هامش كل جملة تستحق اعجابنا وتسترعى انظارنا وتثير حبنا وشوقنا ان الحياة لم تكن شيئا بدونها... وكانت عبثا ، وكانت شططا لافائدة منه ولا خير فيه .

كنت امنحها احدى روائع دى موسيه او لامارتين لتقراها ، فاذا عادت الى كنت اقبل الصفحات التى قراتها والسطور التى وقعت عيناها عليها ... وكنت اشعر بسرور لايعدله سرور كلما تجلت امامى بوجهها النورانى الجميل واتخيل انها ترافقنى فى كل مكان حتى فى المنطقة التى تسمى (روك) فى النزهات الصباحية حيث كنت اساعدها فى اجتياز الغابة ، وكنا نخرج عندما يكون كل من فى البيت نائما والكرى باخذ بمعاقد الاجفان ... والحشائش مخضلة بالندى ، وزهرة الفجر تبتسم على فتنها ، وكان شعاع الصباح ينبثق من الافق البعيد ، وتدوم بيننا احيانا فترة صمت طويلة يسكت فيها اللسان عن الكلام وتبدأ فيها العيون بالنجوى .

وهكذا ظل اندريه جيد يرتشف كئوس الحب دهاقا مع مارلين فى ظمأ ولهفة حتى عقد قرانهما معا فى ٨ من اكتوبر سنة ١٨٩٥ وتحولت امانويل او مارلين الحبيبة الى زوجة كريمة تحب زوجها وتسعى الى جلب السعادة الى قلبه وبيته .

وقد صرح اندريه جيد فى مذكراته بانه لولا اوضاعه الدينية ولولا امانويل زوجته ما استطاع ان ينتج كتبه ومؤلفاته وما أخرج اندريه : والتر والباب الضيق والسمفونية الريفية ... بل ربما كان لايستطيع اخراج « المزيفون » كذلك وغيرها ، ففى مؤلفات اندريه جيد نلمح كثيرا من الصور التى تشابه صورة زوجته فى اقوالها وفعالها وتحمل طابع زواجه منها وتصرفه معها ، وقد كتب فى مذكراته فى ديسمبر سنة ١٨٩٥ أن امانويل اليوم متعبة والطقس ردىء ، وفى المساء لم تستطع امانويل ان تشاركنى فى لعب الورق وآوت الى فراشها كى تنام وطيلة مساء اليوم كان الى يشتد لانها ليست فى رفقتى ، ولاتفكر معى ، وكلما فتح الباب او ارتفع صوت انينها وازداد ارقها اغرقت فى الدعاء والصلاة .

ترى اى خاطر يجيش فى نفس امانويل فى هذه اللحظة ... ؟

ومن يقرا مذكرات اندريه جيد يدرك مدى تعلقه بزوجته لقد كانت.

ملهمته وهيأت له جو الانتاج الفكرى والروحى دون اى توجيه مباشر منها . وكان جيد يحسن وصف الحب فى قصصه حتى احبه الشباب الفرنسيون حبا بالغا ، وظفر بجائزة نوبل فى الادب منذ سنوات .

وقد دفعته صراحته أحيانا الى الانحراف فثار عليه كثير من الناس وفى غضون الحرب الاخيرة قابله المستر تشرشل ووجه اليه اللوم قائلا: متى تنتهى عن قصص الحب والغرام يامسيو جيد وتعمل على انقاذ البشرية من براثن النازية التى تهددنا ـ بشىء اهم من قصص الحب واقوم من حكايات الغرام .. ؟

استمع اليه وهو يقول فى السمفونية الريفية التى تعد من اروع انتاجه الادبى بل من أروع الآداب الحديثة « ايه يا رباه .. امن اجلنا جعلت الليل عميقا جميلا ... امن اجلى انا يامبدع السموات والارض؟ ... النسمات وادعة رخية ، ونور القمر يتسلل من النافذة وينسكب فوقى ويغمرنى بتيار من السحر ، واذنى ترهف السمع الى دعةالسماء وسكينتها !... وتجتاح قلبى روحانية صامتة ... رباه !

ليس للحب حد ولانهاية ... انما الحد والنهاية من صنع البشر لا من صنع يديك .. يا رباه .. ليس فى مقدورى أن انزع الحب من قلبى واخفيه من جوانحى اللهم الا بعد انتزاع ذلك الخافق بين الضلوع ... »

هكذا كان جيد رائعا فى تصوير المشاعر الانسانية الا انه كان صريحا ينادى بمبدأ المتعة ويدعو الى التحرر فاى نعيم واى سعادة مادام المنال عصى الطلب على السواد الاعظم من الناس ؟ .. ومن هنا وجدنا فى كتابات اندريه جيد صراحة قلما نعثر على مثلها عند غيره من المفكرين والادباء .

حضارة الغرب فى العالم الجديد

يتكون الشعب الامريكى من مزيج من الاصول والسلالات ولكنه برغم ذلك قد كون له طابعا يختلف عن الطابع الاوربى بحكم تطور الزمن واستقلال امريكا .

وحضارة الولايات المتحدة هى حضارة الصناعة التى تعمم الرخاء وتعمل للثروة .

والعوامل الاقتصادية هى الاساس الذى تقوم عليه الحضارة الاوربية الامريكية على السواء وما فى الولايات المتحدة من سمات تختلف عما نراه فى سائر الاقطار انما يعزى الى تقدم الصناعة ، وقد جاءت بذرة الحركة الصناعية الى الولايات المتحدة من اوربا ، ولكنها لم تزدهر فى اوربا قدر ازدهارها فى امريكا .

والحضارة فى الولايات المتحدة الامريكية تعتمد فى اكثر اصولها على الصناعة ، والكميات الضخمة التى تنتجها الولايات المتحدة بالمشروعات الحرة رفعت مستوى المعيشة فى كل مدينة او قرية وتمكن ٦٨٪ من التسعة والعشرين مليون عائلة فى الولايات المتحدة من امتلاك سيارات خاصة بها وتهيأت الفرصة لعائلة كل عامل لامتلاك آلة تبريد وآلة غسيل وتليفون وغيرها من وسائل الراحة والاستمتاع .

ويبلغ متوسط عدد الصناعات الجديدة التى تظهر سنويا برءوس اموال الافراد ٢٠٠ الف صناعة .

وهكذا كانت الحضارة الامريكية تدعو الى النمو الاقتصادى وازدهار الاحوال الاقتصادية حتى ان الاخلاق والاسرة ومركز المرأة ونظام الحكم اصبح اليوم فى امريكا تابعا للاحوال الاقتصادية ، فالاسرة كتلةاقتصادية تتمسك بالمصالح المادية التى تربط الأبوين وأبناءهما بحيث اذا تراخت هذه المصالح تفككت هذه الكتلة .

وتقوم الحضارة الامريكية كذلك على العلم ، فالفرد الامريكى يؤمن بالعلم ايمانه بالصناعة ولا يفكر الا فى استغلال العلم والتمتع بمنتجاته دون أن يعبأ كثيرا بالجانب المعنوى لنفسه ودون أن ينعم النظر فى العالم الباطنى الذى يحمله فى قلبه وروحه .

واذا كانت أوربا تعتمد فى كثرة الانتاج على سياسة الجهد وترغيب العمال فان الامريكيين يعتمدون فى ذلك على مخترعات العلم الحديث وعلى الآلات الجديدة التى تزيد الانتاج وتقلل ساعات العمل ، بل أن الزوجة

الامريكية نظرا لما تستخدمه من طرائق العلم الحديث فى منزلها يمكنها أن تترك البيت لتعمل خارجه دون اهمال لشئونه .

ولقد دفعت هذه الروح الصناعية البحتة للحضارة الامريكية وهذه النزعة المادية الصرفة للعقلية الامريكية - دفعت نخبة من الكتاب الامريكيين الى الثورة على الاوضاع الراهنة مثل الكاتب الحر « شرود اندرسون » الذى لاتعجبه الحضارة الامريكية بما فيها من سيطرة للآلة، ويفزع الى عالم التامل والاحلام، وشيع هذه الحضارة بالسخرية اللاذعة والتهكم المرير حينا أو بالفرار الى الطبيعة حينا او الالتجاء الى الطفولة وعالم الاحلام حينا آخر .

وكذلك قام (سنكلير لويس) بمثل هذه الدعوة فكتب قصة (بابيت) التى هى صورة مروعة لمخلوق هزيل هو نتاج الحضارة الصناعية . وقد اخذ لويس يرسم لهذا المخلوق صورة رائعة من نفسيته وتصرفاته ، فهو انسان لا شخصية له يشغل مركز وكيل عقارات ويحيا حياة ملؤها الحركة والعمل والنشاط لانه آلة لانتاج الدولارات غير انه فى الخامسة والاربعين من عمره يحس انه على شفا الهاوية وقاب قوسين او ادنى من الموت ، وانه لم ينعم بعمره ولم يستفد من شبابه ، فيقذف بقلبه فى احضان الحب ويهرع بعقله الى أكناف الفكر الحر المتمرد على الاوضاع الراهنة .

وليس معنى هذا ان شرود أندرسون او سنكلير لويس او غيرهما من الكتاب والمفكرين فى أمريكا يريدون انتزاع الحضارة الامريكية من أصولها الصناعية ومقوماتها الآلية ، انما ينادون باصلاحها واستكمال اوجه النقص فيها وجعلها مقرونة بفضائل القلب والروح أيضا .

ولا يحفل الشعب الامريكى فى حضارته كالشعب الانجليزى مثلا بروح التقاليد ، انما يمتاز بالتجديد ،فالتجديد سائر على قدم وساق فى التعليم بفضل جون ديوى وغيره من المفكرين المجددين فى هذا الميدان . كما أن التجديد قائم فى فن العمارة، وما ناطحات السحاب الا لون من التجديد والاختراع فى فن العمارة الذى قلما نجده فى أوربا أو فى العالم الاسلامى والعربى بوجه عام .

ويمتاز الامريكى كذلك فى حضارته بشدة الثقة فى نفسه ولا يعبأ بالتقاليد الاجتماعية ، ويرجع موقفه هذا الى الظروف التى تكونت فيها أمريكا ، ففى واشنطون - على ما جاء فى رواية قديمة - يجد السفراء الاجانب مشقة اليمة فى الحصول على الخدم . وما من أمريكى يقبل أن يرتدى زى الخدم، وليس ثمة مايدعو اى أمريكى الى ذلك، فالسفراء مضطرون الى اختيار خدمهم من بين الأجانب الذين سرعان ما يتركون هذا العمل اذا ما وجدوا عملا آخر لا يفرض عليهم زيا خاصا ...

وكان السواد الاعظم ممن جاءوا امريكا من الطبقتين الفقيرة والوسطى ، ولما كانت مشقات الحياة فى العالم الجديد قد عجمت عودهم وخبرت قناتهم واكسبتهم شدة فى البأس والمراس وجعلتهم أكثر اعتمادا

على انفسهم فقد فقد الامريكيون كل اهتمـام بالمركز الاجتمـاعى او اكتراث به .

وهكذا لم يجد أحد فلاحى فرجينيا وهو متمتع بتمام قواه العقلية غضاضة في أن يقول للورد بلتيمور في وجهه أنه كذاب أشر ، وان يهدده بلكمة يدمي بها وجهه ، وان يتحدث عامل صغير فى (سيرك) لترويض النمرة والاسود ويدعى بارنام الى الملكة فيكتوريا فى قصر بكنجهام كأنه يتحدث الى اية سيدة فى الولايات المتحدة الامريكية .

وتقوم المراة في الولايات المتحدة الامريكية بنصيب كبير فى تدعيم الحضارة الامريكية والمشاركة فيها بكل قواها . وبالولايات المتحـدة الآن نحو ١٢ مليون امراة يعملن فى المصانع والمكاتب ويعملن وهن فتيات او عوانس تقـدمت بهن السن أو متزوجات لا يمنعهن الزواج من التـكسب خارج المنزل ، وقد رفع الامريكي المرأة الى أعلى منزلة وأسمى مكانة ولهـا الحل والعقد فى جميع شـئون التربية والمنزل ، ويرجع ذلك الى ان المرأة وقفت الى جانب الرجل وعملت معه فى جهود الاقتحام والارتياد واظهرت شجاعة ممتازة وكفاية منقطعة النظير فى تدعيم كيان الشعب الامريكى .

وقد قيل : ان الحضارة الامريكية لاتعبأ بالفنون ولا تكترث بالآداب الرفيعة ، ولكن هذا القول فيه كثير من الجور وعدم الانصاف ، وهذا لايمنع أن أمريكا مقصرة بعض الشيء فى هذا الباب لزيادة الآلات كالسينما التى طغت على المسرح، كما أن الفنون الجميلة محتاجة الى قرون طويلة حتى تنضج وتزدهر .. وامريكا امة حديثة .

وقد قامت نخبة من المفكرين الامريكيين منهم سنكلير لويس وتيود وروديز ابتون سنكلير وغيرهم بدعوة صريحة فى العصر الحديث لحفظ الآداب الرفيعة والفنون واعتبارهما قاعدة الحضارة الحقيقية وتقديس ما توحى به من رغبة فى طلب الجمال والسمو بالنفس وتلطيف الشهوات .. والسمو بالاخلاق وبث روح المحبة الصادقة والاخاء التام بين أبناء الانسانية جميعا .

تلك هي ملامح فى الحضارة الامريكية وهى تدل على بوادر طيبة ومظاهر نافعة سوف تنمو على مر الايام وتزدهر .. وتنتج من كل زوج بهيج ...

من عجائب العلم والاختراع فى الغرب

فى كل يوم يمر يأتى لنا العلم بشىء جديد ... شىء لم يكن فى الحسبان وهو أشبه بالخيال وأقرب الى الأحلام ... غير أن سلطان العقل البشرى أخرجه الى دنيا الحقيقة وعالم الوجود .

ومثال ذلك أنه أمكن بأساليب كيميائية جديدة منع الأرض أن تشرب الماء وتجنيب الطرق من الأوحال ، ففى أماكن كثيرة فى الولايات المتحدة وفى بعض البلاد الاخرى أمكن أن تلبس الأرض وقاء لا ينفذ منه الماء ، وذلك باستعمال مقدار يسير من مادة صمغية (رانتجية) تخلط بتراب الارض وتمد على سطحها . ولا يزيد عمقها على بضع بوصات ، وليس هذا الغطاء الذى يغطى التربة أشبه بالاسفلت الذى يغير شكل التربة انما هو غطاء يظهر التربة كما هى فى الصورة ، بيد أنها تختلف عن غيرها فى الواقع . واذا انهمر المطر سال الماء عنها الى الخنادق او بخر دون أن يخترق السطح .

وقد بسط هذا البساط الكيميائى الواقى على الطرق الترابية فى جنوب الولايات المتحدة وبنما وغينيا . وظل طريق ترب فى ولاية مسيسبى - بعد أن عولج بهذه الطريقة - جافا صلبا طوال فصول المطر الغزير .

ومن فوائد هذا البساط أنه يمنع نمو الحشائش والاعشاب فى أفنية المصانع غير المرصوفة والمناطق التى تمد فيها خطوط السكك الحديدية - وساحات التنس التى اتخذت سطوحها من الصلصال .

ويرجع هذا الاختراع العلمى الى الدكتور ولتركورن خريج جامعة هين ليبزج الالمانية والذى هاجر من المانيا الى أمريكا حيث صار مدرسا فى جامعة ولاية ميسورى ثم تجنس بالجنسية الامريكية .وانشأ منذ سنوات « معمل علم التربة » فى جامعة برنستون .

وفى ميدان الحياة البيتية أمكن اختراع الحرارة السائلة التى أصبحت مصدرا مستقلا لقوة تنفع فى الطبخ والتدفئة والتبريد وغيرها من شئون المنزل .

والحرارة السائلة مادة كيميائية جديدة أخرجتها مصانع مؤسسة «جونبيرس» وتحقق قوة محركة واحدة تجمع معدات البيت بعد أن كانت حرارة الغاز فى البيوت المتوسطة تحمر اللحم وحرارة الفحم تسخن الماء ، وتدفىء الغرف ، والكهربا تسير الثلاجات وتنجز أشياء أخرى كثيرة .

والجزء الاصيل فى الجهاز الجديد الذى يغنى عن شتى وسائل القوى

المحركة عبارة عن موقد ومرجل، اما وقوده فهو فحم الانتراسيت، وفى المرجل وانابيب الجهاز نحو ستين جالونا من «سليكات تتراكويسل» بدلا من الماء ، وثمن الجالون من هذه المادة ريال ونصف الريال . ولكن اذا ما صنعت منه مقادير وافرة للبيع نقص الى نحو نصف ريال .

واذا استثنينا ما قد يذهب منه سدى بالرشح فان الحاجة لا تدعو الا الى اضافة جالون واحد كل خمس سنين . وبعد أن تنتقل الحرارة السائلة من المرجل تسير فى أنبوب ملتف ، فلا تلبث أن تظفر بماء ساخن لا ينقطع وبغير حاجة الى خزان ثم ينعطف الماء فى الانبوب الى آلة التبريد فيحرك جهازها .

والحرارة السائلة تسير الى كل جزء من مواقد الطبخ الحديثة ويضبط سيرها صمام كصنبور يقطع الحرارة أو يطلقها على حسب ما نشاء ، ويتم ضبطها بطريقة بسيطة كالطريقة المتبعة فى افران الغاز والكهرباء .

وقد اخترع حديثا جهاز للاشعاع أطلق عليه (راديتور) طوله ١٣ بوصة وعرضه عشر بوصات وله مروحة تدفع الهواء الدافىء فى غرف البيت فيدفئها ، وفى الوسع ان تصل أنبوبا تنساب فيه الحرارة السائلة بالادوات الميكانيكية لغسل الصحون وأجهزة غسل الملابس وعصرها وتجفيفها وآلات تبريد الهواء وغيرها من المعدات ، كما يمكن استخدام القوة الحرارية فى ادارة أجهزة الراديو والتليفزيون والمراوح الكهربية .

وبهذه الطريقة تغنى قوة حرارية واحدة عن قوى حرارية مختلفة ، ويمكن توفير نحو نصف ثمن الوقود الذى يستخدم للطبخ أو التدفئة ، اذ أن البيت لا ينتفع عادة بأكثر من ٥٥ ٪ من حرارة الفحم الذى يلقى فى الموقد ، وهذا ضرب من ضروب التبذير الذى يمكن ملافاته باستخدام الجهاز الجديد .

وبرغم ان الحرارة السائلة تستخدم بشروط خاصة فى بعض الاحوال الكهربية فانه من المنتظر التغلب على جميع الصعاب المتعلقة بهذا الموضوع .

واخترع لى دى فروست أنبوبا سحريا أطلق عليه « أنبوب اوديون » وهو أساس الصناعة الكهربية (اليكتروتكس) التى تقدر بأربعة آلاف مليون دولار وأمكن بهذا الانبوب نقل صوت الانسان فوق المحيط الاطلسى، وانشاء أول خط تليفونى منتظم بين نيويورك وسان فرانسيسكو ، وحين شاع استعمال التلغراف اللاسلكى باشارات مورس كان خير جهاز معروف لالتقاط الاشارات من الهواء أنبوبا غليظا مملوءا ببرادة فلزية تتلاصق حين تجىء الاشارة فتتم بتلاصقها الدورة الكهربية ثم لابد من طرق الانبوبة بالمطرقة لكى تتفرق الدقائق المتلاصقة حتى يستطيع الانبوب أن يلتقط اشارة أخرى ، ولذلك أخذ لى دى فورست يسعى الى اختراع كشف جديد للاشارات أفضل من هذا الكشف .

وادخل لى دى فروست تحسينات مختلفة الى هذا الانبوب وأمكن اختراع جهاز « بليوترور » الذى يقذف تيارا من أمواج الراديو القصيرة

التى تولد الحرارة لتخترق الخشب والعجائن وتزيد أوارها فى فترة وجيزة الى درجة كبيرة كان لا يمكن الوصول اليها الا عن طريق فرن كبير .

وهـذا النوع الجديد من أنبوب أوديون يستعمل فى خياطة المعاطف الواقية من المطر المصنوعة من مواد كيميائية فبدلا من أن تخاط أطرافهـا يضم بعضها الى بعض بتاثير الاشعة ، وهو يستعمل أيضا فى طبخ اللحوم .

وأمكن اختراع عين كهربيـه تفتح الابواب وتحمى المستودعات وتفرز رزم البضائع وتخترق الضباب فوق البحر حتى تنزل الطائرات سالمة فى العواصف أو الظلام وتمنع القطر من الاصطدام .

وفى عالم الطيران استطاعت الطائرات أن تسير بقوة المحرك النفاث أو الصـاروخ وأمكن طائرات النقـل أن تطير فى جو الارض بسرعة تفوق سرعة الصوت كما تستطيع هذه الطائرات أن تحلق الى طبقات الجو العليا . أما خارج جو الارض فقد استطاعت الطائرات بلوغ سرعة ١٠٠ر٠٠٠ ميل فى الساعة بالقياس الى سطح الارض بكل ما عليه من أحيـاء واشياء الذى يقطع الفضـاء فى دوران الارض بسرعة الف ميل فى الساعة ليل نهار ، والمجموعة الشمسية تذرع الفضاء بسرعة ٥٠٠ر٠٠٠ ميل فى الساعة .

وفى عالم الزراعة استطاع عالم أمريكى يسمى ادجر مكفدن أن ينبت قمحا عظيما لا تدركه الأمراض ، وقد راودته فكرة انبات هذا القمح الجديد فى مزرعته بولاية ساوث داكوتا حيث أصاب مرض الصدأ زرع أبيـه ولم يجن غير خمسة معايير من أربعين معيـارا عن كل فدان ، ولم يلبث هـذا الوباء أن اجتاح ولاية تكساس كلها وأصـاب الارض بالقحط والامحال ، وفى سورة هـذا الوباء الذى يهلك القمح لاحظ أن هنـاك ضربا من القمح لا تصيبه آفة الصدأ . وهذا الضرب يعرف باسم « ياروسلافامر » ، ولكن هذا القمح القوى الكثير الالياف لا يصلح الا عليفا للمواشى .

وأخذ العالم مكفدن يفكر ويقدر وأخيرا اخذ ملقطا دقيقا وأزال به عضو الذكر من نوار قمح « ياروسلافامر » ثم نفض على بقية النوار لقاحا من قمح «ماركويس» ولف الرءوس بورق رقيق ليمنع اى تلقيح له لم يصنعه هو بيديه .

وفى الخريف رأى حبوبا سقيمة أسفرت عنها المزاوجة التى تمت فى الصيف ثم بذر هذه الحفنة من الحبوب التى جناها فى الخريف السـابق ، وجعل يرويها يوما بعد يوم ويتطلع الى اليوم الذى تنبت فيه ، ولكنها أبت ان تنبت واخيرا لاح له شعاع من أمل وقبس من رجاء ، واطلت نبتة واحدة برأسها وظل مكفدن يزاول تجاربه حتى نجح فى اخراج نوع جديد من القمح يقف أمام مرض الصدأ . دون أن ينال منه شيئا . واطلق على هذا النوع اسم الامل Hope ومضى هذا النوع من القمح ينتشر شيئا فشيئا حتى قدرت المساحة التى زرعت فى الولايات المتحدة وكندا بقمح مولد من صفوة تلك الحبة السقيمة التى جناها مكفدن بنحـو مائة مليون فدان . وبيعت منه محصولات وافرة الى مختلف بلدان العالم فمنعت الجوع عن ملايين البشر ، وصانت الملايين من المحصولات من الهلاك .

وفي عالم الطب امكن الوصول الى طريقة للتوليد بلا الم بعد ان كان موضوع الولادة عبئا ثقيلا ، وهما عظيما تحمله النساء ، فامكن الوصول الى أسلوب جديد في التخدير مختلف عن الاسلوب المستخدم حاليا ، وتقول النساء اللواتي حقن بهذا المخدر أنه زال منهن بعد الحقنةالاولى ببضع دقائق كل شعور بالالم وهذه الحقنات تتكرر في فترات تختلف على حسب الحاجة من ثلاثة ارباع الساعة الى ساعة ، وتظل المرأة التي تنتظر الوضع مضطجعة على سريرها لا تشعر بألم الى أن يأتي وقت الوضع فتنقل الى غرفة الوضع .

ويجب بذل كل عناية لتقع الابرة تماما على الموقع الذي تقع عليه فلا يصل المخدر الى الدم او الى سائل العمود الفقري بل الى البقعةالمحيطة بالعصب ، ولهذه الغاية ابرة من الصلب تقبل الالتواء ولا يتطرق اليها الصدأ ، وهي لقبولها الالتواء لا تنكسر ولو تقلبت المرأة على سريرها ، ويجب استعمال مخدر موضعي لقتل الألم عند ادخال الابرة ، وهذه الابرة متصلة بأنبوب من المطاط بزجاجة تحتوي على المحلول المخدر ، ويحقن منه ببضع ملاعق صغيرة واسمه (ميتكايين) وهو أحد مركبات الكوكايين .

ويقول الدكتور فرنسيس آرفنج استاذ فن التوليد بكلية الطب بجامعة «سيراكيوز» الامريكية وقد أتيحت له الفرصة لاختبار الطريقة الجديدة : « ولا شك أن هذه الطريقة كاملة من جميع الوجوه. فهي تمنع آلام المخاض ، ولا تؤثر في حياة الام أو الطفل » .

وبهذه الطريقة أمكن العلم ان يكتشف أسلوبا مأمون العواقب لمساعدة الأم على الوضع بدون الم .

وامكن الوصول الى اختراع جديد في عالم الورق، وهو الورق الذي لا يصيبه البلل ولا يتلفه المطر ، ولا يعني هذا أن الماء لا يخترق الورق الجديد انما هو يبتل كاي ورق ، ولكنه متماسك فلا يتمزق ولا يتقطع ، واذا غطيت هذا الورق ببعض الصمغ او الشمع فانه في هذه الحالة يقاوم البلل بشدة ، ولا يخترق الماء أنسجته وقد وضعوا منذ عهد قريب كيسا من طبقات من هذا الورق بينها أسفلت لمنع الماء من النفاذ ثم ملء الكيس دقيقا والقى في نهر نياجرا ، فهوى من فوق الشلال، وظل سبع ساعات ونصف الساعة يصدم الصخور عند أسفل الشلال . فلما استردوه كان الكيس لايزال صالحا للشحن ، وكان الدقيق الذي فيه جافا لم يدركه البلل . ولم يصبه الماء .

وقد استعمل هذا الورق في أثناء الحرب العالمية الاخيرة ، اذ انتفع به رجال الجيش ورجال الاسطول في صيانة كل شيء عرضة للرطوبة ، بل انهم أحضروا مجموعة من أكياس الورق وملئوها بالمئونة والاغذية والقوها في البحر حتى تصل الى الشاطيء الآخر فلم يصبها أدنى عطب أو تلف .

ويقول صانعو هذا الورق انهم يستخدمون في صنعه نوعين من اللدائن نجدهما عادة في علبة البطارية الكهربية ، والاغطية التي تتخذ لزجاجات الادوية والعطور .

وصنع أحد رجال المصانع نموذجا لملاءة تستطيع ان تفرشها على شاطىء البحر أو فى روض فوق السندس الاخضر عندما تخرج مع أسرتك لاجتلاء منظر الطبيعة الساحرة وتعمل هذه الملاءة على رد الماء وانعكاس ضوء الشمس كما أنها لا تلتهب ولاتتأثر بالحريق، بل لقد توصل الصانعون الى عمل بيت مبنى كله بهذا النوع من الورق فى أرض معهد كيمياء الورق فى مدينة « ابلتون » بولاية ويسكونس وهذا البيت يتألف من حجرة طولها ١٦ قدما وعرضها ثمانى أقدام ، ولم يتأثر هذا البيت بوابل المطر أو انطلاق صنبور المياه .

وقد تمكن العلماء من اختراع نوع جديد من الفحم المسحوق الذى يمكن به ادارة محرك من محركات الاختراق الداخلى بدلا من البنزين أو الزيت .

وأنشىء فى معمل جامعة جونز هيكنز فى مدينة بلتيمور توربينات تتحرك بالفحم المسحوق على أحسن وجه .

والفحم الجديد مسحوق أشبه بسناج المصباح الاسود ، وقد بلغ من دقة أجزائه أنه حين يدفع فى حجرة الاشتعال يشتعل فورا كأنه وقود من زيت .

وامكن اختراع موقد للبيت يغذى بتيار مندفع من الفحم المسحوق الذى يباع فى علب محكمة الاغلاق .

ولكن هذا الفحم المسحوق لن يستطيع بأية حال أن يحل محل الزيت فى أعماله الكبرى فى تحريك دفة المدنية وعالم العمران .

وفى ميدان المواصلات السلكية واللاسلكية يتوقع العلماء ان تهدم فى المستقبل غير البعيد أعمدة أسلاك التلغراف والتليفون فتباع حطبا للنيران ويحل محل التخاطب بأسلاك التلغراف والتليفون شبكة أو شبكات من الامواج الدقيقة ، فتمتزج فيها بأمواج لا يزيد طولها على بضع بوصات فتحمل كل الرسائل التى تريد أن تحملها اياها من أخبار وصور واذاعات ومحادثات تليفونية وصور وأحاديث تليفزيونية .

ومما يذكر أن شركة (انترنشنال بيزنيس ماشينز) عرضت أخيرا جهازا الكترونيا جديدا يستطيع أن يميز الكلمات الموجهة اليه وأن يجمع ويطرح الارقام التى تقرأ عليه شفويا وأطلق على الجهاز الجديد اسم غريب وهو « صندوق الحذاء » لأنه يقارب حجم الصندوق الذى يستعمل لهذا الغرض .

وقال أحد المسئولين فى الشركة المذكورة : انهم لا يعتزمون انتاج هذا الجهاز فى القريب العاجل ، بيد أنه قد يكون فى مقدمة عدد كبير من الآلات التى تستجيب للاوامر الشفوية وقد يكون من بينها آلات كاتبة تكتب ما يملى عليها من تلقاء نفسها . وآلات لخزن المعلومات التى تملى عليها وآلات حسابية تستطيع الاجابة عن الاسئلة الشفوية .

كما اخترع العلماء جهاز « الأيسوفون » الذى يحل محل التليفون

ويسجل المكالمات التليفونية التى اتصلت بك فى اثناء غيابك ويرد عليها وعندما ترجع الى مقر عملك تستطيع ان تعرف من اتصل بك فى الفترة التى كنت فيها بعيدا عن مكتبك .

وفى ميدان التحاليل استطاع العلماء أن يحولوا مادة الى اخرى تختلف عنها كل الاختلاف مما ربما لا يصدقه العقل أو يعتبره ضربا من الاوهام أو لونا من الخيال .

ومن العجائب التى وصل اليها العلم الحديث أن استاذا فى جامعة هارفارد وعد ان ياكل قميصه اذا اخطأ وقد بر بوعده ، فاخذ قميصه واذابه فى حمض من الاحماض ثم عدل الحمض بمادة قلوية ، ثم صفى السائل ، واخذ المادة المترسبة فبسطها على كسرة خبز ثم اكلها .

وابتكر علماء الزراعة فى أمريكا أنواعا جديدة من حبوب الذرة العويجة لها رءوس شائكة وتطرد الطيور التى تتغذى بالحبوب ، ومن ثم تقلل من الاضرار التى تلحق بالمحصول ، وقد زرعت فعلا على سبيل التجربة بعض سلالات الذرة العويجة فى جنوبى ولاية فلوريدة واماكن اخرى .

وفى ميدان الطب أمكن اختراع عيون عجيبة من اللدائن تغنى عن عيون الزجاج التى كثيرا ما ينبذها الذين اصيبت عيونهم ساخطين ليلبسوا غمامة سوداء ..

وهذه العيون الجديدة مصنوعة من نوع من لدائن البلاستيك على قياس العين الطبيعية وترسم مقلتها باليد بحيث تشبه كل الشبه العين السليمة من عينى من يستعملها .

واهم من هذا انها تتحرك فى يسر مع أختها الصحيحة ، وهى فى هذا تختلف كل الاختلاف عن عيون الزجاج التى لا يكاد ينقضى عليها عام حتى تحدث فيها خدوش بفعل سوائل العين ، ومثل هذه العيون الثابتة تظل تحتك ببقية العين المستأصلة التى تتحرك من ورائها فاذا طال لبسها فكثيرا ما كانت تؤدى الى التهاب خطير .

وقد توصل العلماء الى اختراع قالب لحجر العين الضريرة وعضلاتها بالطريقة التى تصنع منها قوالب الاسنان ثم تصب فى هذا القالب اللدائن السائلة فاذا هى كالعين الاصيلة ثم يأتى عمل الفنان الطبى الذى يرسم على ورق دقيق جيد صورة الحدقة وانسانها حتى تماثل العين فى شكلها ولونها كل المماثلة ، ثم يطبع هذا الرسم على العين الجديدة لدرجة أنه يصعب تمييزها عن العين الاصيلة .

وتمكن عالم المانى يسمى « هنرى هارتونج » من مدينة هامبورج من الوصول الى اختراع سفينة جديدة للغوص هى أشبه بطائرات الهليوكوبتر التى تشق أجواز الفضاء ، ويمكن هذا النوع من سفن الغوص الى مسافة سبعة آلاف متر تحت سطح الماء .

ويعمل الهليوكوبتر الغواص بالطريقة التى يعمل بها الهليوكوبتر الذى

يطير فى الفضاء ، أعنى أنه يعمل بمراوح أفقية فتساعده على الغوص والصعود الى سطح الماء وفقا لاتجاه الدوران .

ويستطيع هذا النوع الجديد من السفن أن يقاوم ضغط الماء فى دورانه فى صورة اعنف من سفن الغوص الاخرى . وقد جهزت مؤخرته بمروحة اضافية تقوم بعمل الدفة التى تعين اتجاه الغوص .

وبالهليوكوبتر الغواص مخزن للبنزين ، واذا ما غاص فى الماء أخذت درجة حرارة البنزين فى الهبوط فيتقلص حجمه ، ويقل وزن الهليوكوبتر فيزداد هبوطه ، وتحدد المراوح درجة الهبوط فى السرعة أو البطء .

ويخصص هذا النوع من الهليوكوبتر الغواص للبحث عن بقايا البواخر والطائرات الغارقة كما يستعمل حاليا فى البحث عن آبار البترول فى أعماق البحار .

هذه بعض معجزات العلم الحديث التى استطاع العقل البشرى أن يصل اليها وصدق الله جل ثناؤه حين قال :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » .

قصة كفاح

الفريد كروب ملك الفولاذ

لم تكن سنه تتعدى الرابعة عشرة عندما استيقظ ذات صباح فسمع نبأ اليما فى الدار جزعت منه نفسه وتقطع منه نياط قلبه وانهمرت الدموع من عينيه فى لوعة وحسرة وحرقة وشجن : ذلك أنه سمع بوفاة والده (كروب الاكبر) ، ولكنه لم يلبث ان لم شعث نفسه ... وجمع جماع قلبه ، ومنع الدموع من أن تسيل على خديه ، وذهب الى حجرة أمه يواسيها ويخفف عنها حدة المصاب وفداحة الحزن ...

ووري كروب التراب وانقضت سحابة اليوم والأسى يخيم على أسرة كروب وما أن جن الليل حتى ذهب (الفريد) الى مخدعه ، لكنه لم يذهب لينام فقد اعتراه فى ذلك الوقت أرق طويل واستغرق فى تفكير متصل فى السبل التى يستطيع أن يتكسب منها ويهييء السعادة له ولامه . ولاح لعينيه طيف أبيه ، فانحدرت دمعة من مقلتيه ولكنه مسحها ، وصمم على الجهاد والكفاح ...

ترك (كروب) الأكبر معملا صغيرا لصنع البواتق من الحديد الزهر واذابة الحديد الصلب ، ولم يكن يعمل فى هذا المعمل سوى أربعة عمال وكان على راسهم عامل مسن كبير يسمى (كومو) كان من اقرب الناس الى ابيه الراحل . فربت العامل المسن كومو على كتف الفريد ودعاه الى مراقبة العمل فى المعمل والى أن يشرف بنفسه على سير العمل .

فكان الفريد يذهب كل يوم الى المعمل ويقف أمام (الفرن) ويشاهد الحديد الصلب وهو ينصهر والحديد الزهر وهو يفرغ لعمل بواتق مختلفة الاشكال والاحجام ، فتعتريه النشوة وينسى الالم وينشرح صدره ويطمئن باله . ولم تمض ست سنوات حتى استطاع الفريد ان يجعل هذا المعمل المتواضع مصنعا كبيرا يضم بين رحابه خمسين عاملا من خيرة العمال .

وعندما احتفل الفريد بالعيد العاشر لافتتاح هذا المعمل كان يحضر هذا الاحتفال فى داخل المعمل مائة عامل شربوا جميعا نخب النجاح ... فى سرور وانشراح ...

وقد استنبط (الفريد) ثلاثة أشياء استطاع ان يغزو بها السوق وتدر عليه ربحا وافرا وكسبا عظيما .

وأول هذه الاشياء طريقة عمل الملاعق المعدنية فغمرت السوق ملاعق كروب المعدنية وارتاح الناس الى اتقان صناعتها ارتياحا كبيرا .

وثاني هذه الاشياء طريقة لعمل الاطر الحديدية من غير لحام ·

وثالثها طريقة عمل المدافع من الفولاذ ·

وقد قامت الطريقة الاخيرة بدور كبير في حياته وكانت سببا من اسباب شهرته ومجده ·

اما طريقة عمل الملاعق المعدنية فانه لم يلبث أن باع امتيازها بثمن كبير جدا الى أحد رجال الصناعة في انجلترا واستغل المال الناتج من هذه الصفقة المربحة في عمل تجارب عدة لصنع مدافع من فولاذ وعمل الاطر من الفولاذ كمركبات السكك الحديدية · وكانت الاطر قبل ذلك تصنع من الحديد الصاج وتلحم لحما فتكون كثيرة العطب قريبة الفساد ··

ونظر ألفريد كروب الى مصنعه بعد ذلك بسنوات او انشئت الدقة نقل عام ١٨٥٨ ، فوجد فيه ما يربو على ستمائة عامل فحمد الله على هذا النجاح ، ثم خرج من المصنع وذهب لتوه الى البيت حيث توجه الى حجرة امه وقرب يديها من فمه ، وطبع عليها قبلة حارة تنبض بالوفاء وتنطق بالاخلاص·

واستطاع ألفريد في هذه الآونة ان ينتج مصنعه عدداً كبيراً من الآلات الضخمة والمطارق البخارية الكبيرة والافران الثقيلة · كما اشترك في المعرض العام الذى أقيم في ذلك الوقت في انجلترا وعرض فيه مدفعا وقطعة كبيرة من الفولاذ ثقلها طنان ، وأهدى مدفعا الى ملك بروسيا فمنحه نيشان النسر الاحمر ··

وعندما فتح المعرض الدولى الكبير للصناعات في باريس عام ١٨٦٧ لم يشأ (ألفريد) ان تفوته هذه الفرصة فعرض مدفعا طوله خمسة أمتار وربع المتر وقطر فوهته ٣٥ سم وفيه أربعون حفرة لولبية وقضى في عمله سنة واربعة أشهر وبلغت نفقات عمله ٦٥٢٥ جنيها في صنعها ·

وذاع صيت مصانع (كروب) حتى زارها الملك ولهلم الاول ملك بروسيا بنفسه وسبك أمامه ألفريد قطعة من الفولاذ ثقلها تسعة أطنان الى ٣٠٠ بوتقة وطرق قطعة أخرى ثقلها سبعة أطنان ونصف الطن وطولها ١٥ قدما بمطرقة بخارية فاشتدت دهشة ملك بروسيا من هذا العمل العظيم ، واعتبر مصانع كروب فخرا عظيما في تاريخ الدولة ·

وتوالت بعد ذلك المؤتمرات والمعارض كالمعرض الامريكي في فيلادلفيا ومعرض شيكاغو الدولي للصناعات وغير ذلك وكانت معروضات ألفريد كروب تنال الصدارة بين المعروضات العالمية المختلفة ·

وذات يوم زاره أحد رفاقه منذ الصبا وكان قد غاب عن بروسيا في رحلة طويلة فراعه ما شاهده في مصانعه : فهنا مكاتب للبريد والبرق والحريق، وهناك مدارس وكنائس ومناسك ومطاعم وأندية للعمال وأبنائهم وملاعب لشتى الالعاب الرياضية · ومضى ذلك الصديق ينتقل بين انحاء هذه المصانع والعجب يعلو محياه والدهشة تعقد لسانه وهو يرى كل هذه الغرائب ، ويرقب القطر وهي تنتقل بين انحاء مصانعه وتغيب عن عينيه بعد أن تترك دخانا كثيفا لا يلبث ان يتفرق في الهواء .. !

وذهب مادلنج رفيق الصبا الى الادارة العامة حيث يجلس (الفريد كروب) على مكتبه وقد تقدمت به السن واشتعل رأسه شيبا وارتسم عليه وقار الشيوخ وبدا فى عينيه نشاط الشباب ·

ذهب مادلنج الى صديقه الفريد فلم يكد يراه حتى احتضنه بين ذراعيه وغمره بقبلاته ثم اعطاه معلومات دقيقة عن مصانعه وذكر فيماذكره له ان بمصانعه ٤٦٫٧٠٠ عامل و ٤٥٨ آلة بخارية وسكتين حديديتين طول الاولى ٣٦ ميلا وفيها ست عشرة قاطرة و ٧٠٠ عربة وطول الاخرى ٢٣ ميلا وفيها ٢٦ قاطرة و ٥٠٠ عربة ، كما أن بمصانعه ٥٩٠ ميلا من أسلاك البرق و ٣٢٨ محطة للتليفون ·

فذهل مادلنج رفيق الصبا من ذكر هذه المعلومات وهنأه على نجاحه المنقطع النظير غير ان الفريد كروب ظل يتكلم وكأنه يستلهم الماضى ويستعيد الذكرى أمام عينيه ويقول :

انى احسب ان أول نعمة من الله بها على ان خلقنى فقيرا، فان هذه النعمة هى التى دفعتنى الى الجهاد والكفاح والكدح والاقتصاد وانكار الذات ، وعرفتنى قيمة المال ومدى مايكابده الانسان فى سبيل الحصول عليه، فان ابن الغنى يدخل ميدان الحياة مغلول اليدين لا يعرف قيمة ما عنده أما ابن الفقير فيعرف قيمة الشىء ، وقيمة الشىء على حسب التعب الذى ينال به وما تعب على نيله كثيرا تزداد قيمته فى عينيه عشرات الاضعاف ·

وسمع الصديق هذه الكلمات فحرك رأسه فى استجابة الصديق ·· وقال وهو يحاوره ··· حقا يا صديقى ··· حقا يا صديقى ·

الموسيقى تغزو
مصانع العمال فى الغرب

ان ما كان بالامس حلما أصبح اليوم حقيقة واقعة وما كان يجول بخلد الفنانين والشعراء كأنه وهم من الاوهام أو اسطورة من الأساطير غدا اليوم يتمثل فى وقائع الحيـــاة ، فى المجتمع الأوروبى والامريكى والروسى وغيرها من المجتمعات المتحضرة ..

لقد كانت الموسيقى بالامس سلوى الفنان ، وشفاء للمحب الحزين أو ذى القلب المتفطر حتى ينسى آلامه وأشجانه وتباريحه واحزانه فاصبحت اليوم فضلا عن ذلك تخضع لتجارب علمية ، ومقاييس دراسية فى أثناء اجراء العمليات الجراحية فى المستشفيات الكبرى او فى أثناء تخدير المريض تخديرا موضعيا أو فى عموده الفقرى ، فيستمع اليها بسماعتين توضعان على أذنه ، فتخففان عنه وقع الشعور بأن الأطباء يمزقون بمباضعهم جسمه. كما دخلت الموسيقى اليوم المستشفيات فى البلاد الغربية للترويح عن المرضى والتفريج عنهم ، واتضح من التجارب التى يجريها الأطباء على هؤلاء المرضى أنهم ينامون نوما هادئا هنيئا ، وتسكن أعصابهم ، ويطمئن شعورهم، ويزداد تعلقهم بالحياة ، ويشرق امامهم الامل عقب سماعهم الموسيقى.

كما اخترع الدكتور المربست مقعدا موسيقيا لعيادة طبيب الاسنان يجلس عليه المريض فيصغى الى روائع النغم تنساب فى أذنه وتصرفه عما يكابده من الم ويقاسيه من وجع فى أثناء خلع احدى اسنانه او حقن لثته.

ويقول الدكتور البريجادير جنرال رالف دى فو مدير مستشفى هالوران : ان الموسيقى يجب أن تكون فى مقدمة وسائل النقاهة فى المستشفيات العسكرية .

وقد رأت مراكز الصليب الأحمر فى بروكلين وبوسطن وبفالو : ان عزف الموسيقى فى أثناء عمليات نقل الدم يأتى بنتائج باهرة ، ومن ثم لجأت الى هذه الطريقة فى كثير من العمليات حتى لا يصاب المتطوع بالاغماء فى أثناء اجراء هذه العملية .

الموسيقى فى المصانع الحربية

واخيرا استطاعت الموسيقى ان تدخل المصانع الحربية ، فصارت بعض المصـــانع فى امريكا تذيع القطع الموسيقية عن طـريق الراديو أو الجرامافون فى اثناء القيام بالاعمال اليدوية، وعمد الى هذه الوسيلةاكثر

من ثلاثة آلاف من المصانع الحربية الأمريكية ، فبعثت فى العمال روح الإقبال على العمل بعزم ونشاط ، وصار العامل يشتغل فى عمله وهو صافى الذهن ، منشرح الصدر ، وضاء الأسارير .

وتدل الاحصائيات الرسمية التى أجراها الباحثون فى هذه المصانع على أن الانتاج ازداد عقب استخدام الموسيقى ازديادا ملحوظا ، كما بعد عن العمال التراخى والكسل ، وتفتحت مداركهم لشتى العمليات الصغيرة التى يقومون بها .

وقد استعانت المصانع الحربية بعلماء النفس واقطاب الموسيقى فى اختيار المقطوعات الملائمة والمؤثرات الصوتية المناسبة ، فمما لا شك فيه أن الموسيقى التى يجب العامل أن يسمعها بمجرد أن يستأنف عمله فى الصباح الباكر تختلف عن الموسيقى التى يجب أن يسمعها وهو على اهبة الانتها من العمل أو الانصراف للغداء ، كما أن الموسيقى التى ينبغى أن يسمعها عقب تناوله الغداء تختلف فى تكوينها عن تلك الموسيقى التى ينبغى أن يسمعها وهو على وشك الانتهاء من عمله اليومى والذهاب الى دور الخيالة أو المسرح أو ما الى ذلك .

اثر الموسيقى فى العمال

وقام رتشموند كاردنل مدير أبحاث الموسيقى بالولايات المتحدة الأمريكية والدكتور هارولد موريس ماير بمباحث وتجارب واسعة النطاق لمعرفة مدى تأثير الموسيقى فى انتاج العمال ودرجات نشاطهم اليومى ، فاتضح أن الموسيقى انقصت حالات انصرافهم قبل الميعاد بمعدل ٦٦٪ وهبطت بحالات الغياب عن المصانع بنسبة ٨٧٪ وزادت نسبة الانتاج بمقدار ٤ر١١٪ واسفرت تجارب العالم الموسيقى رتشموند والطبيب هارولد على أن نسبة الشعور بالتعب والارهاق والصداع نقصت الى حد كبير كما راقبا العمال فى اثناء انهماكهم فى العمل، فاتضح لهما ان العمال قلما ينظرون الى الساعة المعلقة على الحائط أو يقطعون الوقت بالثرثرة وفارغ الكلام، كما أن الأساليب الحادة الجافة التى يستخدمها العمال بعضهم لبعض فى أثناء تبادل أدوات العمل أوشكت ان تختفى تماما ، وكذلك بعض العاملات امتنعن عن التشدق « باللبان » وشغلن بالموسيقى وانكببن على العمل فى شغف واخلاص .

وكان لهذه النتائج شان كبير فى رفع مستوى المصنع وزيادة انتاجه زيادة ملحوظة مما اغتبط به الرؤساء اغتباطا شديدا ، فزادوا علاوات العمال الذين يشتغلون فى هذه المصانع ، فاشتد اقبالهم على العمل ، وعظمت رغبتهم فى انجازه على الوجه الأكمل .

الروس يستفيئون بالموسيقى

وزحفت الموسيقى بشكل ملحوظ الى كثير من المصانع الروسية . وللروس موسيقى خاصة ، قلما يرتاحون لسواها من الموسيقى (المقطوعات) الغربية .

ولذا كان عزف المقطوعات الشعبية الروسية شيئا يلذ العمال الروسيين الى حد كبير ، واصيب أحد العمال الروس بصدمة عصبية فى أثناء العمل ، فلم يقو على الحركة ، فأخذ يضج ويصخب في وجه زملائه ، ويتصور أنهم مقدمون على قتله ، ولم يهدأ روعه الا عندما عزفت له الموسيقى بعض القطع الروسية التي تعود أن يستمع اليها فى فترة معينة في حياته .

ويستخدم أحد المصانع الحربية فى المانيا مقطوعات موسيقية معينة للعمال الذين يدخلون المستشفيات العسكرية : فمثلا أنشودة المسرة لبتهوفن وشوبرت تلائم المرضى بالملانكوليا او الكآبة والانقباض كما ان قطعة فاجنر تلائم المرضى الذين يثورون لأتفه الأسباب .

اما من بهم امراض نفسية خفية فيمكن معالجتهم تجريبيا بقطعة اتود ان سول ماجور من شوبان Etude en sol majeur أو قطعة السونات باثيتيك لبتهوفن .

وأثبتت التجارب العلمية أن قطعة « مالكوريزت » لفاجنر زادت في حركة التنفس عند أحد عمال المصانع المرضى من ثماني عشرة مرة فى الدقيقة الى ثلاثين مرة ، وكذلك زاد النبض عنده بعد أن كان بطيئا .

وحذا حذو المصانع الحربية كثير من المصانع المدنية والمطاعم ومصانع النسيج والعطور وأدوات الزينة فزاد انتاجها بصورة واضحة ملموسة .

ويجرى أصحاب المصانع تجارب متعددة لاختيار أحسن انواع الموسيقى وانسبها للعمال مستعينين في ذلك بخبرة الاخصائيين ، واتضح ان احسن انواع الموسيقى فى المصانع هو الموسيقى الهادئة الوادعة الرقيقة التى لا تحمل الصخب ولا الضجيج ، ووجد البحاثة الطبيب فيرى Fairy أن الموسيقى السهلة تزيد فى تفتح الأوعية الدموية فى حين وجد أن العنيفة منها تضيقها .

واستحسن الأطباء استخدام الآلات الملائمة كالبيانو والكمنجة والكيلارنيت والناى فى معالجة العمال الذين يفدون الى المستشفيات لعلاجهم مما يشكون من المرض ، اما الهارمونيوم والشيلو والباس فوجدو انها غير ملائمة للعلاج بالموسيقى .

واتضح من التجارب كذلك أن موسيقى الجازباند العالية الصاخبة تثير العمال فى أثناء قيامهم بالعمل ، وتبعث اليقظة فيهم مرة واحدة ، غير أنها لا تترك اثرها الا لمدة محدودة ولفترة وجيزة ثم يعود التراخى والخمول الى نفس العامل .

مدة اذاعة الموسيقى

والمتبع فى المصانع الامريكية أن اذاعة القطع الموسيقية فى أحد المصانع تشغل نحو ساعتين ونصف الساعة فى اليوم على فترات يتردد طول كل منها بين عشر دقائق وعشرين دقيقة ، ويعمد كثير من أصحاب المصانع الى تشجيع العمال لتكوين فرق موسيقية ترفه عن زملائهم فى أوقات الفراغ ، وتقوم باحياء حفلات موسيقية للعمل فى المواسم والاعياد وتصاحب بعض الفرق الرياضية فى الاندية والملاعب لتشجيع اللاعبين ، واثارة الحماسة فى نفوسهم واذكاء الروح المعنوية العالية فيهم ، بل لقد دلت بعض الاحصائيات الفنية الدقيقة التى أجريت فى بعض المصانع الأمريكية أخيرا أنه قد نبغ بين العمال فى المصانع لفيف كبير من هواة الموسيقى والغناء والتمثيل ، وانضم لفيف منهم الى ميدان المسرح والسينما فنال شهرة واسعة امتدت عبر البحار .

وهكذا استطاعت الموسيقى أن تغزو المصانع فى الولايات المتحدة كما غزت المصانع فى روسيا وسلكت سبيلها فى المؤسسات والمستشفيات المختلفة بل فى البنوك والمكاتب الهندسية المزدحمة بالموظفين مثل مكاتب مجلة ريدر ديجست وشركة توماس للنشر وغيرها ، وتضم هذه المؤسسات بين جنباتها مئات من الموظفين والخبراء والمهندسين والعمال الذين يقبلون على أعمالهم بنفس راضية مرضية ، وعزيمه وثابة لا تعرف الركود ولا الخمول .

الموسيقى فى مصر

ودخلت الموسيقى فى بعض المصانع فى مصر ، بل لقد دخلت فى بعض عيادات الأطباء مثل عيادة الدكتور محمد داود التنير الذى يعالج مرضى الأسنان على نغمات الموسيقى ، ولكن الموسيقى برغم هذا كله توجد على نطاق ضيق ونسبة ضئيلة ، وانا نأمل أن تستعين المصانع المختلفة بالموسيقى فى تشجيع العمال على العمل وترغيبهم فيه كما نأمل أن تستعين المصانع بالاخصائيين من علماء الموسيقى وعلماء النفس بل بالاطباء كذلك فى هذا المضمار حتى لا تكون النتيجة عكسيه وحتى لا تضر العامل بدلا من أن تنفعه ، وتدفعه خطوات الى الوراء بدلا من أن تأخذ بيديه قدما الى الامام ، فيشغل بالبحث عن الاغانى ، والمرذول من الموسيقى ، والمتهافت المتخنث من الألحان ، فتضعف عزيمته ، ويفتر جهده ، ويقل نشاطه ويفقد انشراحه للعمل .

وينبغى أن يهتم الأطباء بفائدة الموسيقى فى العلاج ، والمعروف انه ظهرت فى هذا الميدان ابحاث شتى ، وقدم الفنان ماكس ويجر منذ سنوات الى جامعة برلين بحثا عن الموسيقى نال عليه درجة الدكتوراه ، كما استطاع الجراح الامريكى جون هوارد استخدام الموسيقى فى عمليات لم تكن تطرأ على بال مثل عمليات الزائدة الدودية وازالة « الحصاة » من الكلى .

عدم التخلف عن ركب الحضارة الحديثة

ان العلم يفتح لنا كل يوم آفاقا جديدة ، ويفسح امامنا مجالات شتى، فينبغى أن نساير ركب العلم ولا نتخلف عنه ، ونتابع موكب الحضارة ولا ننفر منه ، فتلك سنة الحياة ؛ ومبدأ الوجود ولابد أن نلحق بالركب ، ونستمتع بما يخرجه لنا العقل الانسانى من أبحاث جديدة ، وتجارب مفيدة تصلح بها حياتنا وننظم بها كياننا ونثبت بها وجودنا فالركب يمضى ... والكلاب تعوى .. والقافلة تسير ...

الضمان الاجتماعى والتامينات الاجتماعية

بين الشرق والغرب

كانت التامينات الاجتماعية خطوة مباركة فى حياة الافراد بل فى حياة الاسرة جمعاء . وقد اتخذت فى العهد الاشتراكى الجديد صورة واضحة المعالم . متالقة الجنبات تختلف عن مشروع الضمان الاجتماعى القديم .

والواقع أن الضمان الاجتماعى عرف منذ قديم الزمن وان اختلفت الصورة التى تراءى عليها فى العصر الحديث، فمن يرجع الى تاريخ الفراعنة يجد أنهم كانوا يعرفونه ، ولكن بصورة محدودة ومبسطة ، فلما انبثق نور الاسلام تحققت مبادىء هذا النظام وأهدافه ، وكانت الزكاة اول أسس الضمان الاجتماعى فى الاسلام وأهمها ، وهى الركن الثالث للاسلام ، وفريضة من الفرائض التى حث عليها القرآن الكريم فى أكثر من سبعين موضعا كما وردت فى أحاديث كثيرة عن الرسول الكريم .

اما مصارف الزكاة فكانت وفق الآية الكريمة : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » .

ويرى بعض الفقهاء أن حد الفقر المسموغ لاستحقاق الزكاة هو الا يملك الشخص قوت يومه وليله ، ويرى مذهب الحنفية ان الفقير من لايملك نصاب الزكاة .

كما كان الوقف فى الاسلام بابا من أبواب الضمان الاجتماعى .

والوقف فى نظر الفقهاء هو حبس العين على أن تكون مملوكة لاحد من الناس فيجعلها على ملك الله تعالى . ويتصدق بريعها على جهة من جهات الخير فى الحال أو المال .

كما ان النفقة عنصر من عناصر الضمان الاجتماعى فى الاسلام ، والنفقة فى العرف الغالب بين فقهاء الشريعة الاسلامية هى الطعام ، ولكن يعطفون عليها السكنى والكسوة .

وهناك احوال ثلاث تجب فيها النفقة وهى الزوجة ، والقرابة والملك، وشروط وجوبها ان يكون المنفق عليه معسرا أو عاجزا عن الكسب .

هذه وجوه بعض الضمان الاجتماعى فى الاسلام ، أما فى الغرب فقد عرف الضمان الاجتماعى منذ عام ١٦٠١ حين صدور قانون يسمى قانون الفقير .

ثم عرف باسم التامين الاجتماعى عندما وضع بسمارك قانون التامين

ضد المرض عام ١٨٨٣ وقانون التأمين ضد حوادث العمل عام ١٨٨٤ وقانون التأمين ضد الشيخوخة والعجز عام ١٨٨٩ .

وقد كان من نتيجة الثورة الصناعية التى غزت اوروبا أن انتشر استعمال الالات وتسابق أصحاب الاعمال الى اقتناء الآلات الجديدة . والادوات الميكانيكية ، فى شتى الشركات التجارية أو الصناعية ، وكان من جراء ذلك أن ازداد الانتاج بصورة ملحوظة ، وتوافرت كمياته ، بيد ان ذلك اصبح خطرا يهدد العامل فى الصميم ، اذ ان الصناعة اليدوية أخذت تتقهقر الى الوراء ، وأخذت تختفى معالمها من المجتمع الصناعى الجديد رويدا رويدا ، وانهارت الصناعات الصغيرة التى كان يعمل فيها عدد كبير من العمال ، وتغيرت تبعا لذلك العلاقات التى تربط بين العمال بأصحاب الأعمال ، واصبحت البطالة شبحا رهيبا يهدد العامل بين الحين والحين .

وتكاتف العمال بعد ذلك للوصول الى مطالبهم ، ومحاربة الظلم النازل بهم ، واندلعت الثورات ثورة اثر أخرى فى أوربا ، وحاولت الحكومات المستبدة أن تكبت شعور الرأى العام بين العمال ، بيد أنهم لم تلن لهم قناة ، فى المطالبة بحقوقهم حتى خرجت الى الوجود نظم جديدة تكفل لهم حياة كريمة ، ومنها نظام جمعيات الاعانة التبادلية ونظام التوفير ونظام التقاعد ونظام التأمين ضد حوادث العمل .

وأصبح تشكيل الجمعيات العمومية التبادلية اكثر سهولة وحرية عقب الثورة الفرنسية .

وتحت تأثير فكرة التأمين الاجتماعى وقوة الطبقة العاملة فى اواخر القرن الماضى أتيح لهذه الجمعيات تأسيس صناديق للتأمين ضد الشيخوخة دون شرط الضمان الرسمى الذى كان مفروضا عليها قبل ذلك حتى تتمكن من مزاولة التأمين ، كما أجيز لها القيام بالتأمين التبادلى فى حالات الموت والاصابات والامراض .

وقد استعملت عبارة الضمان الاجتماعى منذ سنوات غير مقيدة فى مضمار التكافل الاجتماعى ، واستعملها الرئيس روزفلت عقب ذلك فى رسالة الى الكونجرس منذ ذلك التاريخ . بيد أن الضمان الاجتماعى فى مختلف صوره وتعدد تعاريفه يعنى التخلص من العوز بأن يكفل لكل مواطن مستعد للخدمة على حسب طاقته دخلا كافيا فى كل الاوقات لمواجهة تبعاته .

كما يرى السير وليم بيفردج فى تقريره عن التأمينات الاجتماعية أنه يقصد باصطلاح الضمان الاجتماعى ، ضمان حصول الفرد على دخل يحل محل أجره عندما ينقطع هذا الأجر بسبب التعطل أو المرض أو الاصابة ، وعلى معاش تقاعد فى حالة الشيخوخة ، وعلى اعانة فى حالة وفاة العائل ، وسد النفقات الاستثنائية كما هى فى حالات الوضع والوفاة والزواج .

والضمان الاقتصادى فضلا عن فوائده للمستفيد منه يعمل على التنمية الاقتصادية فى الدول المتخلفة اقتصاديا كما أنه يدعم ويوسع التقدم الاقتصادى فى الدول المتقدمة اقتصاديا ، اذ يرفع مستوى الثقافة والصحة والمعيشة ، وهذا يؤدى الى التقدم الاجتماعى والاقتصادى فيرفع عن العمال عامل التعرض الى المخاطر وعامل الخوف من أحداث الزمان ونوائب الدهر ،

فان العامل القلق قلما ينتج ، اذ يظل مبلبل الخاطر على مستقبله ومستقبل أسرته ، كما أن الفقر يؤثر تأثيرا سيئا على كرامته وانسانيته . فجاء الضمان الاجتماعي وقرر صيانة الكرامة للانسان ، لأنه ينمي في الفرد روح الاعتماد على النفس والاعتداد بها ودفع بواعث الاستكانة ودفع الخمول . ويساهم في رفع كفايات امكانيات الافراد الانتاجية .

ويعمل الضمان الاجتماعي كذلك على تخفيف النفقات بين الدخول الفردية ، لأن الدول الغنية ستحدد المعونة للدول الفقيرة وبذلك يرتفع مستوى المعيشة والقوى الانتاجية .

ويمكن استثمار أموال الضمان الاجتماعي في المشروعات الاقتصادية أو الاجتماعية كتأسيس مشروعات لصنع الأدوية أو الاعانات الأخرى التي يقترحها الضمان للأفراد بصورة عينية ، كما يمكن ايجاد أبواب جديدة للاكتساب والارتزاق والنشاط الاقتصادي على وجه العموم حتى قيل : « ان أموال الضمان أموال استثمار أو راس مال استثمار بدل أموال مدخرة » .

أما التأمين الاجتماعي فقد كفل حياة كريمة للافراد وليس صحيحا انه غدا خطرا للافراد والمؤسسات التأمينية الفـردية في مجال النشـاط الاقتصادي ، لان هذا يصح أن يكون في مجتمع رأسمالي ، أما المجتمع الاشتراكي فلا يتحقق فيه ذلك كما هو الحال في بعض البلاد الرأسمالية التي تركت اصابات العمل بلا تأمين حتى تستفيد الشركات التأمينية من التأمين ضدها .

وليس بصحيح أن التأمين الاجتماعي كذلك أدى الى زيادة حوادث العمل ، اذ أن الاحصائيات الأخيرة أثبتت أن هذه الحوادث في تناقص مستمر فضلا عن أن التقدم الطبي يقوم بدور كبير في هذا المضمار ، فقلل عدد الحوادث المؤدية الى العطل الدائم الكلي . وليس بصحيح كذلك أن عدد القضايا قد زاد نتيجة لاستخدام هذا التأمين اذ أن أغلب هذه القضايا يدور حول درجة العطل لغرض تعيين مقدار الاعانة .

وقد نص الدستور المصري الذي صدر في ١٧ من يناير سنة ١٩٦١ على ضمان العمل للجميع مع جميع الخدمات الثقافية والصحية ، كما انه قرر في المادة ٢٣ التضامن بين الافراد في تحمل أعباء الكوارث والمخاطر العامة، وقرر لهم الاعانات في حالة الشيخوخة والمرض والعجز عن العمل ، وأوجب على الدولة أن تكفل وجود التأمين الاجتماعي والمعونة الاجتماعية بصـورة واضـحة .

وفي العهد الاشتراكي الجديد استحالت الآمال الى حقائق ، وهـذه الاحلام الى وقائع ، وخرج نظام التأمين الاجتماعي الى الوجود بفضل السيد الرئيس «جمال عبد الناصر» الذي قال : « الاشـتراكية الديمقراطيـة التعاونية طابع يشكله دور الافراد في تقرير مصيرهم ، ومن أجل ذلك لا تستطيع الاشتراكية الديمقراطية التعاونية أن تنشأ الا في مجتمع متحرر من جميع أنواع الاستغلال والسيطرة ، مجتمع تتحرك طاقته بلا أغلال ، واعية حقيقة دورها ، مدركة أنها ستجني من الثمرات بقدر ما تعمل .. فما من أحد يكدح وغيره يجني ، وما من أحد يستمتع بثمرات عرق الآخرين .... ! »

كاتب غربى
داخل افريقية

هذا كتاب نفيس الفه الكاتب الأمريكي المشهور جون جونثر وهو ضمن مجموعة كتبه القيمة التى صور فيها رحلاته عبر العالم ومنها كتاب داخل أوربا وكتاب داخل آسيا وكتاب داخل الولايات المتحدة الامريكية وكتاب داخل أمريكا اللاتينية ٠

وكتاب « داخل افريقية » يسير على النمط الذى اتخذه لمؤلفاته جميعا وهو يمضي وفق الاسلوب الصحفى الجذاب والمعلومات الاخبارية المثيرة والرغبة فى التشويق ٠ زد على ذلك انه يحاول أن يوجه النقدات تلو النقدات لما يرى ويسمع وهو فى أثناء ذلك كله يعطى كل ذى حق حقـه دون أن يكون متعصبا او متجنيا أو متحاملا ٠ اللهم الا فى بعض الأحيان كقوله ان الجزائر جزء من فرنسا كما سيأتى وهو قول هراء ٠

وقد تكلم جون جنتر فى هذا الكتاب على دول افريقية ، وطاف بنا بين جنباتها ، وانتقل بنا بين ليبيا والجزائر وتونس وسافر بنا فى الصحراء ، وانحدر بنا الى أعماق أفريقية حيث تضىء القارة المظلمة ، ففى افريقية فكر على أكبر نطاق على حد تعبير سيسل دروس ، وبين أن افريقية مستودع هام للمواد الأولية ولم يكد يتم استغلال ما يزيد عن الطبقة السطحية من ارضها الى اليوم ، ومع ذلك فانها تنتج مايقرب من ٩٨٪ من انتاج العالم فى الماس و ٥٥٪ من ذهبه و ٢٢٪ من نحاسه مع كميات ضخمة من معادن جوهرية هامة كالمنجنيز والكروم والأورانيوم ، كما تنتج افريقية حوالى انتاج ثلثى العالم من الكاكاو وثلاثة أخماس زيت النخيل ، وفيها احتياطيات لا نهاية لها من القوة المائية ٠

ويتكلم سكان افريقية حوالى ٧٠٠ لغة رئيسية مختلفة وتتضمن ١٠ لغـات سامية و ٤٣٧ حامية و ١٨٢ للبانتو وليس أقل من ٢٦٤ سودانية ٠

أما بالنسبة الى الاديان فيقول جون جونثر فى كتبه : ان أهم الديانات فى افريقية الاسلام والوثنية أو عبادة الحيوانات والمسيحية ويقول : ان هناك نحو ٦٠ مليون مسلم يتركز أغلبهم على الشاطئين الشمالى والشرقى و ١١٢ مليون وثنى و ٢١ مليون مسيحى ٠

بيد أن الاحصائيات التى ذكرها جون جونثر غير دقيقة لانه لم تجر حتى الآن احصائيات دقيقة بالنسبة الى الاديان ، غير أنه يمكن اعتبار هذه الارقام تقريبية .

وقد دافع جون جونتر دفاعا طيبا عن الافريقيين الذين رماهم الاستعمار بالتأخر وعدم مسايرة المدنية واقترافهم المنكرات فقال :

لابد لنا عندما نذكر شيئا عن تأخر افريقية أن نذكر انه كان الى عهد قريب في ولاية كانتوكي ٤١٫٦٣٣ منزلا ليست فيها دورة مياه ـ وفي بورتوريكو البالغ عدد سكانها مليونين وربع المليون لا يوجد أكثر من ٤٩٧ طبيبا وان مليونا ونصف المليون من الشبان الامريكيين رفض قبولهم فى الحرب العالمية الثانية لجهلهم القراءة والكتابة ، وان سيارة تسرق فى أمريكا كل دقيقتين ، وان ٣٤٫٧٦٣ مواطنا أمريكيا قتلوا فى حوادث السيارات عام ١٩٥٤ .

وتحدث جون جونتر عن الجمهورية السودانية فذكر عنها بعض الحقائق : منها أن مساحتها ٩٦٧٫٥٠٠ ميل مربع أى ثلث مساحة الولايات المتحدة الامريكية وتمثل الكاتب براى وندل وياسكي فى حل مشكلة الاستعمار فى افريقية اذ يقول : ان مشكلة الاستعمار لا يمكن حلها الا بتوزيع الثروة فى كل مكان .

كما قال ان هناك تيارا جارفا فى افريقية لتكون افريقية للافريقيين ، فان القوميين الافريقيين يؤمنون بأنهم يجب ان يبدأوا فى حكم أنفسهم من الآن ، وأن يتعلموا فن الحكم بممارسته ، وأنه خير لهم أن تقوم منهم حكومة سيئة الحكم من أن تقوم حكومة أفضل من الدخلاء البيض ، فان الطريق الوحيد لتعلم المشي هو الزحف .

وقال : ان الافريقيين فى القارة يتظلمون من الأوربيين الذين خنقوا التعليم تماما فى معظم انحاء افريقية ، ويكفى دلالة على ذلك انه كان لا يوجد فى كينيا سوى ٣٥ مدرسة ثانوية للسكان الافريقيين البالغ عددهم ٥٫٥٠٠٫٠٠٠ ، أما عدد الطلاب المقيدين فى هذه المدارس فلا يزيد عن ٣٫٥٥٥ ولدا و ٤٥١ بنتا ، كما أنهم يتظلمون من الاستغلال الاقتصادى ، اذ أن الاوروبيين فى « جنوب افريقية » يستخرجون من التربة الافريقية ما تقدر قيمته بعدة مئات من ملايين الدولارات فى كل سنة ، وان أصحاب مناجم الذهب هذه لا يدفعون لعمالهم من الاجور الا ما يتردد بين ٣٣ سنتا الى ٤٢ سنتا فى اليوم أى مايتردد بين ١٣ قرشا الى ١٦ قرشا يوميا .

وهذه الحقيقة المريرة موجودة للعيان ، ويلمسها الباحث المدقق فى أنحاء شتى من افريقية .

وصعد جون جونتر الى شمالى افريقية ، فوصف المغرب والجزائر وتونس ، وذكر أن بعض الاوروبيين يعتقدون أن هذه المناطق امتداد لفرنسا نفسها سياسيا واقتصاديا وحربيا ووجدانيا . وقد وصف الجنرال جيوم دولة المغرب ذات يوم بأنها كسرة منفصلة من القارة الاوربية ، بيد أن أهل شمالى افريقية فى الواقع عرب سدى ولحمة ، ولا بد لهم من الاحتفاظ بعروبتهم ، ولابد لتيار القومية العربية أن يكتسح كل تيار .

وقد وصف جون جونتر دول شمالى افريقية وصفا جميلا ، وأعطانا

ملامح براقة من تاريخها السياسي ، وقال : ان الرباط هي عاصمة المغرب ويبلغ عدد سكانها نحو ١٦١ر٤١٦ نسمة ، وهي مقر السلطان وفيها شوارع واسعة جميلة وبيوت أنيقة غارقة بين الأشجار المزهرة ، ويقول جون جونتر: ان الاسم الصحيح للرباط هو « رباط الفتح » أي معسكر النصر ، وفيها آثار عربية ترجع الى القرن الثامن عشر ، وتشبه الرباط الى حد بعيد مدينة واشنطون .

أما الدار البيضـــاء الكبيرة فتشبه مدينة نيويورك ، ويبلغ عدد سكانها حوالى ٦٠٠ الف ، ومنذ أربعين سنة كانت الدار البيضاء عبارة عن مجموعة من اكواخ الصيادين وهي اليوم تشبه الى حد كبير ريودى جانيرو ، أو حتى ميامى ، ولها وجهة مؤلفة من المبانى البيضاء يبرق فى معظمها الزجاج ، وتتعلق فيها الشرفات العصرية البناء المطلة على البحر .

اما مدينة مراكش فيبلغ عدد سكانها ٢٣٨ ٢٢٧ نسمة ، وهى اكبر مدينة فى المغرب ، وبها فندق من أعظم فنادق العالم من حيث توافر الاقامة المريحة والمناظر الشاعرية ويسمى فندق « المامونية » وتحمل مدينة مراكش الطابع الافريقى البحت : فشوارعها أقل رصفا وتمهيدا من شوارع فاس ، وأسواقها تستطيع أن ترى في أثناء سيرك السماء من خلل السقف ، كمـا لو كنت تنظر بين فرجـات خيمة ، وبالجملة فانك تشعر بها طول الوقت وكانك فى صميم صحرائها الكبرى .

اما بالنسبة لاقتصاديات مراكش فذكر جون جونتر منها عددا كبيرا وقال : ان هناك مشروعا لاستخدام القوى الكهربية المائية على نطاق واسع ، وقد بنيت خزانات كبيرة بالفعل لهذا الغرض لوجود عجز كبير فى الفحم وللحاجة الملحة الى المزيد من القوة المحركة .

ويضيف جون جونتر الى ذلك قوله : ربما كانت مراكش نفسها غير خصبة غير أن اهلها مخصبون .

وبعد الحديث عن مراكش مضى جون جونتر يتحدث عن تونس والجزائر ، وذكر أن ثلث سكان العالم من العرب يقطنون فى منطقة شمالى افريقية ، وتنتشر العقيدة الاسلامية هناك انتشارا واسعا وفى ذلك يقول العالم «آلن . هـ . برودريك» : «الاسلام هو المذهب الوحيد بين المذاهب التبشيرية الذى لم يضعف فى الارض التى نبت فيها ، ويلاحظ أنه عندما يفتح الدين الاسلامى بلدا ما يظفر به كلية فانه لم يحدث ليومنا هذا انه أخرج منها » .

وقد تمكن الاسلام من بلاد شمالى افريقية تمكنا شديدا ، ويحافظ اغلب المسلمين على تعاليم دينهم ، بيـد أن الشيء الذى أثاره أنه رأى فى بعض بلاد الشرق الاوســط مسلمين يشربون الخمر بشراهة كالارلنديين تماما . أما فى مراكش فلم يلحظ جون جونتر هذه الظاهرة . ويحـدث أحيانا أن تقابل شابا مغامرا يرتشف كاسا من الخمر ولكنه ما ان يفعل ذلك حتى يصاب بالدوار ويستولى على نفسه الخجل والشعور بالاثم .

وقد حاد جون جونتر عن الحق عندما ذكر أن الجزائر جزء أساسى

من فرنسا برغم انفصالها عنها جغرافيا وان سكان الجزائر الافريقيين مواطنون فرنسيون بكل مايتضمنه تعبير المواطن من الناحيه الفنيه من معنى ، فقد تناسى تاريخ الجزائر ، ونسى القبائل العربيــة المنتشرة فى شتى أنحاء الجزائر ، كما نسى تلك الهجرات الاولى التى قام بهـا العرب منذ فجر التاريخ ، وكذلك نسى ذلك التاريخ المشترك الذى يجمع الجزائريين بالعرب منذ أبعد الحقب ، وتلك اللغة التى تجمع أبناء الجزائر بالقومية العربية برغم تلك المحاولات الكثيرة التى يقوم بها المستعمر لاغفالها ، وعدم تعليمها فى المدارس حتى ينشأ الطفل وهو لا يعــرف لغــة آبائه وأجداده الاولين ، كمــا أن جون جونتر نفسه نسى أنه ذكر أن الاسلام اذا تمكن من أرض فهيهات أن يقتلع وهناك غالبية من العرب المسلمين فى هذه المناطق ولا يمكن تجاهل دورهم فى بناء الكيان الوطنى ·

بيد ان جون جونتر ازاح القناع عن كثير من الاساليب الاستعمارية التى يستخدمها الفرنسيون فى الجزائر من أجل تحطيم كل محــاولة للنهوض ، ومن ذلك ان حكومة باريس لم تفكر فى دفع مليم واحد لتعليم العرب حتى عهد قريب ، ويذهب سدس الاطفال العرب فقط الى المدارس حينما يبلغون سن التعليم حتى أن أكثر من مليون طفل محروم من فرص التعليم ·

وتبلغ مساحة الجزائر ٨٤٧ر٣٠٠ ميل مربع أى حــوالى أربعة أضعاف مساحة فرنسا ، ويبلغ عدد سكانها نحو تسعة ملايين يحــاول المستعمر بكل طاقة ممكنة أن يستغلهم لصالحه الخاصة فى فرنســا ، بيد انها استقلت أخيرا ·

أما تونس فقد ظفرت بالاستقلال ، وتبلغ مساحتها نحو ٤٨ر١٩٥ ميلا مربعا وعدد سكانها ٣ر٦٠٠ر٠٠٠ نسمة ، ويختلف حاكم تونس عن ملك المغرب فى عدة أمور هامة منها أنه ليس من الاشراف أى ليس من نسل النبى ·

أما ليبيا فهى دولة ناشئة تسير فى طريق التقدم والتطور ، وتطل على البحر الابيض لكنها تمتد بعمق فى الصحراء الكبرى وتخلو تماما من الانهار ، وتعتبر أكبر حجما من أوربا الغربية وتبلغ خمس حجم الولايات المتحدة غير أن معظم هذه المساحة الهائلة صحراء لا قيمة لها · ولا يقطن هذه المساحة الواسعة سوى ١ر١٥٠ر٠٠٠ نسمة معظمهم بدو رحــل ، والخطوط الحديدية لا يزيد طولها على ٢٢٥ ميــلا ، بيد ان هذه الدولة الناشئة لا بد أن تعيش وليس من سبب يمنعها من ذلك · فان كانت ضعيفة وجب اعطاؤها دعامة لتقويتها ، وهى فى الواقع آخــذة فعلا فى السير قدما بهمة ونشاط ·

هذا طرف من الحديث الذى تضمنه كتاب « داخل افريقية » للكاتب الامريكى جون جونتر ، وهو كما نرى منصف حينا وغير منصف حينا آخر غير ان حديثه يدعو الى القراءة ويبعث على التامل والتفكير ·

سندباد بحرى جديد حول افريقية

انه ملاح عظيم وجواب آفاق قهر البحار ... من القرن الخامس عشر الميلادى أو من القرن التاسع الهجرى الا انه ملاح جديد لان البحث العلمى لم يهتد اليه الا منذ فترة وجيزة فقد عثرت على مخطوط مصور منقول عن المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٢٢٩٢ و ٢٥٥٩ كتبه احد البحارة الذين اشتركوا مع الرحالة البرتغالى الذائع الصيت فاسكودى جاما فى رحلة حول رأس الرجاء الصالح وهو شهاب الدين أحمد بن ماجد

وكتاب ابن ماجد هذا يسمى « الفوائد فى أصول علم البحار والقواعد والاراجيز والقصائد » وهو أحد الكتب التى استخرجها واهتم بتصويرها أحد العلماء فى فرنسا ضمن مجموعة مكونة من اربعة كتب عن الملاحة عند العرب : وهى كتاب الفوائد لابن ماجد ، وكتاب الفوائد فى الملاحة لسليمان النهرى ، وترجمة الاقسام الجغرافية فى المخطوطات المذكورة وشرحها مع تفسير الاصطلاحات العربية فى فن الملاحة ، وتراجم بعض الادلاء القدماء البرتغاليين ٠

وغنى عن البيان أن الدول الموحدة فى أوربا اتجهت نحو توسيع أملاكها فى هذا العصر داخل القارة على حين اتجهت الدول القائمة فى شبه الجزيرة الاسبانية بطبيعة مركزها الى التوسع فيما وراء البحار والاستيلاء على موارد التجارة الشرقية التى كانت تدر الربح الوافر ، وكانت التجارة فى يد الغرب والهنود ينقلونها الى أوربا بطريقين : أحدهما يخترق آسيا الوسطى الى البحر الاسود ، والآخر يخترق المحيط الهندى والبحر الاحمر الى السويس فالاسكندرية والبحر الابيض ، فلما قامت فكرة الدوران حول رأس الرجاء الصالح واذن الملك امانويل لفاسكودى جاما بتنفيذ الفكرة فكر فى ربان عربى يهديه فى رحلته ، ويكون على الم تام بالمحيط الهندى على الخصوص ، وقد وجد فى شخصية ابن ماجد ضالته المفقودة وعونه على ارتياد البحار المجهولة ٠

وقد أشارت دائرة المعارف البريطانية الى معاونة بعض البحارة الهنود لفاسكودى جاما ، ومن المرجح أن يكون هؤلاء البحارة من العرب وعلى رأسهم ابن ماجد ، اذ ثبت لبعض علماء العرب أن فاسكودى جاما استعان بابن ماجد فى تسيير أسطوله حول الارض الذى أبحر من تاجوس فى ٩ من يوليه سنة ١٤٩٧ فى منطقة مالندى على ساحل افريقية الشرقية الى قاليفوت فى الهند ٠

وقد استطاعت سفن فاسكو دى جاما أن تتغلب على الانواء والاعاصير التى منعت بارتليموديار من التقدم ومتابعة رحلته ، فعاد أدراجه مع رجاله بعد أن كانوا على وشك الهلاك ٠ وعندما عاد فاسكو دى جاما الى البرتغال فى سبتمبر عام ١٤٩٩ كان يحمل لابن ماجد فضلا لا ينسى ومعروفا لا ينكر ٠

دراسة علم البحار

وقد لقب المستشرق الفرنسى جبريل فران ابن ماجد بأسد البحار وربان فاسكو دى جاما ٠

والواقع أن من يتناول كتابه المخطوط يلاحظ مدى تفوقه فى دراسة علم البحار وطوفانه فى أنحاء مختلفة من أرجاء العالم ، فقد أتى على وصف جميل لكثير من البلاد التى طاف حولها أو نزل فيها فى أسفاره : كسواحل الهند الغربية وشبه جزيرة العرب وجزيرة مدغشقر وسومطرة وفرموزة وسيلان وزنجبار ، كما ضمنه طريق سير السفن فى البحر لمعرفة منازل القمر ومهب الرياح ومعرفة القبلة وأصول الملاحة وحجر المغناطيس وأقسام الابرة المغناطيسية ٠

وقد ختم كتابه « بحاوية » تشمل أراجيزه وقصائده كأرجوزته عن الملاحة فى خليج عدن عام ١٤٨٥ ومعرفة القبلة عند العرب والاستدلال عن النجوم وذكر المراسى على ساحل الهند الغربية وأرجوزته فى فوائد لبعض النجوم الشمالية فى سير السفن وأرجوزة الضرائب فى ذكر الكواكب النافعة فى الملاحة ، وهى فى ١٩٢ بيتا ، وارجوزتهالمنسوبة لعلى ابن أبى طالب فى معرفة منازل القمر وحقيقتها فى السماء واشكالها وعددها وأوصافها ، وارجوزة « الهاوية » فى النجوم التى توافق رسو السفن فى وصف المراسى ٠ وأرجوزته فى الضفدع والاسماك والحيتان، وأرجوزته فى الصخور البحرية وأعماله وغير ذلك من الاراجيز الطريفة التى تشتمل على تجارب ابن ماجد فى مضمار الملاحة وعلو كعبه فى هذا الميدان ٠

ومن طريف ما ذكره عن علم ركوب البحار : « اعلم أيها الطالب أن لركوب البحار أسبابا كثيرة ، فافهمها ، فاولها معرفة المنازل والاضفاف والدير والمسافات والباشيات والقياس والاشارات وحلول الشمس والقمر والأرياح وأسمائها ومواسم البحر وآلات السفينة وما تحتاج اليه وما يضرها وما ينفعها وما يضطر اليه فى ركوبها ٠

وينبغى أن تعرف المطالع والاستويات وحالة القياس ومطالع النجوم ومغاربها وطولها وعرضها وبعدها ، وينبغى أن تعرف ما فى الاعماق كالطين والحشيش والحيتان ومد البحر وجزره وآلات السفينة » ٠

واشتمل كتابه كذلك على الآداب التى ينبغى أن يتوخاها المسافرون فى البحر مما يعد دستورا طيبا للبحارة والمسافرين فقال :

« ينبغى انك اذا ركبت البحر أن تلزم الطهارة فانك فى السفينة ضيف من أضياف البارىء عز وجل فلا تغفل عن ذكره ، فانه شديد العقاب وانه لغفور رحيم لانه يمهل ولا يهمل فلا يغرنكم باللهالغرور واترك ما يعنيك وانه جميع الركاب عن كثرة المزاح فى البحر ، فما ينتج منه الا الشر والبغض والعداوات ومن أكثر منه لم يخل من حقد عليه أو بغض له أو استخفاف به » ٠

ثم يوجه ابن ماجد بعد ذلك الخطاب الى ربان السفينة فى تأكيد وتصميم : « ولا تركب سفينة الدلالة والهداية وأنت فيها غير مطاع ولا تأخذ دركها على نفسك درج الدلالة فلا تكن الا مطاعا ، وهذب الراى فان ركوب البحر عند من لا يسير مسيره صعب فى بر أو بحر » .

اقامتى بين من لا يقتفى أثرى ... أمر من خطرات البحر فى المطر
دعنى بفلك أقاسيها على خطر ... فانها خير من صحب على خطر
ذى آية الله مثوى لى ومصطحبى ... رب كريم وعون المرء فى السفر
أنفقت عمرى على علم عرفت به ... فازددت بالعلم توقيرى على كبر

(ص ٥٩ مخطوط باريس)

معرفة القبلة

وقد أتى لنا ابن ماجد فى كتابه على طرق لمعرفة القبلة ونظم هذه الطرق فى ارجوزة من اراجيزه الطريفة وقدمها بمقدمة نثرية يقول فى اولها :

لما رأيت الناس يميلون عن معرفة القبلة وليس لهم اصل يعرفونها به خصوصا فى المدن اللواتى بقرب البحر وجزره التى يمر بها المسافر نظمت هذه الارجوزة واقمتها بأوضح الادلة وأسهلها بأربعة وجوه :

الوجه الأول بطول مكة المشرفة وعرضها وطول البلد الذى فيه الانسان وعرضها .

والوجه الثانى على الجدى

والثالث على بيت الابرة .

والرابع على جهات الكعبة الاربع .

ويحتوى كتاب الفوائد فى أصول علم البحار والقواعد على تغييرات علمية كثيرة فى علم الفلك والنجوم وقد أشاد فران فى مقدمته الى أن ابن ماجد لا جناح عليه فى استعمال هذه الاصطلاحات لانه بحار ، وقد كتب كتابه الى بحارين مثله ، غير أن ابن ماجد كان يشعر دائما بأنه لا يزال عند أبواب المعرفة فكان يقول :

يا أيها الناس مهما شئتمو قولوا ... الارض معلومة والبحر مجهول

وكان فى بعض الاحيان يزهو بعلمه ويفخر بتجاربه الكثيرة فيقول :

فان تجهلوا يا قوم قدرى فانما ... سيأتى رجال بعدكم عارفو قدرى
بطول الذى قاسيت شرقا ومغربا ... وقست شمالا أو جنوبا الى القمر

***

فينبغى للانسان أن يعرف الشر أكثر مما يعرف الخير لان الخير للزيادة ومعرفة الشر للوقاية ، وكأنما أدرك ابن ماجد فى هذه العبارة أن

العلم ضرورة ، غير أن هناك علوما لا بد من معرفتها وان كانت الشجى فى الحلوق ٠

وقد وصف ابن ماجد فى كتابه البحر الاحمر وصفا جيدا ، غير انه ادعى أنه أكبر البحور ، ولعل ذلك يرجع الى قلة الآلات المستعملة وقت ذاك فى المساحة وقيل : ان ابن ماجد قد اخترع الابرة المغناطيسية ، كما ذكر برتن الانجليزى ان بحارة عدن فى سنة ١٨٥٤ كانوا قبل السفر يتلون الفاتحة اكراما للشيخ ماجد ٠

ومهما يكن من شيء ، فان هذا المخطوط الذى بين أيدينا يلقى كثيرا من الاضواء على ربان عربى كان له شان عظيم فى الملاحة وكان من ابرز المعاونين للرحالة البرتغالى فاسكو دى جاما فى رحلته حول رأس الرجاء الصالح ، كما يلقى الاضواء على علم البحار مثلما يراه ذلك الربان العربى وكما كتبه فى أسلوب نثرى حينا وأسلوب شعرى حينا آخر حتى يكون أقرب حفظا عند البحارة وأشد مساسا لقلوبهم وعقولهم جميعا ٠

حديث فى الصحافة
لعالم غربى

يعد الكاتب الصحفى الانجليزى ويكهـم ستيد Wichham Steed من أعلام الصحافة فى العصر الحديث ، وقد عمل فى الصحافة مدة طويلة وقام بنصيب مشكور فى خدمة صاحبة الجلالة فخبرها خبرة واسـعة ووصل فى ميدانها الى غاية بعيدة حيث أشرف على تحرير جريدة التيمس الانجليزية فترة طويلة من الزمان ، ودام عمله فى الصحافة خمسين عاما ، فتعلم الاختزال وأتقنه ، وخبر التحرير وأحسنه،وعرف كيف يلج المجتمعات ويحضر المحاضرات ، وقد الف ويكهم ستيد كتابين فى الصحافة سـمى الاول The press كما سمى الكتـاب الآخر Journalism ، وله غير هذين الكتابين كتب أخرى ومقالات جميلة فى الصحف ، وقد لجا ويكهم ستيد الى الصحفى الكبير ى·ت·ستيد يسأله النصح فى ميدان الصحافة فقال ستيد لستيد :

(كل ما يحضرك فى الكتابة فاسرع ودونه وبعد أن تدونه تصـور أنك سوف ترسله بالبرق وأنت فى بلدك انجلترا الى استراليا على نفقتك الخاصة بحيث تكلفك الكلمة الواحدة شلنا ، وعلى هذا ينبغى أن تحذف ما لا فائدة منه ولا غناء فيه وستجد فى النهاية أنك حذفت كثيرا وأبقيت قليلا ، ولكن هذا القليل هو ما ينبغى أن ترسله الى صحيفتك) .

هذه هى نصيحة رجل صحفى قديم من أساطين الصحافة أرخ حياته فردريك وايت : Fredric Whyte فى مجلدين لويكهم ستيد ،فالصحافة اذن لا تقبل المراوغة ولا المداورة ، ولا تحتمل الاسهاب ولا الاطناب ، ولا ترغب فى دوران الجمل الكثيرة حول معنى واحد ، انما تريد الصـحافة شيئا سهلا يسيرا قصيرا يقبله القارىء ، فى سهولة ويسر دون أن يكلف نفسه عناء القراءة ودون أن يكلف كاتبه عنـاء الكتابة كذلك فيستريح ويريح .

وقد بين ويكهم ستيد مهمة الصحافة فى جمع الاخبار التى تهم الرأى العام واعلانها وتفسيرها ، وهذه المهمة مفيدة قيمة ما فى هذا شك وفيهـا كثير من المسئولية ، ولكن فيها أيضا كثيرا من الشرف والفخار :

فمنذ فجر التاريخ ومنذ مستهل الحياة فى هذه المعمورة ولا نستطيع ان نعين بالتحديد ذلك الوقت الذى قامت فيه الأخبار بدور حيوى كبير فى حياة الانسان بل وفى حياة الحيوان أيضا ، فمجرد اتقاء الحيوانات للخطر ما هو الا (أخبار) بذلك ، وكذلك الحال فى المجتمعات المتحضرة ، فالحكام يحاولون أن يستشفوا الاخبار الوثيقة والبيانات الصحيحة عن الشئون المؤثرة فى

مصلحتهم ، ولذلك وجد السفراء كما وجد المنادون على الاخبار أو الجارون لتبليغها ، كما وجدت المراكب السريعة لنقل الاخبار ووجد من يحملون الاخبار والرسائل على ظهور الدواب ووجد المتكهنون والعيون والجواسيس. ولذلك قالوا في الامثال (أن تقدر الخطر قبل وقوعه وهو ان تستعد قبل حدوثه) فمعنى الاخبار ان تعطى الشعب تحذيرات او تبليغات بين الحين والحين عن الاحداث التى وقعت أو الاحداث التى قد تقع ودورة هذه الانباء بين أفراد الشعب خدمة اجتماعية لها قيمتها ولها خطرها .

فالصحافة اذن صورة حديثة من الخدمة الاجتماعيـــة قد نهضت وانتعشت بفضل الطباعة ، ولم تلبث أن ازدادت نهوضا وانتعاشا وامتلأت حياة ونشاطا بفضل الانتقال من المرحلة البدائية الى المرحلة الميكانيكية ، فأمكن بذلك ان تجمع الاخبار ، وأن توضع فى اطارات معدنية وأن تنشر على الناس بكميات كبيرة .

ولم تكن للصحافة في منشئها الا حرية محدودة حتى وضعت الدساتير السياسية ، وحررت الطبقة الثالثة أو السلطة الثالثة بتعبير آخر ، وأطلقت على الصحافة السلطة الرابعة ، ومن ثم أخذت الصحافة تزدهر وتنتعش ، وكان بعض الصحفيين يخرجون دوريات تناقش المصلحة العامة كما تناقش شئون الشعب ، ولكن لم تكن فى انجلترا صحافة مستقلة كاملة الا فى الربع الاخير من القرن الثامن عشر ، وأسست بعض المطابع التى ســـاهم فى تكوينها كثير من المولين ، كمـــا أنشئت جريدة التيمس The Times فى سنة ١٧٨٥ تحت اسم (الديلى يونيفرسال Daily Universal register وقد أسسها طباع يسمى جون ولتر John Walter حتى تؤكد للناس قيمة فن الطباعة الحديث ، وتثبت الصلة الوثيقة والوشيجة القوية بين تقدم فن الطباعة والخبرة الصحفية .

وطفقت الصحافة تنمو وتزدهر منذ أن أصبحت معرفة الاخبار عملا قانونيا خاصا ، وكان من الطبيعى أن تحاول الحكومات أن تسيطر او أن تحد من سلطة الصحافة سواء بفرض عقوبات أو غرامات رادعة ولاسيما عندما خاضت الصحف فى المسائل السياسية والشئون الدبلوماســـية ، فكان من اللازم الحرص فى هذه المسائل والحيطة فى تناول هذه الشئون، ولا تزال الصحافة حتى اليوم معرضة لكثير من القيود ، ومن أمثـلة ذلك قانون تسوىء السمعة والقذف والتشهير Law and libel

ولذلك كان كثير من الصحفيين مقيدين فى نقدهم وتعليقهم على الانباء، فيفرضون بذلك رقابة من أنفسهم على أنفسهم ويتخذون الحيطة فى نشر الاخبار .

ويعتبرون هذه الحيطة واجبا مفروضا عليهم لا مفر منه ولا محيص عنه ، وقد صرحت بذلك جريدة نيويورك تيمس الامريكية التى جعلت من مبدئها (نشر كل الاخبار الجديرة بالطبع) فللمجتمعات الديمقراطية وقت السلم الحق فى معرفة كل ما يمس مصلحتها العامة وما حرية الصحـافة أو بمعنى آخر غياب القيود الرسمية على استقلال الصحـفيين فى الظروف

العادية الا منحة لاستتباب السلام الاجتماعي ، أما في وقت الحرب حيث تنتشر الاخبار المثيرة الخطيرة وحيث يمكن الخبر الكاذب أن يهدد كيان الأمة جمعاء فقد وجب أن تفرض رقابة رسمية على الصحف لان هذه الرقابة لا يمكن الاستغناء عنها في مثل هذه الآونة الحرجة .

ولكن تحت تاثير أى الظروف والاحوال يستغل الصحفيون هذه التجارة ؟

أما اذا كانت الصحافة مهنة فما المؤهلات التى تطلب من الصحفيين ؟ وما الشيء الذى يؤهلهم أن تطبع أخبارهم وتباع أفكارهم وبأى الدرجات العقلية والميزات الاخلاقية يتحلى الصحفيون قبل أن يسيطروا على روح الاستطلاع في الشعب ؟ فالصحفيون لا يجتازون امتحانات مهنية والصحفيون ربما لا يكونون حاصلين على دبلومات أو درجات علمية، وربما لا تزيد ثقافة بعضهم عن ثقافة فنان صغير ، فمن أين أتتهم هذه السلطة ، وكيف حصلوا على هذا المركز وهذه المكانة العظيمة ؟

المفروض أن الصحفيين ينبغي أن يكونوا أصحاب (أقلام مستعدة) Ready Pens للكتابة فى أي موضوع من الموضوعات بغض النظر عن الموضوعات التى لا يعلمون عنها الا النزر اليسير والقدر الضئيل ، فهنالك أخبار صادقة ، وهنالك أخبار كاذبة ، وهنالك موضوعات يضطر الصحفى الى الخوض فيها تكون مما تميل اليه نفسه وتستهوى قلبه ، ولكن كثيرا من الصحفيين يخطئون فى نصح المبتدئين بالدخول في ميدان الصحافة والمضى فى سبيلها .

ويرى ويكهم ستيد عكس هؤلاء جميعا ، فبعض الشباب يسالونه عن كيفية الدخول في ميدان الصحافة وعن كيفية اتخاذ الصحافة كمستقبل لهم ، فيلقى ويكهم ستيد بالماء البارد على مطامحهم (الحارة) ويضعهم فى امتحان عسير حتى يخلص عقولهم مما بها من آمال كاذبة وأحلام براقة ..

فبعض الهواة يرون ـ وبدون سبب معقول مقبول ـ أن للصحفيين قدرة أدبية ، ولكنهم في الواقع يبعدون عن الحقيقة كثيرا ولا يعرفون أن الانسان قد يكتب عبارات صحيحة سليمة من الأخطاء ، ولكنه يكون غير صالح للصحافة ، على حين يرى الآخرون أن لديهم أفكارا كثيرة يرغبون فى نشرها ، ولكنهم لا يعرفون أن الصحافة تعتمد على الجانب التجارى كذلك، وان بعض الافكار ربما لا تجد عند جمهور القراء قبولا ، وقد تجذب الهواة الآخرين المرتبات الضخمة والأجور المرتفعة التى يحصل عليها الصحفيون الناجحون ، ولكنهم لا يدرون ما وراء هذه المرتبات وهذه الاجور .

غير ان أكثر طلاب الصحافة يتمنون أن يدخلوا فى ميدانها كقاعدة عامة بجوار عجلة الطباعة ، وأن يشاركوا بايديهم فى تكييف الفكر للأمة.

وقد يكون من حق هؤلاء جميعا ان ياملوا وان يستلهموا آمالهم من الصحافة ، ولكن ويكهم ستيد الصحفى المجرب الخبير يرد عليهم : كلا ،

الا اذا كنت مستعدا أن تخاطر وأن تكابد الفقر ابتغاء وجه الصحافة وتفضل ذلك العمل على أن تكسب رزقك من عمل مربح فى أى مكان ...

انه بالرغم من وجود مدارس للصحافة ومعاهد لتمرين الصحفيين فان الصحفيين يولدون ولا يصنعون ، وقد تمر سنوات كثيرة على شاب تعلم الصحافة والكتابة الصحفية الفنية (النظرية) حتى يعلم انه ينقصه الاستعداد الشخصى والميل الحقيقى الذى بدونه تكون حياة الصحفى فارغة .

ليس كل من يعمل فى صحيفه صحفيا ، فالجريدة تضم كتبة مثل كتبة البنوك ، كما تضم مستخدمين وأطباء ومحامين ورجال أعمال . وهؤلاء جميعا لا تفتقدهم الجريدة فى وقت من الاوقات ، ولكنها دائما تفتقد الصحفيين فهؤلاء الصحفيون لا يمكن أن تستكفى بهم صحيفة من الصحف، انهم رجال ونساء بعقول ذكية وأفكار نيرة وعزيمة ماضية للبحث والتنقيب فى أرجاء المعمورة أملا فى الوصول الى ذلك اليوم الذى ينشرون فيه آراءهم ويبثون فيه معتقداتهم فى عقول الآخرين . وعندما يذكر ويكهم ستيد الصحفيين يعنى ما يقول بهذه الكلمة ، غير ان للصحفيين الموهوبين الحق فى معرفة التفاصيل الدقيقة والصعوبات الكثيرة فى عملهم والعقبات التى تحول بين الجوانب المثالية والمناحى المادية ، تلك العقبات التى تصرف الصحفيين عن تدوين خبرتهم .

فرأيهم فى الصحافة عظيم غير أنهم يحسون بالثغرة الواسعة التى تفصل الجوانب النظرية عن العملية والمثالية عن الحقيقة ، وهم يعتقدون فى قرارة نفوسهم أنهم لا يستطيعون تقرير كون الصحافة صناعة أو عملا أو مهنة حرة أو وزارة ، فالتجربة قد علمت الصحفيين أن الصحافة قدتكون هذا كله أو بعض هذا كله . والصحفيون قد يكونون هذا كله أو بعض هذا كله .

والصحفيون لا يستطيعون أن يضعوا تعريفا جامعا مانعا للصحافة وان كانوا يعرفون أن الصحافة تتكون من جمع الاخبار وطباعة ونشراخبار الحوادث يوما بعد يوم بتعليق أو بدون تعليق وبوجهة نظر أو بدون وجهة نظر .

والصحفيون يعرفون أن الصحافة عمل فيه كثير من المسئولية ،لان الاخبار ينبغى أن تكون صحيحة كما أن التعليق ينبغى أن يكون امينا ، وعندما تطبع وتنشر الاخبار ينبغى أن تباع ، غير أن الجمهور ربما لا يحب الاخبار السيئة أو الآراء التى لا طعم لها ، فمنتجو الصحف يعتمدون على ذوق الشعب ، ولكن كيف يؤهلون لذلك ؟ والى أى مدى يخدعون أنفسهم ويدعون ثقتهم ليجعلوا أخبارهم وآراءهم توافق ذوق الجماهير ؟ وهل نلومهم فى هذه الحال كما نلوم التاجر الذى يطفف فى ميزانه ، والصانع الذى يزيف فى صناعته ؟

وهذه الاسئلة تساعد على بيان المبدأ السائد أو الذى ينبغى أن يسود فى الفن الصحفى ، فالأمانة الصحفية ثقة اجتماعية ضرورية قد وضعت

كاتفاق مع الشعب حتى تكون الاخبار صادقة ، ويكونهؤلاء الذين يقدمون الاخبار للبيع صادقين فى تعليقاتهم ، وهذه الثقة المتبادلة نفسها توجد بين الاطباء والمرضى ، غير أن الاطباء يسيرون وفق نظاموقانون مهنى دقيق، كما أنهم مضطرون الى الحصول على مؤهلات طبية ، على حين ان الصحافة (مهنة حرة) تخضع لقليل من القيود الخارجية فى قوانين البلاد .

والسؤال الذى يتبادر الى الذهن هو : هل الصحفى هو الذى يبيع اخبارا يعلم انها كلها كاذبة او ان بعضها زائف ؟ وهل الصحفى الذى يموه الحقائق ليجعلها قريبة الى النفس أكثر جرما من التاجر الذى يطفف فى ميزانه أو الصانع الذى يقدم بضائع مغشوشة ؟...

الواقع أن نشر تصريح كاذب أو اذاعة فكرة خاطئة أكثر خطرا واشد أذى من بيع البضائع الزائفة على أنها بضائع جيدة ، ولكن الصحفى الكبير ويكهم ستيد يعتقد أن الافكار الكاذبة اشد خطرا من السكر الزائف أو الصابون المغشوش .

ان الصحفى الذى يخون ثقته يقع عليه اللوم أكثر من التاجرالمحتال، ان الصابون الفاسد يفسد الجلد ولكن الافكار السيئة تنفث السم فى العقل . والصحافة مهنة حساب على اعتبار أنها أساس لما يطلق عليه الآن (صناعة الصحف) ، لان مواردها الاولية ليست فى الحقيقة الا عقل الجماهير ، فهى تتاجر فى (القيم الانسانية) أو بمعنى آخر : ان المسئولية الخلقية التى يتحملها الصحفيون تختلف عن تلك المسئولية التى يتحملها رجال الدين والزعماء أو قادة الرأى ، فالصحافة تتأثر بحالات صناعية وظروف تجارية على عكس الحال عند الافراد القيمين على عقلية الجماهير أو أخلاقهم .

وليس من شك فى أن صناعة الصحف تحتاج الى راس مال عظيم ، فهى تستهلك يوما بعد يوم آلاف الاطنان من ورق الصحف ، وهذا الورق مصنوع من لباب الخشب المستخرج من بعض أنواع الشجر ويطحن هذا المستخرج الابيض بمطاحن شديدة القوى،وأغلب مواد هذا الورق يستورد من وراء البحار على ظهور السفن خاصة ، ويلزم كذلك صناعة الصحف مئات من البراميل الملأى بحبر الطباعة لتحبير الاوعية المعدنية التى تغطى الاسطوانات المعدة للطباعة ، كما انها فى حاجة الى آلات للطباعة وآلات لطى الورق وآلات لقطع عشرات آلاف من الصحف فى الساعة ...

وتحتاج صناعة الصحف كذلك الى راس مال عظيم لجمع الاخبار من جميع انحاء العالم ، ولدفع مرتبات لهؤلاء الذين يرسلونها ، ولدفع نفقات الارسال ، كما تحتاج الى راس مال كبير لدفع مرتبات هيئة التحريروأجور العمال ولقضاء بعض المصالح فى البلاد ، وتحتاج كذلك الى مقر كبير توزع منه الصحف المطبوعة على وجه السرعة ، كما انها تحتاج الى رتل من السيارات للتوزيع السريع ، لهذه الاسباب ولغيرها كان انتاج الصحف صناعة حقيقية .

والصحف الى جانب ناحية الاخبار والتعليق تنشر اعلانات المعلنين

تكون هذه الناحية مقدارا كبيرا من دخل الصحف · أما ضرورة الحصول على هذا الدخل فمتاثرة باكثر من سبب فان ثمن بيع الجريدة يعتمد على نوع توزيعها او بمعنى آخر يعتمد على درجة الثقافة والوعى والقوة الشرائية عند الجماهير . ولو اساءت هيئة التحرير الى القراء فى اثناء اداء الواجب عليها للجماهير فقدت الجريدة حركة التوزيع ، ومن ثم لابد ان يتاثر بذلك دولاب العمل ، فربما لا ينسى كثير من الصحفيين ان ما يعتبرونه مهنة او فنا او حتى وزارة يتاثر وله صلة وثيقة ببيت المال .

وبرغم هذا كله فان الصحافة تحسب مهنة تعصم من الحاجةويتمرن عليها كثيرون ، كما يتمرن الاطباء والمحامون على مهنهم · والصحافة فن كذلك ، لان النجاح فى الجريدة قد يعتمد على الطريقة التى تستعرض بها الاخبار والافكار · والصحافة بعد هذا كله وزارة وليس هناك صحفى يستحق هذا الاسم ، جدير بان يؤثر فى عقول القراء الا اذا كان يشعر بالمسئولية الخلقية تجاه القراء ·

ان كل الغابات المقطوعة لاستخراج ورق الصحف وكل الاطنان السوداء من الحبر الذى يحبر الاوعية المعدنية التى تضغط الكلمة المطبوعة على اسطوانات الورق الملفوفة . وكل هذه الملايين من الجنيهات التى تصرف فى سبيل الاعلان تعتمد فى النهاية على دعاء الصحافة لعقل الجماهير ، هذه هى الصحافة الحق .

والفكرة التى تقول بان عقل الجماهير سهل التاثر وسهل الخضوع الى اى لون من الوان الدعاية فكرة خاطئة ، فان الراى العام او ما يتصوره الصحفيون بالراى العام يؤثر فيهم انفسهم ، فذوقالجماهير يؤثر فىحركة التوزيع والتوزيع يعين قيمته ، ولهذا يعمل الصحفيون على اعطاء الجمهور (ما يريده) ·

والصحفيون الذين يستطيعون التخمين بما يريده الجمهور هم (الأوز) الذى يبيض بيضا من الذهب لأصحاب الصحف اللهم الا اذا كانوا هم انفسهم أصحاب الصحف .

ولكن ماذا يريد الجمهور ؟ انه كقاعدة عامة يريد العواطف ويكره ويمتنع سريعا عن شراء أو بيع الصحف الكئيبة · أو بمعنى آخر الصحف التى لا تقدم الى قرائها شيئا طريفا فيه حماس وفيه حياة وفيه حوادث مثيرة ومحادثات خطيرة وافكار نيرة وأخبار مسبوق اليها . ويمكن تعريف الأخبار بانها ما هو حادث فى نطاق الحياة ، وهناك مثل يقول وقد يكون فيه بعض المجون (الرذيلة تكون أخبارا أما الفضيلة فلا تكون) وهذا المثل يثبت أن الفضيلة شيء عادى أما الرذيلة فشيء غير عادى وعندما لا تكون هنالك أخبار فى الجريدة واشياء تخرج على المالوف يعتقد القراء أن جريدتهم كئيبة ويتطلعون الى جريدة أكثرحياة ، ولهذا كان الأمر الأول فى الرواج الصحفى الا تكون الجريدة كئيبة ، والكآبة معناها فقد التوزيع ، وفقد التوزيع معناه فقد قوة الاعلان ، وفقد قوة الاعلان معناه فقد الدخل الذى يغطى ما بين ثمن البيع للجريدة وثمن الانتاج ·

واغلب الصحف في انجلترا تباع الى متعهدى الصحف الذين يمونون الجماهير بالجرائد بثمن أكثر قليلا ان لم يكن اقل في الواقع من تكاليف الورق الأبيض الذى يستعملونه في الطباعة . فالصحافة الناجحة ينبغى اذن أن تحرز انتصارا يوميا على الكآبة ، ولكن افكار القراء عن الكآبة تختلف من فرد الى فرد ، فالطعام الذى يقدم الى الاوز لا يقدم الى غيره من الدواجن . وكل جريدة تحتاج الى وسائل كثيرة التأثير في أذواق الجماهير فهى في حاجة الى مضحكات تهز الاشداق لنفر من الناس ، وفي حاجة الى جديات لهؤلاء الذين يؤثرون الجد ، وفي حاجة الى شئون مالية والى رجال الأعمال والدائنين وفي حاجة الى رياضيات للرياضيين والى ادب على اختلاف درجاته للمثقفين ولكن هنالك قاعدة عامة تسبب الجودة .

ان القراء على اختلاف مشاربهم وتباين نزعاتهم يحبون ان تجلب اليهم الطرافة والمتعة والتسلية ، ويكرهون ان يقدم اليهم الزجر وتساق اليهم الموعظة ، ولا يتعقلون ان يعلموا او يلقنوا حيث لا توجد اية سلطة مدرسية في هذه العملية .

والواقع ان العلاقة بين الصحيفة والجمهور تجربة دائمة في دراسة نفسية الجمهور . ويعلم الصحفيون الماهرون المكان الأول الذى ترمقه عين القارىء والمكان الذى توضع فيه الاخبار الهامة والفروق بين حروف الطباعة التى توضع للعنوان والتى توضع للتعليق . والنصف الأعلى من الصفحة أحسن عند القراء وأكثر أهمية لأن القراء في العادة يركزون انظارهم جهة اليمين (في الجريدة الافرنجية التى يتحدث عنها ويكهم ستيد) ولهذا كانت الزاوية اليمنى من الصفحة انسب مكان للاعلان . فالجزء الأعلى من العمود الأيمن من الصحيفة هو الجزء الذى يركز فيه القراء أنظارهم في العادة اللهم الا اذا كانت العادة في توضيب الصفحة غير ذلك فعودتهم قراءة الاخبار الرئيسية اليومية عند طرف العمود الأيسر من الصفحة .

والقراء المعتادون على نوع معين من « التوضيب » يحتاجون الى احترام عادتهم ، غير أن بعض الصحفيين الماهرين يغيرون (توضيب) صفحاتهم بين الحين والحين حتى يبعثوا روح التغير في القارىء ويبعدوا القارىء عن روح السأم والملل .

وينبغى ان تكيف الاخبار المهمة بجو خاص ان لم يكن هنالك اختلاف في عرضها فلا يشعر القراء بانهم محتاجون الى أن (يحفروا) ابتغاء الوصول اليها بدلاً من ان تصل اليهم في فكرة واضحة واسلوب مناسب .

ان الكفاح في سبيل التوزيع والدخل من الاعلان يسيطر على شكل واسلوب كل جريدة تقريبا وانه كفاح قد يصل الى حدود غير ظاهرة ان لم يحتفظ بدائرته في أصحاب الصحف والصحفيين انفسهم .

وعلى العموم يمكن ان نقول : ان الجمهور يهتم قليلا بالوسائل التى تصل بها الاخبار والافكار الى الجريدة ، ولكنه يهتم كثيرا بان هذه الاخبار

او الافكار تناسب ذوقه كما أنه يهجر الصحف التى تفتقد الاخبار او تتاجر فى نشرها او التى تشذ فى بيان آرائها كما أن الجمهور لا يهتم بأن الجريدة أساس قوى قدر اهتمامه بشعوره الخاص ·

ورئيس التحرير يحتاج الى قدر كبير من الشجاعة ليمحو تعصب قرائه حين يعتقد انه على حق وان الحوادث سوف تثبت ذلك لأن القراء لا يحبون ان يظهر خطؤهم امام اى صحفى يعتز برايه .

وقد يثق اكثر القراء عقلا فى حكم صحيفته ، ولكن كثيرا من القراء قد يضايقه ذلك ، ومن الصعب على الجريدة ان ترتفع عن مستوى القراء ، ولذلك كان من الصدق ان نقول : ان للأمة الجريدة التى تستحقها · كما نصدق ان نقول ايضا : ان الذوق العـــام للجمهور قد يتاثر بالصحف التى تؤثر فى الغرائز المنحطة للقارىء .

وبعض الصحف تعتمد لزيادة نسبة توزيعهـــا على تقديم ميزات للتامين لقرائها ، لان هذا يشجع الطبقات الفقيرة على شراء الجريدة ، ولكن مثل هذه الأشياء ليست صحافة حقا ، وينبغى ان تحرم مثل هذه الأمور لمصلحة الجمهور فانها ليست الأصل لزيادة التوزيع ولا تمت الى الصحافة بصلة

ويمكن ان نعتبر هذه المسالة فى نظر الصحفيين انفسهم غشـا او نصف غش لأنهم يدفعون القراء الى شراء الجريدة لا لأخبارها ، بل لمـا تمنحه من سندات التامين ٥ وفى مثل هذه الأحوال يدفع المعلنون للنشر ما لا يمكن ان يتسلموه فى الواقع .

أمجاد العرب فى صقلية

صقلية جزيرة رابضة فى البحر الابيض المتوسط فى جنوب ايطاليا ، وهى على شكل مثلث تتساوى اضلاعه ، ولذلك اطلق عليه القدماء « انترينا كريبا » اى المثلث ، ويفصله بحرا عن قلوريا بايطاليا مضيق مسينا ولا يكاد يجاوز ثلاثة كيلومترات ، ويفصله عن تونس معبر صقلية وعرضه مائة وعشرون كم ، وتبلغ مساحة الجزيرة كلها نحو ٢٥٤٦١ من الكيلومترات المربعة

وقد وصلت أمجاد العرب الى هذه الجزيرة منذ قرون طويلة وظل الحكم العربى بها من عام ٢١٧ هـ الى عام ٤٥٠ هـ اى نحو ٢٣٣ عاما .

وعند ما انقسمت الامبراطورية الرومانية قسمين ـ الامبراطورية البيزنطية الشرقية ، والامبراطورية الرومانية الغربية ـ كانت صقلية من نصيب الامبراطورية الأخيرة وادركها ما ادركها من تدهور وانحطاط وفشل واضطراب .

وكانت الدولة الأغلبية فى ذلك الوقت قد مدت نفوذها على بلاد المغرب ونشرت العمران فى شتى ارجائها ، وبنت المدارس والمعاهد والمساجد فى مدينة تونس وسوسة ، كما شيدت ، صهاريج المياه فى القيروان التى أحالت الصحراء المقفرة المجدبة الى جنة وارفة الظلال .

وكان اول الغيث عند ما جهز موسى بن نصير حملة لغزو الجزيرة ، وسميت غزوة الاشراف بعد ما انشأ بتونس دار صناعة صنعت له السفن للقيام بهذا الغزو بيد ان موسى بن نصير لم يطل المقام فى الجزيرة وعاد بعد أن حصل على غنائم وافرة .

ولما تولى امر افريقيا ـ من قبل الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ـ عبيد الله بن الحبحاب اراد أن يقتفى أثر القائد موسى بن نصير وبعيد الغزو ، وفى هذه المرة تقابل اسطول الروم واسطول المسلمين ، ودارت بين الفريقين معركة بحرية رهيبة أسر فيها الروم القائد العربى عبد الرحمن بن زياد .

حينئذ صمم العرب على اعادة الكرة مهما كلفهم ذلك من التضحيات ، وقامت حملة بقيادة حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع بمصاحبة القائد عبد الله بن حبيب

ولم تطل اقامة هذه الحملة فى جزيرة صقلية طويلا ، اذ سرعان ما عادت على اثر اندلاع نيران الفتن فى المغرب .

ولم تستقر الحالة بين العرب والدولة البيزنطية عقب ذلك انما زادت القرصنة البيزنيطة الرومية ، واشتدت هجمات قطاع الطرق

على السفن العربية مما أوغر صدر العرب حتى عولوا على وضع حد لهذه الاعتداءات المتكررة ، وكان عدد الأسرى العرب قد زاد فى هذه الآونة فى جزيرة صقلية زيادة كبيرة برغم الاتفاق الذى عقده زيادة الله الأغلبى مع حاكم الجزيرة على ارجاع اسرى المسلمين الىالبلاد الافريقية.

وشجع العرب على القيام بحملة كبيرة استنجاد الامير «اوفيماس» الصقلى بالأمراء العرب ضد قسطنطين عامل امبراطور الروم فى القسطنطينية الذى استبد باهل الجزيرة استبداد عظيما ، وسام اهلها الخسف ، واذاقهم كئوس الهوان .

حينئذ لم يجد العرب مندوحة من ارسال حملة للتاديب ، ولقطع دابر الفتن المشتعلة فى الجزيرة ، وتأمين حال العرب هناك . وترددت اسئلة كثيرة حول قائد الحملة المنتظر ، واخيرا استقر الراى على اسد ابن الفرات وهو شيخ كبير من مواليد خراسان ، وتربية معاهد القيروان، وكان اسد بن الفرات فى ذلك الوقت فى العقد السابع من عمره ، فعند ما ولاه زيادة الله امارة الجيش الغازى قال أسد : واها يامولاى ! أتعزلنى عن القضاء لكى توليني الامارة ؟ فقال زيادة الله : كلا ! بل امارة الجيش مع القضاء !

وكان القائد القاضى الشيخ يقول مفاخرا : انا أسد والأسد خير الوحوش . وابن الفرات ، والفرات خير الماء ، وجدى سنان ،والسنان خير السلاح !

وقد سارت الحملة باسم الله مجريها ومرساها من مدينة « سوسة » يوم الأحد الموافق ١٤ من ربيع الأول عام ٢١٢ هـ ١١ من يونيو عام ٨٢٤ ووصلت الى مدينة مازرة بعد ثلاثة أيام من اقلاعها .

وخرج الرومانيون يحاولون رد الحملة على اعقابها ، والقاء المسلمين فى البحر ، بيد أن العرب صمدوا امام العاصفة الهوجاء ، وقال ابن ابى الفضل وكان حاضرا المعركة : « ورايت اسد بن الفرات وبيده اللواء وهو يزمزم فحملوا عليه ، وكانت فينا روعة ، فاقبل اسد على قراءة « يس » فلما فرغ منها قال للناس : هؤلاء عجم الساحل ، هؤلاء عبيدكم ، لا تهابوهم وحمل باللواء وحمل الناس معه فهزم الله جل وعلا « بلاطة قائد الروم » واصحابه فلما انصرف اسد رايت والله الدم وقد سال من قناة اللواء مع ذراعه حتى صار مع ابطه » .

ومعنى قول اسد بن الفرات هؤلاء عجم الساحل أى هؤلاء الذين هربوا امامكم من السواحل الافريقية .

وبعد جهاد مرير دام ١٣ شهرا انتقل اسد الى رحمة الله ودفن بمقر استشهاده تحت اسوار سرقوسة ، فتولى مكانه محمد بن ابى الجوارى الذىحمل رسالة سلفه الصالح فى توطيد الحكمالعربى فى ارجاء الجزيرة ، ثم فتح زهير بن عوف مدينة « بالرمو » وهى العاصمة بعد حصار عنيف ونضال طويل .

واتسعت فتوح العرب فى جنوبى ايطاليا حتى بلغوا روما وارتج

عرش البابوية ، وبرغم انقضاء الحكم العربى عن صقلية عام ٤٥٠ هـ بعد أن دب الخلاف بين العرب وكثرت الفتن الداخلية فان مظاهر الحياة العربية ظلت سائدة فى الجزيرة قرونا طويلة ، بل لا تزال لغتهم تحمل بعض الألفاظ العربية حتى وقتنا هذا ومثال ذلك دار الصناعة التى أطلق عليها أهل الجزيرة Darcena ، والأمراس وهى الجبال وقد أطلق عليها أهل الجزيرة Amarra ، ورياح الموسم التى اطلق عليها أهل الجزيرة Moussone وغير ذلك من مئات الكلمات العربية التى دخلت الى اللغة الايطالية أو الفرنسية .

وقد ادخل العرب الى الجزيرة زراعة القطن وقصب السكر والزيتون والفستق والبرتقال والليمون ويقول الرحالة ابن حوقل : ان حقول القمح والشعير كانت تبسط على اكثر اقسام الجزيرة وشاحا من الذهب الابريز .

كما ادخل العرب الى الجزيرة صناعة الحرير ، وفى متحف « نورمبرغ » بالمانيا معطف من الحرير كان يرتديه ملوك صقلية وهو محاط بنسج من الكتابة الكوفية يحمل تاريخ ٥٢٠ هـ ١١٣٣ م .

ولا تزال فى الجزيرة حتى يومنا هذا آثار من قنوات الرى والترع التى انشاها المسلمون فى شتى أنحائها لتسهيل المواصلات ، ونقل البضائع والسلع من مكان الى مكان ، كما لا تزال القرية فى صقلية تحمل الطابع العربى الى الآن من اتساع وتنوع كما أن بها قصر العزيز الذى يطلق عليه الأهالى « لازيزا » وقصر القبة بجوار مدينة بالرمو ، أما كاتدرائية بالرمو فقد بنى المسلمون قسمها الشرقى والأوسط .

وحكم جزيرة صقلية فى العهد النورماندى عدد من الملوك الذين يحبون العرب ، نذكر منهم الملك غليوم والملك روجر الثانى الذى وصفه ابن الأثير بقوله : « سلك طريق ملوك المسلمين من الجنائب والحجاب والسلاحية والجاندارية وغير ذلك ، وخالف عادة الفرنج ، فانهم لا يعرفون شيئا من ذلك ، وجعل له ديوان المظالم يرفع اليه شكوى المظلومين ، فينصفهم ولو من ولده ، واكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الفرنج فاحبوه » .

وقد زاره الرحالة العربى الشريف الادريسى فى مقر حكمه فرحب به ترحيبا عظيما ، واعجب بعلمه وخبرته حتى انه كان ينهض من مجلسه لتوديعه ــ وقد صنع الادريسى للملك روجر الثانى كرة ارضية وزنها ١٨٠٠ أوقية وقسم الدنيا المعروفة اذ ذاك سبعة أقاليم متوازية يبتدىء الاقليم الأول عند خط الاستواء تقريبا ، وينتهى الاقليم السابع عند المتجمد الشمالى الذى يدعوه بحر الظلمات .

ويقول المسيو لورنش فى دائرة المعارف الفرنسية الكبرى عن الكتاب الذى وضعه الادريسى بعنوان نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق : « هو اكمل كتاب جغرافى تركه لنا العرب ، وان ما دققه الادريسى من

تحديد المسافات ، وما حققه من دقائق الوصف يجعل من هذا الكتاب وثيقة نفيسة لعلم الجغرافيا فى مستهل القرون الوسطى » .

وقد قام الصقليون بنهضة ثقافية واسعة فى الفكر العربى ، واخرجوا مؤلفات كثيرة فى شتى المعارف الانسانية نذكر منها كتاب الاشتراك اللغوى والاستنباط المعنوى ـ وينبوع الحياة فى التفسير ، واعلام النبوة لابن ظفر المتوفى عام ٥٦٨ هـ ، كما ظهر كتاب الأفعال وتصاريفها للشيخ ابى القاسم بن القطاع المتوفى عام ٥١٥ هـ ، وكتاب تاريخ صقلية ، والشافى فى علم القوافى ، والملح العصرية ، وطبقات الشعراء للمؤلف الآنف الذكر ، كما ظهر كتاب المختار فى النظم والنثر لافاضل أهل العصر لابن بشرون الصقلى .

وكذلك ظهر منهم علماء نذكر منهم ابا الحسن أحمد بن الحسن الكيلى ، وعمر بن خلف بن مكى ، وطاهر بن عمر بن الرقبانى وغيرهم من العلماء .

وظهر من الصقليين شعراء بارعون نذكر منهم عمار بن المنصور الكيلى ، وعبد الرحمن بن ابى العباس ، وابن حمديس .

وكان هذا الشاعر الأخير من اشهر شعراء صقلية الذين ترنموا بمجد العرب فيها ، وارسلوا الزفرات الحارة من اجله ، واستحث المسلمين وخاصة امراءهم على الأخذ بيدها واستخلاصها من براثن المعتدين الغاصبين .

وقد عاش عبد الجبار بن حمديس حتى بلغ الثمانين من عمره واصبح يقول :

اسلمنى الدهر للرزايا	وغير الحادثان نفسى
وكنت امشى ولست اعيا	نصرت اعيا ولست امشى
كأننى اذ كبرت نسر	يطعمه فرخه بعش

***

وقد سأله بعض الأدباء عن تشبيهه نفسه بالنسر فقال : ليس فى الحيوان من يطعمه ولده اذا هرم الا النسر

ومن قوله فى عصاه التى يتوكأ عليها لكبره :

كأنها وهى فى كفى أهش بها	على الثمانين عاما لا على غنمى
كأننى قوس رام وهى لى وتر	ارمى عليها زمان الشيب والهرم

***

وقد لاقى ربه عام ٥٢٧ هـ فتحطم الوتر الحزين والموج يرتطم بصخور جزيرة صقلية فى قوة وعنف

ملك صقلية يستقبل عالما عربيا

جلس الملك فى قصره وحوله الامراء والوزراء يلتفون حوله من كل جانب وكان الملك يتنقل فى الحديث من موضوع الى موضوع :

فتارة يتحدث فى العلم وتارة يتعرض للفلك وحينا يعرج على الفلسفة ومرة يعرض للفن ، فقد كان مولعا بمجالسة العلماء ومحادثة الفقهاء وكان يجلس امامهم فى هدوء ، كما يجلس الطالب المجتهد امام استاذه أو المؤمن المتبتل امام واعظه ، وكان يعتبر اليوم الذى لا يلتقى فيه بالعلماء يوما لاطائل تحته ولا غناء فيه ولا فائدة منه فلا خير فى يوم من غير علم ، ولا خير فى ساعة يقضيها من غير فائدة فتذهب كالهشيم تذروه الرياح او كاوراق الخريف فى الفضاء

تلك كانت حياة روجر الثانى ملك صقلية فى القرن الثانى عشر الميلادى الذى كان يحكم هذه الجزيرة فى هذه الآونة ، فنشر فيها العلم والمعرفة ، وكان ينظر الى السماء فيتمنى ان يعرف اسرار نجومها ومدارات كواكبها ، وكان يخرج للصيد فى بقاع الجزيرة فيصيد بعض الحيوانات ، ولكن هذه الحيوانات التى يصيدها تثير فى نفسه افكارا شتى وخواطر متنوعة ، فهو يتمنى أن يعرف شيئا عن حيوانات البلاد الاخرى ، بل انه يريد ان يعرف شيئا عن اهل البلاد الاخرى ، وكان يقف على شاطىء البحر والموج يرتطم بالصخور تحت قدميه ، ويتناثر الزبد كالقطن المندوف حوله ، فيفكر ويطيل التفكير ويقدر ويطيل التقدير ويتمنى انيعرف تلك البقاع التى تجثم وراء هذا البحر الخضم ؛ ولكن كيف يتاح له السفر ولديه مالديه من مشاغل الملك وعنده ماعنده من اعباء الحكم .

ويهبط الليل فيجلس الملك مع علمائه يتحدث فى امر هذه الدنيا العجيبة ويتمنى أن يهب الله له من العمر ومن فراغ البال وسعةالوقت مايسمح له بعمل هذه السفرة الطويلة واجتياز هذه الشقة البعيدة .

وفجاة ترامت الى القصر انباء وصول عالم عربى وجواب آفاق طالما قطع البيد والقفار وركب متن البحار وعبر السهول والانهار وهو العالم العربى الادريسى .

قال سمير الملك للملك : ان عالما عربيا قد وطئت قدماه ارض صقلية ولعل مولاى يجد عنده متعة فى الاجتماع به والتحدث اليه ،
فقال الملك : هذا من غير شك ماكنت أطمح فيه منذ زمن بعيد ، لقد علمت انه طاف بشتى الاقطار والامصار وعرف أوصاف البلاد والممالك وقاس ابعادها بالميل والفرسخ

وذهب المنادى لينادى الادريسى ليمثل بين يدى روجر الثانى ،

وعلت وجه الادريسي مسحة من الدهشة وقال متعجبا : احقا يطلبني الملك ؟ فأكد له الرسول انه المعنى وهو المراد ، وحينئذ تأهب الادريسي للذهاب الى قصر الملك روجر الثاني ، ومضى حتى بلغ القصر ووقف عند بابه مدهوشا امام روعة البناء وفخامة القصر ، ودلف مع حارس الى القصر في بالرمو ، وما ان دخل البهو الملكي حتى سمع صوت الملك روجر يتردد في قاعة الاستقبال فتملكته الرهبة ، واخذته الدهشة مرة أخرى، ولكنه تمالك نفسه ، واخذ يحث خطاه حتى وصـل الى الملك ، فهش الملك لمقدمه ، وبش في وجهه ، والغريب أن الملك كان يتكلم العربية لولا بعض الرطانة التى تشوب كلماته

جلس الادريسي في حضرة الملك وكان الملك يتبعه نظراته ويترقب كلماته ، والادريسي لايفتأ يصف البلاد التى زارها والبحار التي اجتازها ويقسم الارض سبعة اقاليم او مناطق ، ثم يقسم كلا من هذه الاقاليم أو المناطق أحـد عشر قطرا ، والغريب انه اخـذ يقول كلاما عن كروية الارض والجاذبية في القرن الثاني عشر قبـل أن يتنبه أحد سواه اليه وقبـل ان يجيء كابرنيك وكوبلر ونيوتن وغيرهم من علمـاء الطبيعة والجاذبية فقال :

ان الارض مدورة كتدوير الماء والماء لاحق بها وراقد عليها رقودا طبيعيا لا يفارقها ، والارض والماء مستقران في جوف الفلك كالمحـة في جوف البيضة ووضعهما موضع متوسط والنسيم محيط بهمـا من جميع جهاتهما ، وهو جاذب لهما الى جهة الفلك او دافع لهمـا والله اعلم بحقيقة ذلك

وعندئذ سأله الملك : وكيف يكون موضع الارض اذن من الفلك ، فقال : ان الارض مستقرة في جوف الفلك وذلك لشدة سرعة حـركة الفلك وجميع المخلوقات على ظهرها والنسيم جاذب لما في أبدانهم من الخفة والارض جاذبة لما في أبدانهم من الثقل بمنزلة حجر المغنـاطيس الذى يجذب الاشياء اليه .

وليس من شك في ان الادريسي في هذا الحديث كان قـد سبق نيوتن الذى ظهر في حوالى النصف الاول من القرن السابع عشر ومات في حوالى الربع الاول من القرن الثامن عشر في معرفة الجاذبية والدلالة عليها وهذا مما يشرف العرب ، ويرفع قدر العلوم العربية بين العالمين

وطفق الملك يسأله عن البلاد التى زارها ، فكان مما تحدث عنـه انجلترا وفرنسا وغيرهما من بلدان أوربا وآسـيا ممـا دهش له الملك دهشة عجيبة .

وعندما جاء الحديث عن مصر طلب منه الملك بعض التفصـيل في الحديث وطلب منه ان يعرف شيئا عن نهرها الخالد وكان ممـا قاله الادريسي للملك : ان عرض النيل في بلاد النوبة ميل واحد ، وعرضـه في قبالة مصر ثلث ميل كما أن في بعض أجزاء النيل الحيوان المسـمى بالتمساح ، وفيها أيضا الحوت المسمى بالخنزير وهو ذو خرطوم اكبر من الجاموس يخرج الى الجهات المجاورة الى النيل فيأكل بها الزرع ، فيرجع الى الماء وفي النيل المذكور سمكة مدورة حمراء الذنب يقال لهـا

« اللاش » لا تظهر به الا ندرة وهى كثيرة اللحم طيبة الطعم ، وفيه ايضا سمك يسمى « الابرميس » وهو حوت ابيض مدور احمر الذنب ويقال: انه ملك السمك وهو طيب الطعم لذيذ يؤكل طريا مملحا

فاشتدت دهشة الملك من هذه المعرفة الواسعة وكان خبيرا بما فى البحار لموقع الجزيرة التى تحفها المياه من كل جهة وطلب منه ان يقدم له عملا يذكره به فوعده الادريسى بتحقيق طلبه وقال له الملك : اننى اريد شيئا جديدا لقد اتسعت اعمال مملكتى ، واحب ان اعرف كيفيات بلادى حقيقة وان اقتلها يقينا وخبرة وان اعلم حدودها ومسالكها برا وبحرا وفى اى اقليم هى مع معرفة غيرها من البلاد والاقطار ، وقد احضرت الكتب المؤلفة فى هذا الفن مثل كتاب العجائب للمسعودى وكتاب ابى نصر سعيد الجيهانى ، وكتاب الكيماكى ، وكتاب ابى القاسم عبيد بن خرداذبة ، وكتاب أحمد بن عمر العذرى وكتاب قدامة البصرى ، وكتاب أرسيوس الانطاكى ، وكتاب بطليموس التالوذى فلم أجد فى هذه الكتب جميعا ذلك مشروحا مستوعبا مفصلا ، فطالبت العارفين بهذا الشأن ، ولكنى لم أجد عندهم اكثر مما فى الكتب المذكورة .

ولم يكد يتم الملك هذه العبارة حتى طمأنه الادريسى وطلب منه ان ينتظر عدة ايام ، وهم ان يودعه ويطلب الاذن منه بالخروج ، ولكن الملك نهض من أريكته وضغط على يده وربت على كتفه وخرج بنفسه يودعه عند باب القصر مما لم يحدث فى تاريخ العلماء .

وتوالت زيارة الادريسى لقصر روجر الثانى ، فما كان الملك يسمع بمقدمه حتى ينهض عند الباب لاستقباله، ويجلسه الى جانب سرير الملك فاذا ما اتم المحاضرات معه وافاد ما اراد ثم هم بالخروج ودعه الملك بنفسه الى عتبة القصر .

ولم تمض ايام حتى صنع الادريسى للملك كرة ارضية ليشرح عليها دروسه ، وكانت كرة عظيمة الجرم ضخمة الحجم فى وزن اربعمائة رطل رومى فى كل رطل منها مائة واثنا عشر درهما وتضم صور الاقاليم ببلادها واقطارها ومدنها وريفها وخلجانها ومجارى مياهها ومواقع أنهارها وعامرها وغامرها والطرقات والاميال والمسافات والمشاهدة وكتب عليها بأحرف عربية كل ماكان يعرفه من البلدان المختلفة، وكانت مصنوعة من الفضة الخالصة .

وقد سر الملك سرورا عظيما بهذه الهدية العلمية الثمينة وشكر الادريسى شكرا جزيلا على فضله وحرصه على توخى الحقائق العلمية حتى اذا ما انتهى المجلس خرج الملك يودعه بنفسه عند الباب والادريسى مزهوا بهذا الفخر العظيم .

وتشاء الايام ان تفقد هذه الكرة بعد ذلك ولولا فقدها لواد فهم المؤرخين لقيمة المعارف الجغرافية فى القرن الثانى عشر الميلادى زيادة عظيمة .

تم الكتاب

فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع جيش روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤